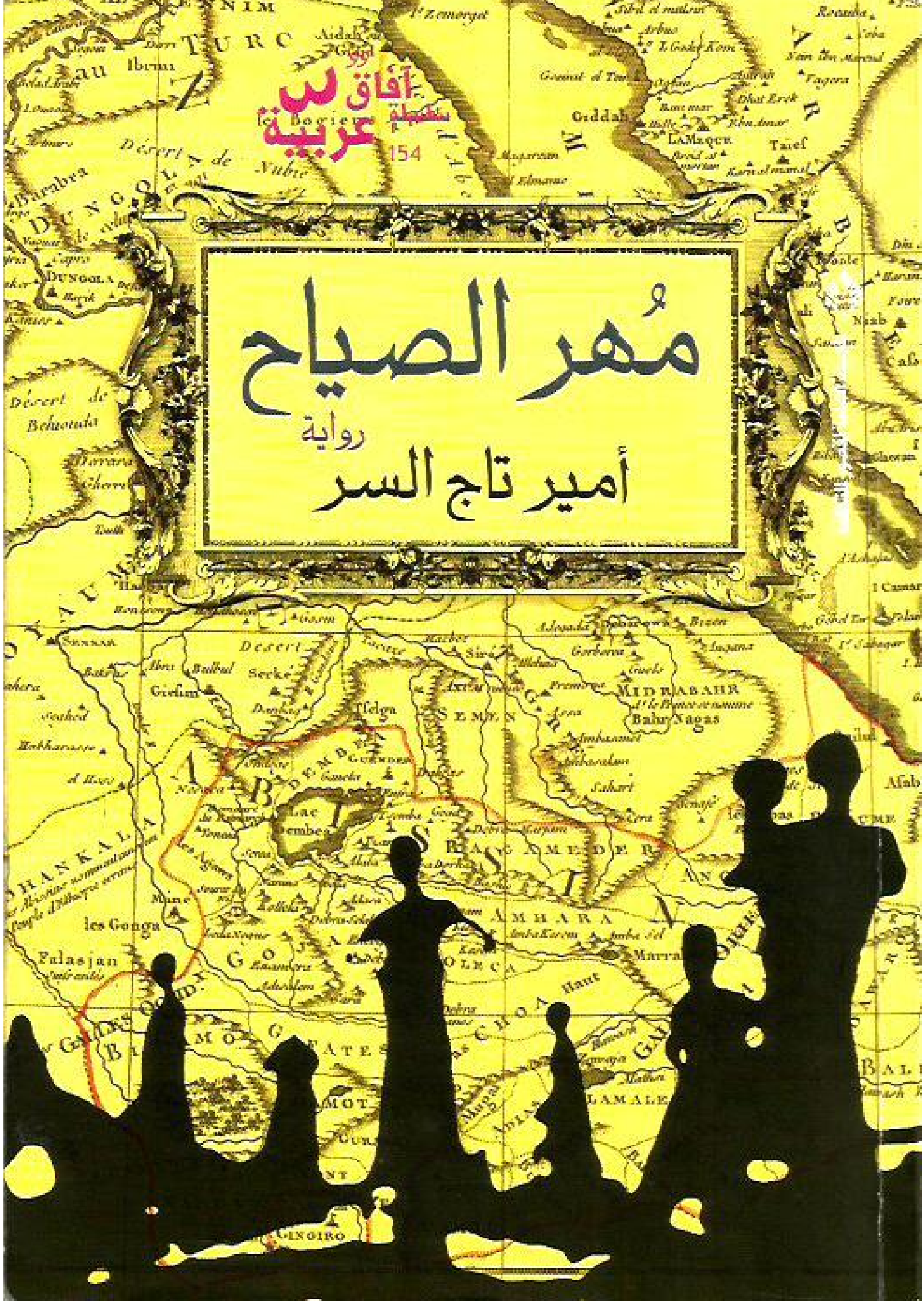

آفاق عربية
154
مُهر الصياح
رواية
أمير تاج السر

مهر الصياح

le council de cris

(رواية)

أمير تاج السر



سلسلة
آفاق عربية

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

- مهر الصياح
- أمير تاج السر

الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة 2013م
5ر13 × 5ر19 سم

- تصميم الغلاف:

أحمد اللباد

- رقم الإيداع: ٨٠١٠/ ٢٠١٣
- الترقيم الدولي: 978-977-718-320-8
- المراسلات:

باسم / مدير التحرير
على العنوان التالي: 16 أ شارع أمين سامي - قصر العيني
القاهرة - رقم بريدي 11561
ت: 27947891 (داخلي: 180)

- الطباعة والتنفيذ:

شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096



سلسلة شهرية تعنى بنشر أعمال الأدباء العرب

مهر الصياح

إضاءة

هـذا النص مستوحى مـن التاريـخ القديم لسلطنـات كانت سائـدة في السودان ردحا من الزمـان، وإن تصادف وتشابهت بعض أحداثه وشخصياتـه، وأسمائه مـع أحداث أو شخصيـات أو أسماء حاضـرة الآن.. فهذا محض صدفة ولا أساس له مـن الصحة.وأود في هذا الصدد أن أشكر الكاتبة المجددة بثينة خضر مكي، التي أهدتني كتابا ألّفه رحالة عربي قام برحلة إلى بلاد السودان في القرن السابع عشر، ومنه استوحيت أحداث هذه الرواية، كما أود أن أشرح معنى (الكوراك) الذي تنبنـي عليه الرواية، وهو الصياح أو المناداة بالصوت العالي.

يذهب الراوي إلى عزلته..

لتحصد عذاب الكلمات.

سنان المسلماني من مجموعة (مزن)

-1-

كان (آدم نظر) في الخامسة عشرة من عمره حين أخذه أبوه لأول مرة إلى مجلس (الكوراك) الذي كان يعقده السلطان (رغد الرشيد) سلطان (أنسابة) عصر كل جمعة للنظر في شكاوى رعاياه، واقتراحاتهم، وأمنياتهم الحالمة أيضاً.. لم يكن ذلك المجلس من اختراع السلطان الرشيد، لكنه كان تقليداً متوارثاً في سلاطين (أنسابة)، والركيزة الأهم في ركائز الحكم.وقيل أنه من وضع السلطان (يوسف ضو) الذي لم يؤسس سلطنة (أنسابة) فقط، لكنه أوقفها على قدميها، زيّنها بجهد وعرق غزيرين وربط أوردتها بشرايين التجارة التي كانت تأتيها من كل صوب.من صعيد مصر من أفريقيا السوداء.. من الحجاز واليمن، وبلاد فارس، وحتى من العالم البعيد والغامض.

كان مجلس (الكوراك) يعقد في قصر السلطان المغروس في وسط العاصمة (جوا جوا)، بناء من طين أحمر داكن على مساحة شاسعة من الأرض تتخللها الحدائق والنوافير، يتوسطه باب عريض من خشب (المهوقني) الفخم، وتتوزع على طول نسيجه، نوافذ صغيرة الجسم تمتص الشمس أو ترضع الهواء، أو تحمل نظرات معذبة من حريم القصر إلي فضول الطريق.كان واحداً من قصوره المتعددة والمنتشرة في (جوا جوا) وضواحيها، لكنه كان المفضل والأفخم والثري في المعمار، والمسمى قصر (المسك) كناية إلى (مسك النساء) إحدى حريم السلطان المفخخات، والتي كانت تقيم بداخله وتعد بمساعدة خصيانها، وجواريها المدربات وليمة الجمعة الاستثنائية.

كان يؤم ذلك المجلس الأسبوعي خلق كثير، يأتون من جحور

(جوا جوا)، من فقرها وغناها، ومن سترها وانكشافها، والتياع مصارينها، ومن حوافها الغاصة بالبدو والرحل، ومهمشي القبائل وأيضاً من تلك الجبال والأقاليم البعيدة والحدود.يملأون العاصمة بالفوضى والدواب، والعادات المتناقضة ويساهمون بشكل كبير في نفاد السلع وغلاء المرطبات وعلف المواشي.كانت النزاعات بجميع مستوياتها تعرض.. الحاجات الملحة وغير الملحة تعرض.. الأمراض المستعصية والخبيثة تعرض.. عذابات البيوت.. وروائح البول والروث وتشقق الأظافر والثارات، وأمنيات الحج والعمرة وأيضاً عقوق الأبناء تعرض ...وتتحول ساعات انعقاد المجلس التي قد تطول وقد تقصر، إلى سوق همجي يعج بالمتناقضات ويشد السياح، وتجار القوافل، وكثيراً من السحرة الجائلين، عارضين لمهاراتهم.وأيضاً رسامي المناسبات التذكارية الذين يسجلون الكثير بألوانهم.لم يكن السلطان يظهر للناس دما ولحما أبداً. كان يجلس في قاعة الحكم الكبيرة المزينة بزخارف الحرب وطبول النحاس والسيوف المصقولة والخناجر، ووجوه الجاريات التي خططها فنانون أوربيون مروا بالسلطنة في أيام مضت.. كان يجلس عن يمينه الأب الشيخ (يوسف كرا) وزيره الكبير ونائبه في السلطنة في حالة الحرب أو السفر أو وعكات المرض، وعن يساره مستشارون في شتى شؤون الحياة في (أنسابة).. منهم ابنه الأمير (مساعد) مؤسس كتيبة (الرعاع) القوية والمكلفة بأعمال جليلة، والحكيم (دوباجي) كبير ممارسي الطب في (أنسابة)، و(لاليا البرناوي) معلم الخط والقرآن ومفتي الديار الأنسابية، و(كردم كردمان) الذي كان وزيراً مبجَّلاً في بلاد الأكراد البعيدة، ودخل (أنسابة) في إحدى السنوات راكباً إحدى القوافل التجارية.. كان فارّاً من خطب ما وقال لاشيء يخيف.. إنه مجرد ثأر، فاحتواه (رغد الرشيد) عينه مصمّما لأزياء السلم والحرب السلطانية وسخر له جيشاً من النسوة والعبيد والخصيان، ينفذون تصاميمه حرفياً.. وكان وجوده في مجلس

(الكوراك)، نابعاً من رغبة شخصية، فقد كان يستوحي من الصياحات ومطلقي الصياحات، أزياء ودروعاً يقدمها للسلطان عند الطلب.أيضاً كان (أحمد برم) عم السلطان ذو العينين الناريتين واللسان الركيك الراطن يحضر صامتا وكاتما لضغينة يكنها للسلطان بسبب نفي ابنه إلى الجبال البعيدة.. وصبابي كبير التجار وموزع ثمار القوافل يحضر، وأحياناً يأتي ملوك الأرياف وحكامها وزعماء قبائلها ليظلوا قريبين من شكاوى قد ترفع في حقهم من قبل مواطني مناطقهم.وكان يقف خلف السلطان مباشرة خمسة عشر من الرجال الأشداء والمدربين على قنص الخيانة، والسلاح الأبيض.. كانوا هم فصيل (الظهوريين) المكلفين بحماية السلطان في كل أوقاته التي يحيا فيها، في المواكب.. في ذكرى الأعياد، وعند السفر إلى القرى البعيدة. وكان وجودهم في مجلس (الكوراك) للزركشة أكثر مما هو للحماية، حيث أن السلطان كان يجلس بعيداً ومحميا داخل مجلسه وبين مستشارين لن يغمد أحدهم خنجرا في قلبه.وكانت الصياحات الشكاوى أو الحاجات ترفع إلي السلطان عبر سبعة ناقلين منتقين من دم السلطان وأواصره المقربة، وحالفين لقسم غليظ بأمانة النقل لا يحيدون عنه أبداً، كانوا ينتظمون في سلسلة رأسها عند السلطان في مجلسه، وذيلها خارج القصر عند المواطنين، وتعود الأحكام السلطانية عبر تلك السلسلة السباعية أيضاً لتصب في آذان الصائحين، والتي تتراوح بين عفو السلطان أو جوره، ورأفته أو احتداد مزاجه.. وفي بعض الأحيان كانت السلسلة تمتلئ لتصب في أذني السلطان وتأتي فارغة، وفي أحيان أخرى كانت تحمل قهقهة أوحُكماً مؤجلاً حيث تطلب من صاحب الشكوى أن يصرخ بعد جمعة أو جمعتين أوحتى مائة جمعة.وعن طريق سلسلة (الكوراك) تلك، أتيح لسلاطين (أنسابة) أن يتنفسوا روائح رعاياهم، يشمون الفتن والدسائس، وعطور الثورات الرخيصة، يقيمون حكام أقاليمهم، وموظفي جبي

الضرائب، وأسعار السلع، يتنزهون بين المتسوقين في السوق والمقاتلين فـي الحرب، والدارسـين في مـدارس الخط والقـرآن، وربما نفـذوا إلى الغيد الحسان في مخادعهن.وحين أصيب أحد سلاطينهم مرة بالغطرسة وألغـى ذلك المجلـس الإحتكاكي، تهدمـت هيبته، وخانه حـكام أريافه، وفـرَّت ضرائب مهولة من تحت رأسـه، ولم يمكث في السـلطنة سـوى أشهر معدودة بعد ذلك.

سار (آدم نظر) ووالده على أقدامهما خائضين في رمل (جوا جوا)، مرا على شوارع خامدة، وشوارع مشتعلة بالصخب، وصادفا غرباء جاءوا من أماكن بعيدة حاملين لصياحاتهم الملونة.. كان الفصل صيفاً في أواخر عمره، ثمة لسعة من حر، ومداعبات من نسيم أحياني وسحاب مسافر لا يستقر.. كان(آدم نظر) مغتبطا بشدة.. وطوال ذلك السير المتعرج، داعبته خيالات عطر الرجولة الذي أحس به في ثوبه وعمامته، وشعيرات شاربه الهزيل.. وفي حذائـه المصنوع من جلد الغزال، والذي كان يرتديه لأول مرة احتفاءً بهذه المناسبة.. وكانـت الخطوات التي كبر من شأنها وحاول إيصالها إلى خطوات والده الناضجة والقوية، قد خضبته أيضاً بإحسـاس رائـع ووفيـر.. كان يتعجـل التجربة، ويـكاد يرتعش حين يفكـر في ذلك الزخم الذي سمع عنه مراراً، ولم تتح له فرصة التقاطه بعد.

كان طالباً في مدرسة (عباد عبد الرب).. المهاجر اليمني الذي دخل (أنسـابة) عن عمد وإصرار في إحدى السـنوات البعيدة راكبـاً في قوافل الحج العائدة.. ليستقر هناك ويؤسس تلك المدرسة.. كان عنيفاً وصلداً، ويحمل في رأسه المعمم ثروة من علوم الدنيا والآخرة.. تحفيظ القرآن.. تلاوة القرآن، خط الرقعة.. خط تهامة.. خط الياقوت والفارسي ونظريات متشعبة في فلسـفة الجهاد والطهـارة، وتحفة العروس، وغسـل الموتى، وكانت دروسه في النحو والصرف هي أكثر ما كان يباغت التلاميذ، كان يحشوهم بها فلا يهضم منها إلا القليل، فيعيد ويكرر دون أن يكل.. كان

قد تزوج في (أنسابة) من إحدى قبائل الأشراف، وأنجب في (أنسابة) أيضاً، واقترب من السلطان رغد كثيراً، اقترب لدرجة أن سبعة من علماء السلطنة كانوا فيما مضى هم عقد اللآلئ الذي يرتديه السلطان، وهو في مجلسه، وفي جولاته، وحربه، قد همِّشوا.. طرد بعضهم من خدمة العلم، وعين بعضهم جباة للضرائب، وأرسل واحد منهم إلى مهمة في بلاد (البرقد) لم يعد منها أبداً.لم ينس المهمشون عبد الرب أبداً.. وضعوه في ذاكرة الغل الواسعة وابتدأوا يخيطون ثوب الفضيحة الذي سيرتديه يوماً، وصفوه بالمجنون، وحامل الجرب والوسواسي، ومروج الإفك، وسلطوا عليه امرأة اسمها (النعيمة) كانت معروفة بالتسلل إلى عواطف المراهقين في (أنسابة)، أغنوها بعدد من الدنانير والسلع الكمالية والسيناريو الملفّق، فجاءت إلى مجلس (الكوراك) في إحدى الجمع، وقفت ممزقة وباكية، وسردت أمام الحشود كلها، وقائع شديدة السخاء عن مهاجر خمسيني اسمه عبد الرب، ظل يتحرش بعواطفها وجسدها لأيام طويلة إلى أن قرصها مرة في سوق (الفخاريات) الكبير في وسط (جوا جوا). وصفت أصابع يديه وما تحتويه من وسخ بين الأظافر، واحمرار شفتيه، والشعيرات البيض في لحيته الجهمة، وقلدتَ حتى نغمته اليمانية حين يقطع على مشيها الطريق هامساً.. يا ريمة.. يا مها.. يا أنس القلب.كان المهاجر حاضراً في تلك الجلسة، فخماً وأخضرا بفعل جبة الحرير التي يلبسها.. وكانت من عطايا (رغد الرشيد) لجلسائه المتميزين حيث لم تهد إلا لثلاثة فقط في (أنسابة).كان في لسانه حديث مدهش لم يكتمل، وفي آذان الحاضرين سماع مندهش لم يكتمل أيضاً.وقف شعر المهاجر حين استمع إلى الحكاية التي دلقها رأس السلسلة في أذني السلطان.. لسعه السلطان بنظرة مرة.. ناداه بعباد اليماني ملغيا ألقاب العالم والشيخ والفقيه، والنحوي، ووالد الصبيان وعدداً آخر من الألقاب التي جاءت معه أو اكتسبها أثناء وجوده في أنسابة.. قال.. .

هكذا يا يماني.

- لم أفعل شيئاً يا مولاي.. ولا سمعت بهذه النعيمة أبداً.. صدقني يا مولاي..

- احكم على نفسك يا يماني.

- نفسي المذنبة أم البريئة؟

ما تريد.

إذن حكمت على نفسي البريئة بالبراءة.

وأنا حكمت على نفوسك كلها بالجلد ثلاثين جلدة.

رماها (رغد الرشيد) ليس أمام خاصته فقط، بل في أذن رأس السلسلة الذي دلقها عبر بقية السلسلة لتصب في الخارج أمام كل الصائحين.

وكان أن سلّم المهاجر إلى كتيبة الرعاع، وجلد بالفعل في ساحة (جوا جوا) الكبيرة وسط عيون شمتت وعيون بكت وعيون توسلت بلا فائدة.. أبعد عن عناية السلطان وعطاياه وموائده، ومجلس (كوراكه) الأسبوعي، لكن مدرسته لم تُمس أبداً.. ظلت تلك المنارة المضيئة في ظلام (أنسابة) التعليمي، تجتذب التلاميذ وترضعهم.. وحتى بعد أن أدخل أحد الأمراء الصعاليك إلي منهجها مادة علوم (الهبرات) المختصة بالصيد والغزل، ونظم النكات وتقوية الخيال الجسدي، وجاء يدرِّسها بنفسه.ظل المهاجر يردد بلا توقف: دسيسة والله العظيم.. دسيسة والله العظيم..

تلك الأيام توقع الكثيرون أن يشرع (عبد الرب) في هجرة جديدة إلى بلاد تقدس العلم، أو تناصب (أنسابة) العداء كسلطنة (كردمال)، لكنه لم يفعل ذلك أبداً.

في تلك المدرسة الفقيرة المشيّدة من عدة أكواخ من الطين والصفيح وسعف الدوم، والقائمة على جهد معلم تخلت دنانير السلاطين عن نصرته، وتلوث منهجه الرصين بجراثيم علم (الهبرات)

والخيال الجسدي، تعلم (آدم نظر) الكثير تعلم أن يرفع رأسه، وينصب عينيه، ويجر عشرات الأسئلة والاستفسارات معه إلى البيت.

في أحد الأيام سأل أمه فجأة..

هل غازلك والدي نظر حبايب قبل أن تتزوجيه؟

انكسر طرف الأم، وتصاعد إلى خديها الدم النابض ولم تستطع أن

وفي يوم آخر باغت قيلولة أبيه التي كانت مقدسة ولا ينبغي مباغتتها.. صب في أذنيه عدداً مهولاً من النكات ومقاطع غزيرة من عيون شعر الغزل في (أنسابة).. قال أعضاء جسمك كلها قاحلة واستهلاكية ما عدا السفلية منها، فهي التي تنتج. وحين ابتدأ يخطو إلى بيوت الجوار العامرة بذوات الخدور، متذرعا بمراسيل وهمية، واستلاف لكماليات لم يطلبها أحد، عرف أبوه، وعرفت أمه، وأخته (الرزينة)التي تكبره بعدة أعوام، أن ثمار علم الهبرات الطالحة قد بدأت تنضج في عقول مرتادي مدرسة (عباد عبد الرب).وقد حاول أبوه وآباء آخرون زيارة المدرسة مراراً للاطلاع على أحوال أبنائهم وإبداء اعتراضات على نظم التعليم، فأوقفتهم كتيبة الأمير (الهبراتي) التي كانت تحرس مقرره، أيضاً حين أوقفوا أبناءهم عن الذهاب إلى تلك المدرسة وأقعدوهم في البيوت، جاءت سواعد ذات الكتيبة واقتلعتهم من أسرَّتهم ومسكنة آبائهم، وكانت محاولة الصياح في هذا الشأن في مجلس (الكوراك) الأسبوعي، ومطالبة السلطان بالتدخل لإلغاء تلك المادة أمراً عسيراً.. فقد كانوا يعرفون، وتعرف (أنسابة) كلها أن أحد أعضاء السلسلة السباعية المكلفة بنقل الصياح إلى أذني السلطان، كان هو الأمير (الهبراتي) نفسه وكان ابن أخت له معزة.

سأله أبوه فجأة وهما يسيران متجهين إلى ساحة الصياحات:

- بماذا تفكر يا أدوم؟

في الذي سأشاهده في مجلس (الكوراك).

وماذا تظن أنك ستشاهد؟

لا أدري.

إذن أسرع.

استلمته يد صانع الطبول القوية، والمدربة على نشر الخشب ونحت النحاس، ودبغ الجلود وحكها، وتثبيتها في تلك الآلات المرعبة، وسارت به وبتلك الخطوات الكبيرة والناضجة.كان الطريق الآن مزدحما بالفعل.. ثمة إبل وحمير، وأحصنة مغبرة وبادية التعب وغرباء بحلوق منتفخة ولاهثة.. ثمة عواء ونباح وشهيق وزفير، وضحكات، وصراخات أطفال. وكانت أشجار (الهجليج) الموزعة أمام قصر السلطان في ذلك النسق الجمالي الفقير الآن مكتظة بالظلال والخضرة، وتأوي تحت فروعها آلاف البشر.كذلك أزيار السقاية كانت ممتلئة ويغشاها العطاشى ليرتوون. تعرف (آدم نظر) على جارهم (أبكّر) الذي كان أعور منذ أن ولد وصاح عدة مرات في مجلس السلطان مطالباً بعين زجاجية لكن العين لم تصله أبداً.. وإلى تلميذ آخر كان يزامله في مدرسة المهاجر وجاء برفقة امرأة كان حلقها منتفخاً وفي إحدى عينيها جروح.. فوجئ برمال في عينه، واتساخ في حذائه الجديد، ويد خشنة لسارق تندس في جيب قميصه وتخرج فارغة، وحين اتخذ مجلسه إلى جانب والده تحت إحدى أشجار (الهجليج).. كانت غرابة الرؤيا قد بدأت تسافر، وحلت محلها رغبة الصبا في اكتشاف أفق جديد.

فجأة شق التجمع جسد مهيب لامع يرتدي جبة من حرير أزرق، ويضع على رأسه عمامة الكبار الفخمة ذات الملمس الحريري، ولون الضباب.. كان قد ترجل عن فرس رمادية مخططة وسط عبيد خارقي الأجساد وضعوه على الأرض بنعومة، وخطا بحذاء جلد النمر المغاربي، منفلتاً إلى داخل القصر.. وقف الآلاف المتجمعون إجلالاً، زغردت

امـرأة وامـرأة وامـرأة، وهتف هتـاف وهتـاف وهتاف، وصـرخ الحاجب الذي عند الباب:

الأب الشيخ يوسف كرا.

سأل الصبي والده لاهثاً:

- هل هو سلطان آخر يا أبي؟

ردد الأب:

- لا لكنه وزير السلطان ونائبه في الحكم..

- وهل له مجلس كوراك أيضاً؟

لا لكنـه يقوم بـدور كبير في مجلس السـلطان ويحكم السـلطنة في غيابه.

تقبـل (آدم نظـر) تلـك المعلومـات الطازجـة راضيـاً.. أدخلها في بيوت ذاكرته الصبية والتي بدأت تتسـع، وأغلق عليها بقفل الترقب الذي كان الآن في تمام متانته.. أبصر ظـلال (الهجليج) تنتفض، والمتجمعين يمـدون أعناقهـم، والمسـجلين فـي قائمة الصيـاح، يصلحـون هندامهم، وشاهد سلسـلة النقل السباعية تنتظم، وسمع الحاجب الذي يقف تماماً بمحاذاة ذيلها يصرخ:

- السلطان في مجلسه ويتلقى (الكوراك).

كانـت بداية الصياحات مـن امرأة من قبيلة (المسـاليط) التي كانت تستوطن في إحدى الحواف على مسافة أربعة عشر يوماً من (جوا جوا) وفي جوار لاصق مع إحدى الدول السـوداء، كان اسمها (حرّة)، وكانت ممزقـة الثيـاب، وحافيـة، ومنتوفة شـعر الحاجبيـن، تحمل علـى ظهرها رضيعا أجرب، وتصيح بمغص..

(زوجـي قلب الأسـد يـا مـولاي.. يضربنـي في اليوم عشـر مـرات.. يسـب أهلـي وعشـيرتي، يدلـق طبيخـي علـى الأرض.. لا تعجبـه

فئـران (الصلمبوي) الصغيـرة التي أطبخهـا.. ويريـد فئران(الكدكاي) الضخمة التي لا يملك ثمنها.. كان يسرقها من الناس.. نعم يسرقها.. أنصفونـي.. مولاي الرشـيد.. أنصفوني.. شـكوته مئـات المرات إلى قضاة العشيرة ولـم ينصفني أحد)..

ولـم تكن أكثر من عشـر دقائق مترقبات، حتـى جاءها الرد من ذيل السلسلة راكضا:

- السـيدة (حّرة المسـلاطية) زوجة (قلب الأسـد المسـلاطي)، لقد أمر مولانـا السـلطان بتعيين زوجـك فرداً في كتيبـة (الرعـاع) تحت قيادة الأمير (مسـاعد) تأديبا لـه وتقويما لسـلوكه، عودي إلـى الصياح بعد عامين إذا أردت عودته إلى بيتك.

زغردت(المسـلاطية) جنونا، ألقت برضيعها الأجرب على الأرض ورقصـت رقصـة (حـلال العقـد) العريقـة التـي كانـت تنتشـر فـي تلك الأصقـاع وتعتمد علـى طي الجسـد وتفكيكه بحـركات متناغمة.لم يكن الزوج (قلب الأسد) موجوداً ليصيح مدافعا عن نفسه، وحتى لو وجد ما كان ذلك يجـدي نفعاً، فقد كانت أحكام مجلـس (الكوراك) قاطعة وبلا أمل في تعديلها.

كان التالـي عجوز من قبائـل (البراقيـد) التي.لم يكـن موطنها يبعد كثيـراً عن (جـوا جوا) والتـي كانـت أم السـلطان (رغد) من أحـد بيوتها الفقيـرة، وأهديت إلى أبيـه جارية راطنـة فتزوجها وأنجب منها السـلطان وأخوة آخرين.. كان يتحدث عن.غرر الصلاة التي تنتشر على جباه الأبناء والأحفاد وكل من هبّ ودبّ في (أنسابة) دون أن تظهر على وجهه برغم سـنوات عمـره التي جـاوزت الثمانين، وقد أخبـره أحد معارفـه بأن تلك الغرر من هدايا السلطان يوزعها على من يريد من أهل (أنسابة).. صرخ:

(خالك يريـد غرة للصـلاة يا مولاي.. غـرة واحدة فقـط مولاي.. رأيتها عند (جبريل ولد عجب) وعند (الحـاج كجكّي) وحتى عند الولد

(سردابي) الذي أكلت من لحم (سمايته).. غرة واحدة فقط.

وجاءه الرد عبر السلسلة ضحكة مدوية.. فانصرف مطرقا دون أن يفهم شيئاً.

وجاءت (تمائم) المغنية التي كانت فيما مضى صوتا طويل القامة، وواسع النبرات، يجر خلفه قوافل البله والشفاه الفاغرة، ويرجم كل صوت آخر يجرؤ على البزوغ في أنسابه، وكانت حفلاتها التي تقام في الساحات والبيوت الكبيرة وفي مناسبات جليلة كيوم تأسيس (أنسابة)، ويوم غزو (الكردماليين) الذي حدث في عهد السلطان (نفر المقدّم) أو ذكرى التتويج والجلوس على العرش، تشد حتى السلاطين، والملوك، وقادة الحرب، ورؤساء القبائل.. وحين باغتها العمر فجأة، وتغلغل إلى حبالها الصوتية، ومفردات جسدها الطري، لم تعد تظهر أو تغني، كانت تعيش في ركود الحسرة في أحد الأحياء البعيدة متغذية من عصائد الهبات ودنانير قليلة كانت تصلها من عند معجبين مسنين لم ينسوها أبداً.. كان صياح المغنية مختلفاً.. رددته بصوت جاهدتُ أن تعيده عشرين عاماً إلى الوراء.

(السلطان للعشيرة..

قائد جيشها وكبيرا.

السلطان في المسائل..

الرويان ودّ القبائل.

السلطان لو يبرّك..

يديك بي إيدا تسرّك).

استغرق الأمر اثنتي عشرة دقيقة مفخخة وسط ترقب المتجمعين وانتظارهم لذيل السلسلة في رده على ذلك الصياح الفخم.. لم تكن المرة الأولى التي يمدح فيها (الرشيد) على هذا النحو، لكنها كانت المرة الأولى المغناة وذات الإيقاع الشجي وبذلك الصوت الأنسابي

العريق. ثم جاء الرد أخيراً.. فقد تم تعيين السيدة (تمائم شريف)بنت (شريف غاني) المنحدرة من قبيلة (الغانيين) والمقيمة في حي (ورى) الشعبي، عضواً في مجلس الجدات الذي كان واحداً من أهم المجالس في (أنسابة)، كان يضم جدات من صفوة المجتمع، وبيوته العريقة.. ترأسه (السحابة) جدة السلطان شخصياً، ، وكان مكلفاً بإجراء مراسم تتويج السلطان ومراسم دفنه، ومراسم تحميسه بالطبول والحناجر في وقت الحرب، إضافة إلى مراقبة علامات البلوغ ونمو الغرائز لدى بنات القصر.. وكانت ثمة تدقيقات صارمة تجرى عن كفاءة الجدة وسلامة سيرتها من خدوش الشائعات وقدرتها على شل الفوران لدى البنات عند ظهوره، وكان تعيين المغنية بهذه الصورة المتعجلة، استثناء صارخاً، لم يحدث قط في (أنسابة) وكان راتب الجدة العضو في ذلك المجلس، مجزياً، لدرجة أن تمائم المغنية لم تستطع التماسك.. اتكأت على كتف ذيل السلسلة، واندلقت في بكاء رهيب.

وإلى ذلك المجلس أيضاً جاء (حنفي الساحوري).. تاجر القوافل الكبير، كان صعيدياً من جنوب مصر، تعرف على طريق (أنسابة) منذ سنوات بعيدة، وأنشأ تجارته التي كانت دورة هائلة من دماء السلع، تتغذى من البلاد وتغذيها، كان يتاجر في الذهب والفضة والعقيق، والدخن، والموالح، وحتى في الجواري والعبيد، والخصيان.. يأتي بقافلة كل عام تكفي مؤونتها لإشباع جوع التجارة إلى أن يعود، وتربطه بالسلطان علاقة الوجاهة والثراء لكن مشاغله الكثيرة كانت تمنعه من حضور مجالس (الكوراك) ضيفا، وكان قد تعهد برعاية جميع مجالس (الكوراك) التي انعقدت في أثناء وجوده في (جوا جوا).. قدم أتباعه شراب القضيم المرطب لحلوق الصائحين، أهدوا الصغار رزما من حلوى (الدرادم) اللزجة والملونة، وأبروا النساء بأقراط السكسك والقصدير، وبعطور (الكافن كافن) و(المسرّة) و(مخدع الحب) المهيجة والتي أضفت على

الأنوثة طعمها المطلوب.. كان صياحه بلهجة لا يعرفها (آدم نظر)، ولم يسمع بها أبداً من قبل.. انسابت إلى سمعه وخرجت كما هي.. التفت إلى والده متسائلاً.. فرد الأب..

- إنه على سفر ويطلب الإذن بالرحيل من السلطان رغد.

كان (آدم نظر) قد سمع ب(حلحلوك) المجنون الذي ظل يصيح في مجالس السلاطين لخمسة وخمسين عاماً لم يتغيب فيها جمعة واحدة. كان يطالب بجارية بلا ثديين، وبيت بلا أرض، وعربة من فضة تجرها خيول رمادية. في البداية كانت نداءاته تتخذ مسارها الطبيعي في السلسلة السباعية حتى تصب في آذان السلاطين، وبمرور الوقت شاخت تلك النداءات، أصابها الإعياء وصارت تسقط عند ذيل السلسلة لا تتعداه. وكان أغرب ما في الأمر أن أحد السلاطين ألهبته تلك النداءات.. استجاب لها وأهدى إلى (حلحلوك) جارية ضامرة وبلا ثديين بالفعل.. لكنه أخفق في توفير ذلك المنزل المعلق، وتلك العربة الفضية التي تجرها خيول الرماد. وعندما لمع نجم (ولد أعرج) المنحدر من قبيلة (العراجين) كواحد من الأباطرة السفليين، وأصبح مقصداً للكثيرين الذين حكوا عن معجزاته في مناداة المطر، وحل المربوط، وتوزيع حناء الزواج على العازبات، حدثوه عن (حلحلوك) ونداءاته الغريبة، فتتبعه في أحد مجالس (الكوراك)، علقه في الهواء ثلاثة أشهر كاملة.. ترجه الريح، ويغسله المطر، وتتحاوم طيور الرخم حول هيكله، فأقلع عن طلب ذلك المنزل الذي بلا أرض لكن نداءاته الباقية ظلت مكثفة، وتتكرر في كل مجلس.وبعد عدة جمع عادت النداءات كاملة إلى الظهور. كان المجنون موجوداً في عصر تلك الجمعة أيضاً، طويلاً ومغبراً، وضامراً ومنحنياً، كأنه كان يحمل (أنسابة) على ظهره وأنزلها.في عينيه بريق ولمعان، وفي أنفه احمرار طفيف وفي سرواله رائحة حامض ما. كان مستظلاً تحت إحدى أشجار (الهجليج) الكبيرة، تتزاحم حوله الناس ويحكي عن جن

في هيئة ثعلب إفرنجي صادفه في البراري منذ يومين:

(قال لي جود إيفننج حلحلوك.. قلت له جود صلييك.. لفخني برجله فلفخته بقرني الاستشعار.. شخر في وجهي فأخرجت له ثلاثة ألسنة).

كان الجميع يضحكون، وكان المجنون يتمعن في الضحك ثم يمسك بهذيان آخر.

أهداني السلطان (نفر المقدم) جارية حمارة.. كنت أكويها بالنار فتصرخ: اتركني يا مجنون.. اتركني يا مجنون.. هل أنا مجنون؟ وهل يوجع الكي بذمتكم؟

كافح (آدم نظر) في الزحام حتى وصل إلى مكان المجنون.. صرخ يا حلحلوك، يا حلحلوك.. فلم يلتفت، كافح في الزحام أكثر حتى أمسك بيده، وجدها رقيقة، وطيعة وخالية من مستعمرات النحل التي وصفها له زملاؤه في مدرسة (عبد الرب) وأقسموا أنهم شاهدوها بأعينهم وحين غاص في عينيه ذاتي البريق واللمعان أحس بدوار خفيف، وفي اللحظة التي هم أن يسأله شيئاً، لعلع ذلك النداء الحاجبي الذي يعلن وجود السلطان في مجلسه، انفلت المجنون من يد الصبي وضحك المتزاحمين، واتخذ مكانه في صف الصائحين لتلك الجمعة..

(أريد جارية طرية بلا ثديين وبيتاً من الطوب الأحمر، ليس في الأرض، وعربة من فضة تجرها خيول رمادية.. أرروك.. أرروك).

وسقطت نداءاته عند ذيل السلسلة.

أخيراً نودي على صانع الطبول ليعرض حاجته.. صرخ الحاجب:

راعي الأغنام نظر حبايب.. راعي الأغنام نظر حبايب..

كان الحاجب جاراً لصانع الطبول، يسكنان (حي الرديم) المهمل في أحد أطراف (جوا جوا)، ويتقاسمان فقر الجوار، وحلكة الزمن.. وأشياء أخرى عديدة من مفردات البيئة.. يعرفه منذ أيام صياحاته الأولى،

وكم من مرة اشترى الحاجب من عنده طبلاً رخيصاً لإيقاظ زوجته كثيرة النـوم أو طبلا أغلى قليلاً لإهدائـه إلى إحدى المغنيـات.. أو طبلاً غالياً بالفعل لسـبب لا يعرفـه أحد.صانع الطبول يا إبراهيـم. صانع الطبول يا إبراهيم.. راعي الأغنام نظر حبايب.. راعي الأغنام نظر حبايب..

لا يهـم.. انتظـم أمام ذيل السلسـلة مغتمّـاً، ومظلـم العينين. كانت الفرصة الأخيرة التي تمنح له من قبل السـلطان الرشـيد في شـأن حاجته بعـد أن تعـددت صياحاته في السنوات الأخيـرة.. وضج منها السـلطان شـخصياً. وكادت أن تصبح مثل نداءات (حلحلوك)، شيخة تسقط عند ذيل السلسلة. صاح.

أريد أن أذهب إلى الحج في بعثة مولانا السلطان لهذا العام.. أريد أن أطوف وأن أسـعى وأن أرمي الجمار.. أريد أن أقبل الحجر الأسود.. أرروك.. حجّـاً مبـروراً.. أرروك.. ذنبـاً مغفـوراً.. أرروك.. عـودا حميدا.. أرروك.

كانت المـرة الأولى التـي يرى فيهـا (آدم نظر) والـده يصيح بتلك الرعونـة، وذلك التهيج الجبار.. شـاهده فـي البيت صائحـاً عاديّاً.. مثل كل المربيين وأولياء الأمور، قد لا يعجبه الغداء أو مذاق البن أو سـلوك طائش من ولد.. شـاهده في السـوق صائحـاً متذمرا من ارتفاع الأسـعار وانعدام السـلع الضرورية.. وشاهده في حضرة أقرباء ملاعين صائحاً في نقاش عن الزواج والطلاق وتعدد الزوجـات.. لكن تلك العضلة الكبيرة التي غطت عنقه بالكامـل، كانت مفاجأة للصبي.. اسـتغرب منها لدقائق معـدودة ثم هدأ، وكانت الدقائق التالية كثيفـة القلق، أنفقها مع والده في انتظـار نتيجة الصياح الـذي لابد يعربد الآن في أذني السـلطان. خمسـة عشر عاماً وصياحات صانع الطبول عن الحج لم تنقطع.. يودع الحجاج ويصيح، يسـتقبلهم ويصيح، يشـارك فـي دهن البيـوت، ونحـر الذبائح، ولبيـك اللهم لبيك، ويأتي إلى مجلس (الكوراك).. بصياحات متشـنجة،

وصوت فارع الطـول يرج الآذان كلها.وفي إحدى السـنوات كاد صياحه أن يأتي بالنتيجة.. سـار في السلسـلة السـباعية كجزء من روتينها العادي لكن الرد كان مختلفاً.. أمر السـلطان بإلحاقه ببعثة السـفر المتوجهة إلى الأراضي المقدسة لذلك العام، فطار فرحاً، جهز إحرامه، شد إلى وسطه جراب الجلد المألوف والمحتوي على نقود سفره القليلة، وأبقى في بيته خروفاً ودهانـاً أبيض، ولقباً فخماً سـيرتديه حين يعـود، وكان يوم ذهابه إلى مقر انطلاق القافلة من أمام (بيت) مال (أنسابة)، يوماً مشهوداً، تبعته الزغاريد وأمنيات الحج المبرور والسعي المشكور والعود الحميد.. كان على ظهر ناقته حين جاء رئيس البعثة شـده من رجله وأنزله في صلف.. قال.

انزل يا صانع الطبول.. انزل.

صرخ في وجهه: لماذا؟

معنا أمر سلطاني بإبعادك عن البعثة.. انزل.

بكى: لماذا؟.. لماذا؟

لا ندري..

عاد إلى بيته مغتمـا.. خلع إحرامه وجراب الجلد من وسـطه وألقى بهما فـي أحـد الأركان، هبط بمعنوياتـه إلى الأرض، رفض تـذوق الأكل والشرب، وكاد ينبح ككلب حين جاءه الشامتون يمدون أيديهم ويرددون: عوداً حميداً.. عوداً حميداً.. وفي أول جمعة صائحة كان أول من افتتحها، عرف أن ثمة وشـاية قد حدثت، وأن فتاقه السـري الذي ظل يخفيه بإتقان لسـنوات طويلـة قـد انكشـف، وكان محظـوراً علـى (المفتوقيـن) والعور والطرشـان، وذوي السـوابق وحاملي ميكروب (الطاعون اللساني) ركوب القوافل السلطانية حتى لو كانت تقوم برحلات داخلية في تخوم (أنسابة).

لـم ييأس صانـع الطبول أبـداً.. اغتـم لعدة أيـام فقط ثـم تبعثر في كل حيـل الطـب التي كانـت متوفرة في البـلاد في ذلـك الوقت.. جرب

أوراق (الهجليج) يابسة وخضراء.. جرب بصاق العشر، ومركبات الليمون المخلوط بدم الغزال.. ألصق لزقة القرض، وغمر جسده لعدة أيام في ماء خور (الفراديس) الذي كان يركد خارج (جوا جوا) ويعتقد الأنسابيون بقداسة مائه.لجأ إلى موهبة (ولد أعرج) إمبراطور السفليين فما أفادت في شأنه، وإلى مواهب آخرين لم تجد أيضاً.. كان فتاقه إبليسياً.. شرده من قوافل الحج، وأقعده هكذا.

تلك الأيام ظهرت في (جوا جوا) خمس فتيات شقراوات.. جئن في قافلة كبيرة كانت قادمة من صعيد مصر، كجزء من دم التجارة الذي كان متدفقا بين البلدين.. قال رئيس القافلة أنهن متخصصات في طب الإفرنج وقادمات لمعاينة علل الأنسابيين بلا مقابل.. استقبلهن المواطنون بفضول أخرق، واستقبلهن السلطان استقبالا حاشدا كان يخص به كبار الزائرين.. فرش لهن الأبسطة، وموائد الطعام.. قلدهن الحرير والذهب والعاج.. والعقيق واقترح عليهن أن ينشئ مجلساً اسمه مجلس (المداواة) على غرار مجلس (الجدات)، تخصص له حصة من موارد السلطنة، وترأسه كبيرتهن إيزابيل التي دخلتِ إلى قلبه، فأبين بترفع وقالت له إحداهن: (ثانكس).. نحن موظفات عند الرب وسننال أجرنا.

انغرست الشقراوات في (جوا جوا).. أنشأن مشفى هزيلاً أسمينه (مشفى العناية الإلهية) كان مبناه تبرعاً من التاجر (صبابي)وتأثيثه الفقير من خيرات قوافل (الساحوري)وقوافل أخرى تأتي من الحجاز واليمن، وابتدأن في استقبال المرضى.. وكان مرضاهن في أغلبهم شيوخاً فضوليين أو نساء غيورات أو مراهقين جاءوا سعيا وراء عورات أجنبية.. وكان (دوباجي) كبير ممارسي الطب في (أنسابة) قد زارهن أيضاً.. لم يأت كطبيب ولكن كقرد عجوز يبحث عن دواء لإبقاء الجسد واقفاً. وفوجئن أكثر من مرة بدخول السلطان نفسه إلى مخادعهن متبوعا بحراسه (الظهوريين). لم تكن في جسده علة ولا جاء لهدف محدد..

كان سلطاناً لا يمكن مساءلته أبداً.

وصل نظـر حبايب بآفته المهلكة إلى مشـفى العناية الإلهية.. سـرد صياحاته عن سـيرة الحج وذلك الإبليس الذي يعربد في جسـده ويمنعه من السفر.. عاينته الشقراوات بتأن ومنذ الوهلة الأولى وضحن برصانة.. لا يوجد عـلاج هنا يا صانع الطبـول.. لكن يمكـن أن نصحبك معنا في العطلـة الصيفيـة حيث يقـوم متخصصـون بعلاجك. فرح صانـع الطبول فرحاً مخيفـاً.. غنى ورقص، وهيّج الفتاق في سـرته.. لن يمنعه أحد من ركـوب قافلة الشـقراوات التي هي قطعـاً لا تمت للحكومـة بصلة، لكنه سـيعود يوماً مـا.. يركب قافلـة السـلطان.. يحـج ويعتمر.. ويدهـن بيته بالأبيض ويمد إلى الشـامتين يداً عـادت بالفعل بعد أن لمسـت الحجر. وفي أحـد الأيام الطويلة المنتظرة من عمره، جاءت تلك الفتوى المدمرة التي أصدرها (لاليا البرناوي) مفتي ديار (أنسابة).. والتي تبين أن أولئك الشـقراوات صاحبـات مشـفى العنايـة الإلهيـة كافـرات قدمـن مـن بلاد الأنجاس لتنجيس شعبه برغم براءة وظيفتهن.. وأنهن محللات الدم يؤجر من يقتلهن.فررن بليلهن تاركات مشـفى العناية خابياً تئن به امرأة ويسعل بـه رجل، وينزف في فراغه ختان لطفل لـم يكتمل، وتاركات فتاق صانع الطبول إبليسياً يعذبه في كل لحظة.وبعد عدة أشهر وصلت أخبارهن من سـلطنة (كردمال) المجاورة والعدو التقليدي لسـلطنة (أنسابة).. وصلت عبـر النازحيـن ومشـردي الحـدود وعـرب (المجانيـن) المترحليـن بين الدولتين.. الشـقراوات يقمن في سـلطنة (كردمال) في مشـفى إلهي آخر مؤسـس بأناقة، وبفتوى رسـمية من مفتي الديار الكردمالية وموقع عليها من السلطان، تبين أنهن ممارسـات طاهرات للطب لا علاقة لهن بالكفر والنجاسـة. تلك الأيام فكر صانع الطبول في النزوح بآفته إلى (كردمال) لكن قيود الوطن الكثيرة والمتشابكة أقعدته.

راعي الأغنام نظر حبايب.. راعي الأغنام نظر حبايب..

صانع الطبول يا إبراهيم.. صانع الطبول يا إبراهيم

راعي الأغنام نظر حبايب.. طلبك مرفوض.. عالج سرتك يا مواطن.

عالجتها يا مولاي..

اندفع الحاج المؤجل إلى ذيل السلسلة.. متحدياً لواحدة من أرفع القيم في (أنسابة).. وهي القبول بالحكم السلطاني، وعدم الصياح أكثر من مرة في مجلس واحد.. وعبر تاريخ (الكوراك) الطويل لم يخرج عن ذلك السياق سوى نفر قليل.. كان أهمهم (حلحلوك) الذي صنف معتوهاً وانتهى أمره، والفقيه (القرَشي) الذي لم تعجبه فقرة في الدستور عدَّلها السلطان (رغد الرشيد) وكانت تختص بمساواة خصيان السلطنة بالرجال.. واستدعائهم للشهادة إن لزم الأمر وتزويجهم لو أرادوا.اندفع في عصر إحدى الجمع صائحاً بعشرين صوت مختلف.. وكان أن سحبت هيبته وأرسل مجنَّداً في كتيبة (الرعاع) التي أسسها الأمير مساعد.

لحظات من ترقب وانفتح الباب السلطاني عن آخره.. كان الحكيم (دوباجي) كبير ممارسي الطب في (أنسابة).. القرد العجوز كما يسميه السلطان.. وطابخ الوصفات الخبيثة كما يهمس أعداؤه.. لم يكن دوباجي طبيباً متمرساً ولا شوهد يجس نبضا أو يحضر مركَّباً أو يضع أذناً على صدر يئن في (جوا جوا) أبداً.. وكان تعيينه الذي تم في عهد السلطان (رغد الرشيد) غريباً وملغيا لمهارات عدد من الأطباء الآخرين وقيل أنه تم بالسحر الذي تجيده بعض القبائل.. وكان وجوده في مجلس (الكوراك) وفي غير مجلس (الكوراك) بتلك العقاقير التي يطلبها السلطان أحياناً للنشاط أو الفوران، حتميا ولا مناص منه.. خطا الحكيم إلى خارج القصر خطوا ناعما.. وبحذاء هو أيضاً من جلد نمر مغاربي.. شق جموع المتطلعين وتوقف عند صانع الطبول الذي كان الآن في رعشة كبيرة.. وبسرعة رفع قميص المحتج حتى إبطيه.. في

تلك اللحظة بالذات.. كان الفتاق الإبليسي مستيقظاً، وفي كامل بهائه، وخاطب المتطلعين كلهم بتلك التموجات العنيفة المعروفة في الفتاقات السرية.

غادر (آدم نظر) ووالده ساحة (الكوراك) بصعوبة، كانت (المسلاطية) ما زالت ترقص، وتحل عقد الجسد بجنون، المغنية ما تزال تتعثر متكئة على جذوع (الهجليج) اليابسة، ووجد الصبي نفسه يجر الجسد الجبار والمفضوح والغزير العرق لوالده.اليد الصغيرة تجر الكبيرة، والهم الصغير.. يجر الكبير.. ماذا حدث يا أبي.. ماذا حدث؟ ولا رد.. لا رد أبداً.

تلك الجمعة وفي الساعة التي تقرض فيها الأجساد بأسنان التعب أو تسعل الرياح الهضمية هنا وهناك، أو تختلي أوجاع الظهر بسلسلة فقارية، مات صانع الطبول (نظر حبايب).وجدوه عند نقطة تجمع القوافل المسافرة أمام بيت مال (أنسابة)، نفس النقطة التي شهدت تلبيته وركوبه وانزلاقه عن ظهور الإبل من قبل.. كان يحتضر بمشقة.. يشهق ويزفر، وأحياناً يغني أو يضحك أو يقهقه..

صانع الطبول يا إبراهيم.. صانع الطبول يا إبراهيم..

عالجت الفتاق يا مولاي..

عالجته يا مولاي..

رميت جمرة خبيثة..

رجمت (دوباجي) ولاليا البرناوي..

قبلت حجر الجبل..

طفت نائماً..

سعيت بين الصفا وبيوت أولاد عنبر..

حملوه إلى الجزء الأكثر رحابة والأوسع صدرا لاستقبال

الفضوليين وعابري السبل في بيته الفقير، جاءه رعاة الطب الحقيقيون، ورعاة الشعوذة المنتشرون بغزارة في (أنسابة) حضرت (الأكاسير) المختلفة، واتقد البخور، وتعالت دعاءات وبسملات، والتمت النائحات من حيث لا يعلم أحد وجاء الحكيم (دوباجي) إلى حي (الرديم) لأول مرة منذ أن أصبح الحي رديما، وأصبح كبير ممارسي الطب (دوباجي).. كان محاطا بالعبيد والخصيان، وكان في مهمة سلطانية عنيفة، فيها وعود وأمنيات بلا حصر، وربما يلغى بعدها حظر السفر للمفتوقين والعمي والطرشان وحاملي ركاكة اللسان إلى الأبد.فتح صانع الطبول عينيه بمشقة ليرى إحرامه نظيفا ومرتبا، وحزام الوسط محشوا بمال الحج، ونموذجا منحوتا من خشب الزان، يمثل الكعبة مشرقة وذات بعد روحاني أحضروه من أحد تجار منحوتات الخشب على عجل.. سأل عن جرعة ماء، وعن الطريق إلى مقام إبراهيم.. أغلق عينيه ببطء لا ليطوف أو يسعى أو يرمي الجمار أو يقبل الحجر، ولكن ليموت بسلام.

ولأول مرة أيضاً جاء إلى الحي، المهاجر اليمني (عباد عبد الرب).. لم تكن مهمته عنيفة كمهمة الحكيم بقدر ما كانت استرداداً متأخراً لواحد من الألقاب المتعددة التي فقدها بُعد أن انقلب (رغد الرشيد) على حظه.. لقب الشيخ عبد الرب.. حيث تعالت الأصوات عند رؤيته:

الشيخ عباد عبد الرب يتلو ما تيسر من الذكر الحكيم.

وللمرة الثانية وفي أقل من عامين، أقسم الكثيرون أنهم شاهدوا السلطان (رغد الرشيد) بشحمه ولحمه، وعمامته المذهبة، ممتطياً حصانه (المهراجا) الذي أهدي إليه من بلاد الهند، يتجول في مناخات حي الرديم الحزين والغاضب.

وربما للمرة الخمسين أو المائة شوهد (حلحلوك) المجنون.. لم يكن زائراً ولا معزياً، ولا حتى عابراً عادياً للطريق. كان مجرد مجنون

يشاهد للمرة الخمسين أو المائة في حي الرديم البعيد.

وكجزء روتيني من مهامه الأمنية، وحفظ النظام في تلك الوفاة غير العادية، كان لابد أن يشاهد الأمير (مساعد) ونفر من كتيبته.. مبثوثين في بؤس تلك الليلة.

دفنوه في مقابر (أولاد غرب) المخصصة لدفن المعوزين وذوي الحاجات وفتات القبائل، وسار في موكبه قرابة الألفي شخص يتقدمهم الحكيم دوباجي، الذي امتدت مهمته العنيفة إلى الفجر، والمهاجر (عبد الرب) الذي كان سخيا في تلاوته لآيات الاستشهاد كلها، وسخيا في مواساته لتلميذه (آدم نظر).. كان الأخير متجمدا، وبمطارق الضرورة التي زورته في ذلك اليوم، أضافت إلى أعوامه الخمسة عشر أعواما أخرى، كان لابد أن يصبر وأن يصمت وأن يخطو إلى داخل البيت بين حين وآخر ليضرب فتاة أو يهدئ غلاما أو يطعن امرأة نائحة بصوته.. لم يكن في مخططه أبداً أن يصنع طبولا، لا للحرب ولا للسلم ولا لصعاليك المغنين الذين تمزقها حناجرهم.. ولا كان قادراً على الصياح لخمسة عشر عاماً في مجالس الخرس السلطانية.لكن أفكارا أخرى قد تجيء في حينها، وذلك الجسد المهيب والفنتازي للأب الشيخ (يوسف كرا) بغرة صلاته الداكنة، وعبيده الخوارق، وحصانه المخطط، وعمامته الضبابية قد يزوره في حلم ما.. لقد امتصه في العصر، وأغلق عليه في خزائن الذاكرة ولولا موت والده الفجائي الذي يخلخل ثباته الآن، لاستعاده كاملاً. اليوم يدفنون صانعاً معدماً للطبول، وغداً قد يتوجون أباً شيخاً جديداً ربما ينبع لأول مرة من حي مهترئ كالرديم، ليمنح تلك الأبوة الشيخة معنى مرهفا ونبيلا.أفاق على صوت جسد يوضع، وتراب يردم، وواحد من أقربائه يصيح.. ادفن أباك يا (آدم نظر).

-2-

انتهت الأيام الثلاثة الرسمية للعزاء بنواحها المكثف وإحساسها العميق بخسارة لن تعوض، وانتهت بعدها سبعة أيام شبه رسمية كانت مواساة من أهل الجوار وبعض مرضى (جوا جوا) من (مفتوقين) وطرشان وعور.. الذين حلموا بالحج أسوة بصانع الطبول، وخمسة عشر يوماً أخرى غير رسمية، كانت قد خصصت لآل المتوفى القادمين من أماكن بعيدة.كانوا من قبيلة (التنجر) إحدى قبائل (أنسابة) العريقة في الحزن والفقر.كثيفين وخشنين، وذوي شوارب رفيعة كأنها خصصت لمراهقيهم وأخطأتهم إلى الرجال، كانوا يلوكون نبات (القرض) ويسفون (التمباك) ويخلطون بين القمح والذرة وثمار (الحميض)، وفي ساعات نومهم التي كانت شحيحة للغاية لا تتعدى الساعتين، كانوا يهلوسون بلا انقطاع. وكانت نساؤهم في الغالب ضئيلات الفم، ومبعثرات الشعر، ولهن عطر مؤلم إذا ما احتك بحاسة الشم.ترجلن عن ظهور الحمير والنوق بسرعة غير معتادة، بعد أن جرحن أصواتهن التي نزفت بغزارة في بيت (نظر حبايب).تعرف إليهم (آدم نظر) بمشقة، تعرف إلى أصولهم وروافدهم وحتى إلى سير مهاجريهم الذين لم يتركوا (أنسابة) فقط، لكنهم تركوا العالم الفقير بأكمله ويعيشون الآن (خواجات) أو أفارقة متأنقين.. وكان يجادلهم كثيراً في البيت أو في تلك البيوت المجاورة التي بعثروا فيها واستضافتهم بالزفرات.. كانوا يتحدثون عن الفن وعن التجارة والزواج والطلاق وخلط الأنساب، وتذكر بعضهم أنهم لم يصيحوا في مجالس (الكوراك) السلطانية منذ أعوام طويلة برغم حاجاتهم التي كان العمر يزيد من تراكمها، وكان فيهم مسن أحدب الظهر، تحسس عمامته

المتآكلة على رأسه وقال بفخر

أهداني إياها مولاي (نفر المقدم) حين صحت في مجلسه عاري الرأس منذ ستين عاماً.. قال أعطوا ولد حسيب إحدى عمائمي.

سأله (آدم نظر) في تدخل غير مهضوم من غلام أمام عمر وارف ومجرب:

كم كان عمرك في ذلك الوقت يا جدي؟

في مثل عمرك الآن.. رد الشيخ.

وكم كان عمر السلطان؟

لا أدري.. ليس للسلاطين أعمارٌ مثلنا.. إنهم يولدون ويحكمون ويموتون دون أن تتغير أعمارهم.

وكم عمرك الآن يا جدي؟

كان سؤالا صبيّاً وعاديّاً، ومن البساطة بحيث أن أي صبي يرى ذلك العمر الهرم، وذلك الظهر المحدودب، وتلك الخطوط الوافرة على الوجه، يمكن أن يسأله.. لكن الشيخ كان قد تكدر، تخلص من لقمته الأخيرة من عصيدة (الحميض) بأن ألقى بنصفها على الأرض، ونصفها على ثيابه، وزحف إلى أحد الأركان البعيدة وهو يسعل.. واكتشف الصبي (آدم نظر) لاحقاً، وبعد مضي عدة أيام، أن الجد (سند حسيب) كان في الواقع من أعمدة قبيلة التنجر، وقضاتها النافذي الأحكام منذ زمن بعيد، وكان قد جاء في ذلك الوفد العزائي عريساً مفترضاً لأمه التي ما كانت تقاليد التنجر تسمح ببقائها أرملة.. وفي مناخات وعرة كمناخات (جوا جوا)، كان من المفترض أن تزف إليه بعد إكمال عدتها مباشرة، وتغادر برفقة طفليها إلى ذلك المكان البعيد حيث جذور القبيلة. والواقع أن الجد لم يتقدم لأمه أبداً، التم في شيخوخته وحكمة (الروماتيزم)، وغادر إلى إقليمه البعيد بعد يومين فقط من مجيئه.. وكان ابنه (حسيب) موجوداً أيضاً في ذلك الوفد، لكنه كان أخرس اكتفت إشاراته بتقديم

عـزاء باهت ثم لزمـت الصمت.وعندما حـاول الصبي سـؤاله في إحدى المرات عن تلـك الخرزة الخضراء التي تتدلى مـن عنقه بخيط رفيع، لم تقل إشـاراته شـيئاً مفهوماً.. ارتفعت وانخفضت، ودارت في الهواء عدة دورات ثـم خبت.وقـد لاحظ الصبي أن عبـداً جاء مع الوفـد أيضاً، كان شـديد الالتصاق بحسـيب، كأنه يحميه مـن خطر غير مرئـي، وكان يوقد في أول الليل جمراً علـى مبخر مزركش، يضع فيه ورقة مطوية، ثم ينفخ فيه بعنف حتى يتكاثـف الدخان، يقربه من وجه الأخـرس بعد أن يغطيه بملاءة داكنة، فيشـتد سـعاله من تحت الملاءة، وتبـدو عيناه بحيرتين من دموع مرة بعد رفعها.كانت كما يبدو وصفة لعلاج خلل ما اجتهد الصبي في فك غموضها لكن أحداً لم يساعده.. كان الجميع يرددون.. لا ندري والله لا نـدري.. وحتـى العبـد الـذي كان مكلفـا بذلك الطقـس.. كان يردد.. لا أدري.. لا أدري.وكان الغريب حقا أن أحداً لم يتقدم لأمه أبداً بعد أن انسحب الجد (سـند) متعكزاً من ترملها.تركوها هكذا أرملة وأما لولد وبنت، وفقيـرة، وباكية، وقد تواجه مصيبة، ووسـط تلك المناخات الوعرة.. مناخات (جوا جوا).

كانـوا يتحدثـون عـن طبـول النحـاس ذات الرنيـن الصلـد والأثـر النفسـي الـذي تتركـه فـي قلـوب سـامعيها خاصـة فـي أزمنـة الحـرب والتحرشـات.. حيـن خفـق قلـب الصبـي.. الآن فقـط يتذكـرون والـده صانـع الطبول العظيم، والذي قاوم الفقر لسـنوات وأبدع طبولا نحاسـية ما زالـت عواءاتها تـرج قلوب الأعداء فـي (سـقرة) و(أم جرابع) و(واو الحفيـر)، لكـن المتحدثون ما لبثـوا أن خرجوا وبسـرعة كبيـرة عن ذكر الطبـول وأصواتها، دخلوا بخيالاتهم إلى ليالي عرس، ودكاكين للحراير، وسـوق للفخاريات، وسـافروا في حلم يقظة حماسـي في قافلة سـياحية كانت تقل(الأنسـابيين) إلى جنوب مصر.كانوا يقومون للصلوات، فيقوم معهم، يجلسون للمضغ، فيجلس معهم.. يبتسـمون، فيبتسم ويضحكون

فيضحك، يسيرون أحياناً في شوارع (جوا جوا) فيسير معهم، وكم آلمته نميمتهم عن (هجليج) الشوارع التافه الظل، وسيقان النساء التي هي عراقيب طيور، وبرادع الحمير غير المتينة.أو بصقهم (للتمباك) في الغرف النظيفةو المرتّبة.عرفهم إلى الحكيم (دوباجي) الذي كان يأتي أحياناً، ليس في مهام سلطانية عنيفة كما جاء أول مرة، ولكن كمتأنق عجوز يسأل عن فرو الثعالب الذي تشتهر به منطقة قبائل التنجر وأراده الحكيم كساء له، وأيضاً عرّفهم على المهاجر (عبد الرب) الذي أقام في عزاء نظر حبايب الرسمي وغير الرسمي، مستعيداً لثلاثة ألقاب مهمة من التي فقدها أيام غضب السلطان (رغد الرشيد) عليه.. وكان يمكن أن يعرفهم إلى (حلحلوك) المجنون، لكن المجنون لم يشاهد في حي (الرديم) أثناء وجودهم أبداً.

في أحد الأيام التفت أحدهم إلى (آدم نظر)، تأمله بإمعان كأنه يراه للمرة الأولى، برغم عشرة أيام أمضاها برفقة الصبي الذي كان رجُلاً للبيت ومتلقياً للعزاء، وخائضاً في حمى النقاشات..

- هل صحيح أن أباك مات بالمرض الإنجليزي؟

لا مات من حسرته..

صرخ الصبي.

ماذا كان لون حسرته؟ قهقه الغريب.. هل كان أحمر أم أزرق أم في لون خريف (أم دبابيك)؟.

كان آدم قد سمع بالمرض الإنجليزي، سمع به في واحد من دروس علم (الهبرات)، في مدرسة المهاجر. كان الأمير (الهبراتي) يتحدث عن أجهزة حيوية توجد فقط في المرأة، سماها أجهزة الخصوبة، وقال إن تلك الأجهزة قد تفسد من أمراض كثيرة ك(الهيضة) و(أم صفوف) والمرض الإنجليزي الذي يحولها إلى أعشاش للغراب أو أوكار لنعيق البوم.لم يفهم (آدم نظر)، ولا فهم زملاؤه التلاميذ شيئاً، اعتبروها فقرة

معقدة قد تتفكك في عقولهم شيئاً فشيئاً، ولم يكن من السهل سؤال الأمير أو استيضاحه لأنه كان في أغلب ساعاته متعكر المزاج، ويشكو من انتفاخ في البطن.. حملوا تساؤلاً خجلاً إلى أحيائهم دون أن يجرؤا على الدخول به إلى بيوتهم، وبعد شهر كامل من البحث والتنقيب وأسئلة الحفر الملحّة، جاء أحدهم بالفقرة مفككة.. إنه مرض (الماء الأبيض) الذي ينتج من لقاح المصابين به بغير المصابين، وسمي إنجليزياً لأنه دخل في البداية في أجساد الرحالة ومستكشفي البلاد، واستوطنت قبائل منه في جسد (أنسابة) لا تبرحه.

ذلك اليوم كان المهاجر (عبد الرب) موجوداً، وكان قد استعاد بقوة غير رسمية ألقاب الشيخ والفقيه و(بئر العلوم) أثناء وجوده المكثف في العزاء.. استعادها من فتاواه في الميراث، وتحبيبه للجهاد، وتخويفه من (الشق المائل) لمتعددي الزوجات.. كانت لهجته في مواجهة الغريب حكيمة لكنها لاسعة، وكان احتضانه لدموع تلميذه وبتلك العاطفة المؤججة وحده كفيلا بإعادة لقب والد الصبيان إليه مجدداً.. ولدي لا تبك.. ولدي لا تبك.

كان في ذلك الوفد العزائي القادم من بعيد، شاب أبيض من الذين يولدون بلا صبغة للجلد في تلك الولادات النادرة، يسمون علمياً (بأعداء الشمس)، ويسمون محلّياً ب(أولاد الحُور) وتحاك حول سيرهم آلاف الأساطير، والحكايا الغريبة.كان اسمه (جبروتي) وكان أول ولد للحور يراه (آدم نظر) في حياته بالرغم من أنه سمع عن تلك السلالة كثيراً.. سمع عنها في حكايات جدته ووالده، وسمع والدته مراراً تتحدث عن واحدة من بنات الحُور كانت تعرفها في أيام الصغر وكانوا يقولون أنها جنية تعيش بين البشر.

في البداية فر من صحبته متخوفاً من ذلك الجسد القصديري، وتلك الرائحة الحامضة للهاث وشياطين لزجة تخيلها ترافقه، تحاشاه

مرة ومرتين وعشر، وتقبل عزاءه مرتعدا، وكان يستغرب من انصهاره في الوفد لدرجة أن أحداً لم يكن يلقي إليه بنظرة. وبمرور الوقت تآلفا لدرجة أنهما لم يكونا يفترقان طيلة النهار وقسماً من الليل.. وفي تلك الصحبة الطارئة حكى له الشاب عن ميزة التألق أن تولد (حوريا) وسط قوم عاديين كلهم يملكون صبغة للجلد. وإن كثيراً من السياح المتوغلين في بلاد التنجر كانوا يظنونه أوروبياً لشدة اختلافه، يصافحونه باحترام ويمنحونه من الثقة أكثر مما يمنحونه لغيره وإن فتاة خارقة الجمال من إحدى قبائل العرب البدو المترحلين في أطراف (أنسابة) قريباً من بلاد (التنجر)، أحبته بجنون، وكاد أن يتزوجها بالفعل لولا (الدليل كرشو) الذي أفسد كل شيء.

سأله الصبي بتلهف:

من هو الدليل كرشو.. من هو يا جبروتي؟

ألا تعرفه؟

لا

إنه واحد من رعاة الأغنام لا يعرفه أحد.

وكيف أفسد كل شيء؟ كيف يا جبروتي؟

عض الصبي على حرف الاستفهام حتى أدماه.. كان مشوشاً بشدة، وقد ورد إلى ذهنه رسم متخيل لفتاة البادية الخارقة الجمال تبكي سجينة في خيمة صحراوية، وبرفقة راع للأغنام لا يعرفه أحد.

أطرق الحُوري برأسه إلى الأرض قليلاً، أخرج من جيبه حفنة من لب البطيخ ألقى بها بعيداً، وحين رفع رأسه كانت ملامحه العارية ساهمة ومجروحة..

أبداً.. هزم أباها في عراك بالعصي، وبوجود ألف متفرج ظلوا يضحكون ليوم كامل، فلملم الأب أسرته واختفى.. ولم يعثر عليه أحد..

هل تحب الصيد يا أدوم؟

لم أجربه.

عندي كتاب عن الصيد مكتوب بلغة غريبة وبه رسومات كثيرة تعلمك الصيد في يوم واحد.. إنه هدية من صديقي الشماس عبود.. أهداني إياه حين زار منطقتنا في المرة الأخيرة.لقد رقص معنا في عرس تصادفت إقامته، وبكى معنا في مأتم حدث وهو موجود، وشاركنا في حفر بئر جديدة وقال حين انتهينا.. الرب يمنحكم من سخائه فلا تخذلوا الرب.

الشماس عبود؟

- نعم.. إنه رجل دين متجول اعتاد الحضور إلى (أنسابة) في كل عام.. لو رأيت رجُلاً بثوب أسود وعمامة سوداء وحذاء من جلد أسود يسير في شوارع (جوا جوا).. فهو الشماس عبود.. صديقي.

افتتن الصبي بولد الحُور القادم من بعيد في ذلك الوفد العزائي، افتتانا أنساه غرابة القصدير وحموضة اللهاث، وأحزان موت والده المفاجئ. أحب لهجته ولسانه ومزيلات العرق والعطور التي كان يخترعها من خلط سيقان النباتات وبذورها ببعضها.. ويتاجر بها في دكان صغير افتتحه في موطنه في قرية (أم حراب) التي كانت أهم مراكز (التنجر).. وعلى مدى أسبوع، اطلع (آدم نظر) على نماذج خشنة ووارفة من تلك التجارة كان (الحُوري) يحفظها في قنان ملونة ويرتبها في حقيبة من سعف الدوم..

انظر هذه لإنعاش الساقين بعد الجري. هذه لعرق العنق. هذه لإيقاظ اللهفة أمام الأحبة.. هل تعلم أن لكل جسد عرقه الخاص وعطره الخاص أيضاً؟.. جدي علمني ذلك.

وما هو عطري أنا؟

سأله الصبي..

اقترب الحُوري من جلد (آدم نظر).. الذي كان بعضه عرقان

وشاحباً في مواجهة الشمس في واحد من آخر أيام الصيف في (أنسابة) في البداية شمه باستعجال، ثم أعاد الكرة لاصقا أنفه في العرق وحين رفع وجهه في النهاية كان مبتهجا..

- عطرك مزيج من سيقان (المنوليا) و(الجاجندار) وقليل من حبات (القرفة) بعد سحقها جيّداً.. إنه عطر السطوة وسأخترعه لك.

لم يفهم الصبي حرفاً واحداً من لغة ولد الحُور المعطرة، لكنه اصطحبه في جولة موسعة في سوق العطارين القديم في (جوا جوا)، حيث نبش واستنشق واستفسر وعاد في النهاية (بالمنوليا) و(الجاجندار)، وحبات القرفة المسحوقة، ليمكث ساعات طويلة، ويخترع عطر السطوة الذي لم يبهر (آدم نظر) فقط، لكنه أدار رؤوس عذراوات كثيرات تعمد الصبي أن يتسكع بالقرب من أنوف شمهن.ذلك اليوم بالذات ضاعف ولد الحُور من ارتقائه لقلب الصبي.. كان سلّمه في هذه المرة عطراً عدّ فاخراً في جسد لم يتذوق العطور أبداً من قبل.. ازداد به التصاقا، وازداد ثقة، وكان ينظر إليه نظرة تلميذ باهت إلى معلم قدير

- هل يمكن أن أتعلم صناعة العطور؟
- صعب.. صعب..
- ولا حتى مزيلات العرق؟
- صعب.. صعب.. لابد من ثقافة.. لابد من صبر.. ولابد من عاهة تصيرك جبارا. يسكت الصبي.. لم تكن فكرة صناعة العطور إلا فكرة طارئة.. ولكن طموحه أكبر وأكبر.. الجليل الذي ترجل عن الفرس.. من يصنع عطوره؟ لا يفارقه الجليل.. لا تفارقه الأحلام الكبيرة.

على صعيد الحزن المخفي في داخل البيت، كانت والدة الصبي وأخته (الرزينة) منكبتين في الحزن التقليدي الموروث بكل أوصافه ومسمياته وأنصاله الجارحة، وبرغم ذلك لم تقل كفاءتهما في خدمة المعزين الذين لم يعودوا وفدا رفيع الحزن قدم للمواساة في الفقد

مـن بلاد بعيـدة، بل أصبحوا أشـجاراً كبيـرة الفروع في حاجـة إلى ري، وفئران ناشـفة الحلق تجوس في مطبخ العائلة.نضبت الذرة، شح الدخن والقمـح، والحميض، وزيت جـذع ((الهجليج)) البـذيء الرائحة، وجاء أهل خير من أشـراف (جوا جوا) بخراف وماعز، وأرانب برية، سـلخت كلهـا.كان الصبي يتوغـل إلى الحـزن المخفي بين حين وآخـر، يرى أمه تلطـم الخدود، وتشـق الجيـوب، وتضفّـر المناحات وتنـادي على والده البعيد بلقبه الفخم المؤجل الذي حاول تفصيله مراراً ولـم يستطع قط..

(حاج نظر حجيت.. حاج نظر سعيت)..

يعود إلى (الحُوري) صديق الخمسـة عشـر يوماً الأخيرة، يصف له كل شيء، فيردد بثقة:

أرملة وفية تمارس حقها في الترمل وبكاء الزوج.. دعها وشأنها.

يتوغـل في الحزن المخفي، يـرى أخته (الرزينـة) التي كانت تلقب في (حي الرديم) بـ (مهرجان جوا جوا) كناية عن بهائها، وتنوعها وبريق عينيها، يراهـا صائمة وقائمة، وهائمـة التقاطيع تعد علـى أصابعها كثيراً، وتضفر شعرها بالخرز الباهت اللون، يعود إلى الحُوري يخبره.. يردد..

- فتاة لابد كانت بأبيها معجبة.. دعها..

يتوغل.. ويتوغل.. يرى نساء التنجر القادمات من بعيد.. مبتسمات وضاحكات ومزينات بالذهب والفضة والخرز الملون، فيهن رائحة عطر الإيذاء نفسه، وفي ثيابهن اللماعة تطاريز عرس.. يردد الحُوري:

- نساء عاديات في عزاء عادي.. هذه هي التقاليد.. هذه هي.. الغيرة.. المباهاة.. هكذا..

وحين انتهت الخمسة عشر يوماً حقيقة، وتلملم وفد العزاء الفئراني للرحيل، لطمت الأم لطمتها الأخيرة، شقت جيبها الأخير، نادت يا حاج حجيت.. نداءهـا الأخير، صامـت (الرزينة)صيامها الأخيـر قامت قيامها الأخيـر، وهامـت تقاطيع الوجه أيضـاً هيامها الأخير.. سـاعد الصبي في

سقاية الإبل وتحميل الحمير، وشد اللجامات، وأمسك بثياب (ولد الحُور) الذي تهيأ لركوب ناقته صارخاً:

ابق يا جبروتي.. ابق أرجوك..

كان يريده أن يبقى بالفعل.. يريده لأن حكايات الشمامسة المتجولين التي كان يرويها، لم تكتمل بعد، أوصاف فتاة البادية الخارقة الجمال لم تركز في الذهن بعد، وعطر (السطوة) الذي اخترعه وحرك شم المراهقات في الشوارع، اعتاد الجسد على رائحته وأوشك على النضوب.. يريده لأنه لم يصف له مجلس (الكوراك) الذي بهره، والأب الشيخ (يوسف كرا) الجليل المهاب وكل تلك التفاصيل التي شاهدها للمرة الأولى.. كان يحتفظ بأوصافه تلك لليال أقل عصفا وبعد أن تخف مرارة المأساة.تأمله الحُوري باختصار بدا واضحاً في خلايا وجهه القصديري.. خاطبه بجلافة لم تكن موجودة في تلك الخمسة عشر يوماً المبهرة:

رزقي خارج عاصمتكم يا صبي.. عندي تجارة أتاجرها، وأم أرعاها، وسياح أجانب يسألون عني.. لا تقل لي اترك كل هذا..

انقلهم إلى هنا.

لا أستطيع.. وداعاً..

تلك اللحظة بالذات خرجت (الرزينة) من داخل الحزن المخفي لأول مرة منذ مات والدها، كانت تؤدي مراسم الوداع لوفدهم العزائي الذي تكبد مشاق السفر.. لم تكن هائمة، ولا في وجهها آثار غم، كانت نظيفة، ويانعة، ومهرجاناً، ولها جدائل من شعر لولبي تقرصه عناقيد الخرز.. وحين مدت يدها مصافحة لأيادي الرجال المتأهبين للسفر، صغروا فجأة أو كبروا فجأة أو توسطوا في العمر.توقف الحُوري عن ضخ جلافته المنتقاة في وجه الصبي، تأجلت تجارته في تلك اللحظة بالفعل، وجفيت أمه، وما عاد يهمه لو سألت آلاف الوفود السائحة عن

غرابة جلده في تلك الأصقاع البعيدة، أحس بيد (الرزينة) التي امتدت إليه، خائفة.. أحس بكيانها يتراجع، رأى عينيها تهذئان، وكأنه سمع لسانها الرطب يهمس.. ولد حور.. ولد حور.. كانت قد أصابته في الصميم.. قلبت دمه في سروج الوله، ونبتت خامات عطرها الشخصي في ذهنه المتوعك.. سيبقى ليخترع ذلك العطر وليس من أجل خاطر الصبي، يخترعه من نرجس الحقول المتغطرس أو ياسمين الواحات البري، أو حتى من مسك غزلان نهر (الجمر) الذي سمع عنه مرة في الأساطير.. عطر النضارة.. عطر النضارة.. هكذا سماه.. عطر سيفتك بالعطور كلّها.

نعم ولد حور.. إنه صديقي جبروتي.

قال الصبي وهو يلهث..

هزت نضارتها في ذات الوجه المرتعش، وبذات عيني الهيام المذعور، تراجعت إلى الخلف عدة خطوات حتى تأكد الحُوري أن ارتعاشها قد توقف وارتعاشه قد بدأ.. ترجل عن نوايا السفر وربط ناقته في وتدها من جديد، ودون حتى أن يودع قومه أو يبث تحايا لأمه التي يرعاها، وقال للصبي وهو يهتز ويمد يده القصديرية ليقرصه في خده:

- من أجلك يا أدوم يا شقي.. سأبقى.

ولم يكن صادقا.. لم يكن صادقا أبداً..

تلك الليلة لم ينم ولد الحُور أبداً، ولا نام (آدم نظر) إلا نعاساً يتضفر ويتقطع، كان يحس بأنفاس صاحبه تثر، يحس بلهاثه مراً، ويلمحه في ضوء القمر الهزيل المتسرب من شقوق النافذة، يتلوى كأنه ممغوص.. وحين استيقظ من تلك الغفوة الواهنة في الصباح، وجد مئات من عيدان (الذرة) تتناثر تحت فراش صاحبه، استغرب للأمر كثيراً، ولم يخطر بباله أبداً أن تلك العيدان قد استخدمت وطوال ليلة كاملة في لعبة

الاستقصاء الشهيرة في حق أخته:

ستحبني..

لن تحبني

ستحبني

لن تحبني..

وأنها توقفت مصدومة عند المقطع الأخير.. لن تحبني.. رأى عينيه جمرتين، وجفونه منتفخة، وهالتان من قصدير داكن تحتويان تلك الجفون.سأله:

ماذا حدث لك يا جبروتي؟

لا شيء.. عندي عطر يعذبني. وأريد أن أخترعه حالاً

لم يحدث لك ذلك حين اخترعت عطري.لم تساهر ولم تؤرق..

- عطرك يختلف.

قالها في جفاء تقلصت له أمعاء الصبي.. وتجرحت صداقته.. كان يقوم ويقع، يحتسي شاي النعناع القادم من منبع العطر في الداخل بتعجل كأنه يخشى فرار نكهته، لم تكن في الحقيقة أية فتاة للبادية خارقة الجمال ترحل في بلاد التنجر كما ادعى، ولا راع للأغنام أسمه (الدليل كرشو) يتعارك بالعصا ويفسد كل شيء، ولا أية اختبارات أخرى خضعت لها عواطف (ولد الحُور) القصيرة القامة أمام طوفان العواطف.. نعم كان ثمة سياح أجانب يلقون عليه التحية ويمضون في سبيلهم، وربما استغلوا يديه الريفيتين في تكسير حطب أو إشعال نار.. وشماس متجول اسمه (عبود) رقص معهم في عرس وبكى معهم في عزاء وحفر معهم بئراً وقال حين انتهوا.. الرب يمنحكم من سخائه فلا تخذلوا الرب.. وكتاب عن الصيد برسومات مزركشة عثر عليه في أحد الشوارع صدفة.. وربما كانت هناك عشرات التلصصات وقصص الهيام من طرف واحد قد حدثت بالفعل ولم يذكرها للصبي.. كانت أمه تختصه بحنانها كله حتى

كبر، أبوه يحاول أن يفتخر بولادته دون أن يقدر.. يذكر تلك الهلوسة الذليلة التي هلوسها لسنوات طويلة، وهو طفل وهو يافع وهو رجل.. يذكر سرواله الأبيض النظيف، وقميصه السمني المخطط، وعمامة أولاد القبائل التي اشتراها غالية، وارتداها مراراً في حفلات عرس الأصحاب أو نواحات مآتمهم.. لم تقل له فاطمة التي كانت إحدى بنات الجوار شيئاً أبداً.. ولا (مسرّة) الجارة الأخرى شيئاً أبداً، ولا (دار النعيم) قريبتهم المتغطرسة، والتي لو كان شاعراً لرسم نعاسها، وحلكة الشعر. كن يقلن للآخرين ويتجاوزن عاطفته المسكينة.ما التميز أن تولد حُوريّاً وسط قوم يملكون صبغة الجلد؟ ما جبروتي، ما طعمه.. ما ملامحه.. ما لون صبغته لو كان مصبوغاً.. الأبيض يبدو أبيضاً والأسمر أسمراً، وأصحاب (لون زينب) المخلوطين من هذا وذاك، يبدون أصحاب (لون زينب).. تلك الليلة المقمرة سار خلف قطيع من ظباء البراري، واصطاد واحداً منها، كان يريد تقديمه لواحدة من ست عشرة يانعة ظن فيهن خيراً أو شراً.. لعبة الاستقصاء العنيدة.. لعبته.. من عيدان الذرة.. من خيوط الطواقي.. من حبات الفاصوليا والعدس..

ستحبني..

لن تحبني

ستقبل..

لن تقبل..

ودائماً صدمة النهاية عند المقطع الأخير..

لن تحبني..

لن تقبل..

يذكر جده الذي علمه صناعة العطر ومزيلات العرق من سيقان النباتات.. وأباه الذي علمه الفتونة وصيد الثعالب الغزيرة الفراء.. و(مالك الأنسابي) الذي علمه الكتابة والخط.. و(أحمد قرون) الذي

وضع قدميه على خطوط المراهقة الأولى، و(جديرة) الراعية التي علمته رعي الأغنام في مواسم الجدب.. ولا يذكر أحداً علم الفتيات أن يعشقنه.. شد يد الصبي (آدم) حتى كاد أن يخلعها..

هيا إلى سوق العطارين.. هيا..

أيام من السهر والحمى والشم واللمس والمضمضة والاستنشاق، والشهيق والزفير ومكابدات أخرى لا علاقة لها بتركيب العطور، إضافة إلى لعبة الاستقصاء العنيدة.. من عيدان الذرة وخيوط الطواقي، وحبات الفاصوليا والعدس..

سأستطيع..

لن أستطيع..

سأستطيع..

لن أستطيع..

هتف (جبروتي) وهو يرفع قنينة وردية المحتوى، ويقربها من حواس شم الصبي..

عطر النضارة كما أتصوره.. خلاصة العطور كلها.. ها.. ها

كان عطراً وارفاً بالفعل.. مزيج من برتقال، ونرجس وزنبق صحراوي، وغرائب أخرى جاء بها الخُوري من سوق العطارين وسوق الفخاريات الكبير، شمه الصبي فأحس بتوهان لذيذ، تمثلت له فتاة البادية خارقة الجمال.. أكذوبة ولد الحُور، كاملة تعدو إلى مراهقته، تمثلت له أطياف الجوار البضة، وأصوات لغنج بعيد، ووجوه وردية الخدود يعرفها، ولم يعرف إيحاءها أبداً، عادت ابتسامة جارتهم (روضة) التي ابتسمتها منذ عام ولكن بدثار جديد، عاد خصر قريبتهم (عائشة) الذي تتخنصره منذ عهد ولم يكن في الماضي سوى مجرد خصر لقريبتهم عائشة، ولعبت في فناء الذهن قمصان حمراء كانت منشورة في حبل بعيد.. كانت دروس علم (الهبرات) في مدرسة المهاجر عبد الرَّب،

تحتوي على الكثير من الحيل والرسومات والخطوط الحمراء، ويدرسها الأمير (الهبراتي) مستمتعا ومنتفخ البطن، لكنها لم تخلق إيحاءها كثيراً، وكانت في النهاية علوم تستوعب أو لا لكن عطر النضارة الذي أبعد جبروتي عن صداقته لعدة أيام وحقنه بذلك التوتر، ويلهو الآن أمامه، كان شيئاً خارقاً.. شيئاً لا يمكن تصديقه. لمن صنعته.. لمن صنعته يا جبروتي؟

- لها..

ردد الحُوري (لها) المبهمة والسرابية، عدة مرات أمام أذن الصبي.. وردد (للرزينة) مرات أكثر أمام آذان قلبه فقط..

لها..

للرزينة..

لها.. للرزينة.. للرزينة.. لن يشعل ضغينة الصبي بإيقاد قصة للحب في بيته، بالرغم من أن قصة الحب كانت متقدة بالفعل.. ترى هل كل (حوريّي) أنسابة عشاق مثله، وكل (رزيناتها) بمثل تلك الرقة؟ وتلك الليونة؟.. في وطن (التنجر).. وطنه لم يكن هناك سوى حوريين فقط.. هو (جبروتي) و(سعدان) المزارع، لكن سعدان لم يكن عاشقاً.. ولا مازجاً للعطور، ولا سمح لسائح أو شمّاس بانتهاك غرابته أو حتى السلام عليه.. كان يحفر ويسقي وينام..

- لها.. من؟

- هي..

هي لأذن الصبي.. الرزينة لأذن قلبه.

هي.. الرزينة.. هي الرزينة..

فجأة انقطع الحوار المعطّر بدخول صاحبة العطر حاملة صينية الطعام، كانت رزينة يوم وداع الوفد العزائي نفسها، نظيفة ومشرقة، لولا آثار عض من بعوض كانت تتناثر على وجهها.. قالت.. . مساء

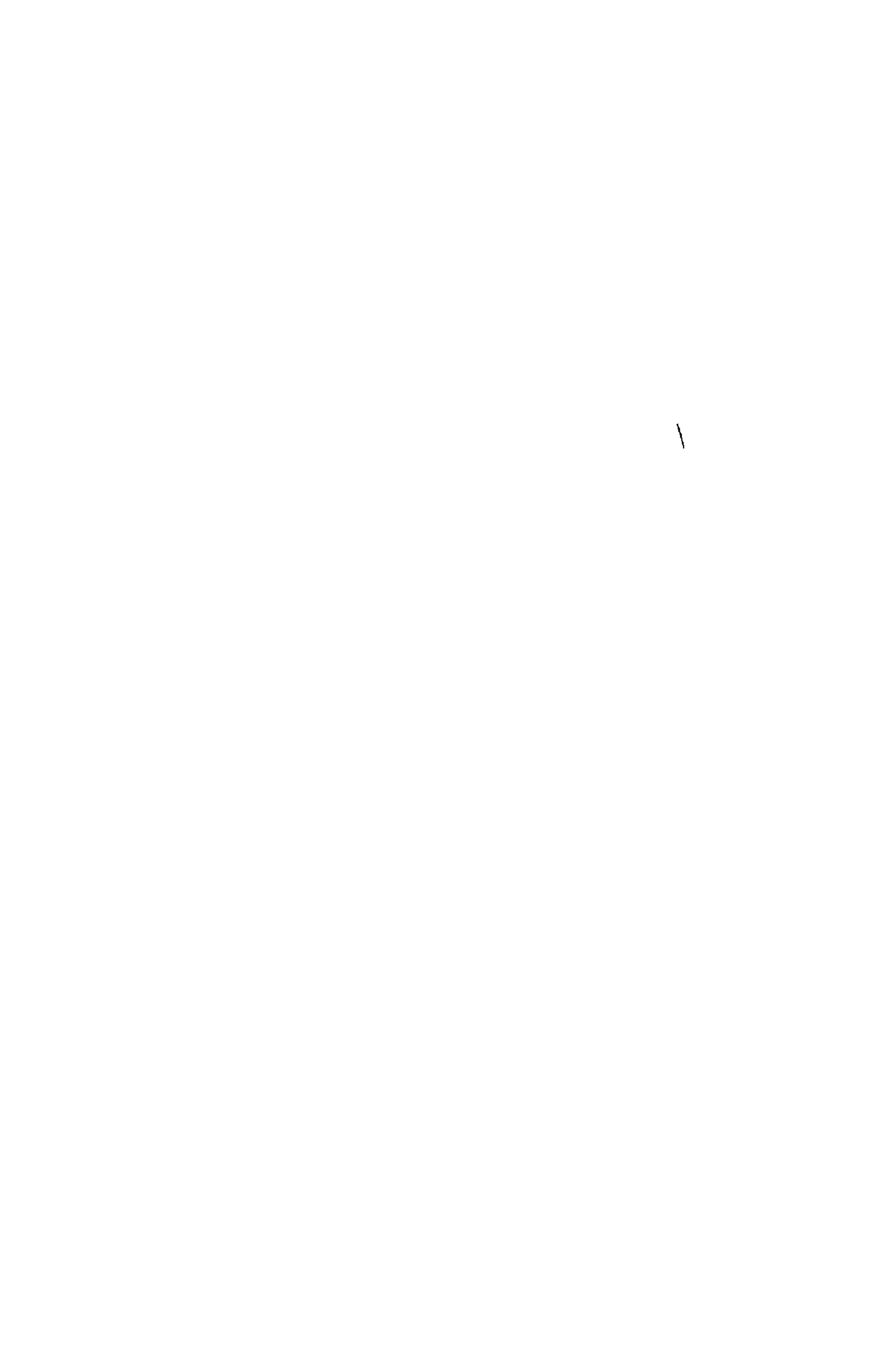
الخير وابتسمت، ولاحظ الحُوري أن قميصها من(دانتيلا) فقيرة كانت تسوقها قوافل الصعيدي (حنفي الساحوري) وبعض القوافل القادمة من الحجاز في تلك الأيام، وحذاءها من جلد ماعز صغير، وعناقيد الخرز التي تعض على ضفائرها قد عدل ترتيبها عن يوم وداع الوفد العزائي.. وضعت عصيدة (الحميض) على الأرض واستدارت لتنصرف، ولاحظ ثقباً واسعاً مستديراً.. في ثوبها تحت لوحة الكتف اليمين وبقعة من زيت في المنتصف.. فتح فمه القصديري ليقول شيئاً.. لكن قصدير الفم انغلق دون بث..

جبروتي صنع عطراً جديداً يا رزينة.. عطر النضارة.

التفتت لا لتندهش من جديد جبروتي ولكن من قديمه أيضاً.. لم تكن تعرفه، ولا تخيلته صانعاً للعطور ولا كانت هيئته توحي بوجود فنان أو عطار تحتها.. فتاة بأبيها معجبة.. وفتاة في وسط الحزن ما تزال.. وفتاة من حقها أن ترتعش لرؤية واحد من أبناء الحُور في بيتها.. منذ مات صانع الطبول.. والرؤيا غائمة.. وآدم صغير.. وأمها مرضت، والقبيلة انصرفت.. وهذا الجبروتي لا يقيم في حزنهم فقط، بل يصنع عطوراً للنضارة. انصرفت دون كلمة، ودون أن تقترب من العطر الوردي الذي صنعه حبها.

كانت أخبار ولد الحُور وعطوره التي يخترعها في البيت، تصل إلى أرملة صانع الطبول داخل حزنها وعدتها بانتظام، يحملها الصبي في دخوله وخروجه وفي الدقائق القليلة التي يقضيها في محيط العائلة. وصلتها قطرة من عطر النضارة، وعطر الدوران، وعطر طراوة القلب، وعطور أخرى متعددة، حتى أخبار لعبة الاستقصاء التي كانت تدار في بيتها بشكل يومي ولا يعرف أحد لماذا تدار، وصلتها، كانت تحث (آدمها) على التروي في اتخاذ الصداقات، تأتيه بأمثلة لأصدقاء عرفوا والده، وركلوه وكانوا أكثر الشامتين حين أنزل من قوافل الحج.. تقول..

لا بأس مـن صداقة جبروتي.. لكن بحذر.. كان يهز رأسـه متجاوبا وفي الخارج يندفع إلى صداقـة ولد الحُور بحمى غريبة. وحين انتهت عزلتها وخرجت إلـى المواجهة والمصائـب ومناخات (جوا جـوا)، لم تندهش حيـن أبصرت جبروتـي. كان هو جارتهـم الحُورية القديمة نفسـها، فقط بكيـان رجالي وبلا قصديـر مضفر.. سـألته عن أمه.. وعـن جدته، وعن حريم أخريات لم ترهـن منذ عهد.. وكان ولد الحُور سـخيا في التعامل معهـا.. زودها بالكثير من خفايـا التنجر، واخترع لها عطراً رقيقا يمسـك بالدمـع قبـل أن ينهمر، سـماه عطر تخفيـف الحزن.وكان يبـذل مجهودا خارقـا للحفاظ على توازنه أمامها وأمام حبـه الرزينة.. كان غريباً وتحت ظل لم يرد أن يفقده سـريعاً.. في يوم ما سوف تخرج القصة المتقدة من قلبه لتأخذ مسـارها في بيت العائلة.. لكن ليس الآن.. ليس الآن.. يقول ويضغط على قلبه أكثر



-3-

ثلاثـة أعوام انقضت على وفـاة صانع الطبول (نظـر حبايب)، تلك الوفـاة الفاجعة التـي حدثت في يـوم جمعـة (الكوراك).تغيـر الكثير من وجـه السـلطنة وجسـدها، ازدادت تجارتها اشـتعالا، ومجالـس كوراكها صياحـاً، وعداءاتهـا لسـلطنة (كردمـال) المجـاورة حـدة وتوقدا.تقاعـد (حنفـي السـاحوري) تاجر الصعيـد الكبير عـن ركوب القوافـل، وخلفه (حنفيون) آخرون من ذات الصعيد، كانوا أكثر شراهة وشبابا وصبرا على الاسـتيراد والتصدير واكتشـفوا مداخل ومخارج لم تكن تخطر على بال (الساحوري) أبداً.. توسـعت تجارة الحجاز واليمن وأرض تمبكتو، ولم يلغ حظر ركوب القوافل السلطانية للمفتوقين والعور والطرشان، وحاملي ميكروب اللسـان الركيك فقط، بل تم حصرهـم بصرامة في جميع أنحاء (أنسـابة)، بواسـطة كتيبة الرعـاع القوية، اصطيـدوا، وأُرسـلوا في بعثات خاصـة وقوافـل مجهزة بلـوازم الحج كلهـا.. حتى إحرامهـم كان يربط، وحزام وسـطهم يحزم في الوسط، وتسـاندهم حناجر العبيد الشرسة في التلبية والتهليل وإنشـاد الدعاء الصوفي.. وكانـت بيوتهم تدهن بالأبيض الجيري، وتكتب على أبوابها عبارات الحج المبرور، والسـعي المشكور والذنب المغفور، والعود الحميد قبل أن يرحلوا، وخراف كراماتهم تربط في سـاحات مخصصـة إلى أن يعـودوا وكان مـن جراء ذلـك أن أخطاء كبيرة قد حدثت، وكاد أن يرسـل (إيراك) اليهـودي تاجر الورق والتحف التذكاريـة في سـوق الفخاريـات، والـذي كان أعور وبلسـان ركيك، في واحدة من تلك القوافل لـولا أن تم تدارك الأمر قبل أن تتحرك القافلة.. وبتوجيـه حميد من السـلطان (رغـد) شـخصيا، كان بيت صانـع الطبول

الراحل، يجدد بياضه سنويا، وتكتب عليه العبارات ذاتها وينحر خروف أيضاً تأكيداً للعود الحميد.

تلك الأثناء بقي جبروتي ولد الحُور في حي (الرديم) المرهق في (جوا جوا)، قريباً من منبع العطر الذي كانت تضخه (رزينته)في كل شيء، في الشاي المنعنع وعصائد الحميض والدخن والذرة، والسلام عليكم وعليكم السلام العابرة من حين لآخر.سافر مرة إلى بلاد التنجر البعيدة، لم يمكث سوى أيام قلائل لم تكفه حتى لمحو ماض أو بذر بذرة حاضر، وعاد حاملا تجارته، ورائحة أمه، وعطراً آخر اخترعه هناك، وسماه عطر قلبي الصابر، وكان صابرا بالفعل يقاوم العرق، وفوضى الشم، ولا يفارق الأجساد أبداً.. .كان حبه(للرزينة نظر) الآن حبّاً مختلفاً، شابّاً وقويّاً وصلداً، ومستعدا للمغامرة إلى أبعد مستوى، ليس عشق اليوم الأول المرتعش ولا الأيام التالية المكابدة، ولا التي أعقبتها تحت رحمة لعبة الاستقصاء العنيدة.. ستحبني.. لن تحبني.. ستحبني.. لن تحبني، بالرغم من استمرار تلك اللعبة لليال طويلة بلا انقطاع، واكتشف بعد تأمل متأن لخيالاته المختلفة، وقراءة اتجاهات نظرته وسلوكيات أخرى يراها في يديه، ورجليه وعضلات بطنه، أنه يغار من عناقيد الخرز التي تعض على شعر الرزينة.. يتخيلها خناجر، ويتخيلها سكاكين، ويتخيلها حراب صيد.. ويمكن أن يتخيلها براميل بارود لو كان البارود قد وصل إلى (أنسابة) في ذلك الحين.. تلك الأيام أيضاً جرب أن يكتب أغنية عاشقة يرددها لنفسه بصوت قصدير مرهق، فكانت أغنية (حبي حبي) غزلية فاشلة، لم تخفف من غليانه أبداً ولم تتفرع إلى أغنيات أخرى. وبرغم نجاحاته المؤكدة في الترويج لعطوره في ذلك المتجر الصغير الذي افتتحه في سوق (جوا جوا)، سماه (يسر ولا تعسر) وتهافت وجهاء العاصمة وعذراواتها وفرسان كتائبها للتزود بتركيباته، إلا أنه كان معقدا في شأن عطر النضارة الذي اخترعه لحبه، يرفض ترويجه

بشـدة، ويرفض حتى السماح لأحد بالاقتراب من نكهته. يقول لعملائه.. صنعته لهـا.. ولقلبـه.. للرزينة.. لها للرزينـة.. وكم كانت سـعادته كبيرة حين التقى بثلاثة من سـلالته كانوا هـم كل أولاد الحُور الذين يعيشـون في (جوا جوا) تلك الأيام.. بادلهم المكابدات، وبادلوه الحنظل.. شـكا لهم وشكوا، وكانوا يحكون رؤوسهم باستمرار.. في تلك الليالي الكئيبة التي أدمنوها بحثا لـه عن مخرج.. وكانت مخارجهـم بذيئة بالفعل حين اقترحوا عليه المـوت، واقترحـوا الخصـي، واقترحـوا التنسـك، واقترحـوا الصياح بحبـه في مجلس (الكـوراك) لعل السـلطان ينصفه.وكانت كآبته تطعن في العمق حين يصرخون.. مـا نحن.. ما طعمنا.. ما ملامحنا.. ما لون صبغتنا لو كنا مصبوغين..

مـن جانبها لم تكن الرزينة تحـس أبداً أنها مركب آثـم يتبختر أمام حـوري غريق.. لـم تعـش نظراتـه، ولا وقفاتـه ولا جلسـاته، ولا غيرته المسـننة من عناقيد الخرز.. ولا فكرت أبداً في التزود ولو بقطرة واحدة من عطر النضارة الذي كونه حبها.. كانت تراه في واقع تصورها.. مجرد ولـد حور ريفـي.. ومنهـك، أعجبتـه مناخـات العاصمة وأسـواقها فقرر أن يبقـى ويتمـدن.. وحين تحس برائحـة تعاطف تجاهه تحتـك بقلبها.. تقول.. مثل أخي.. مثل أخي آدم تماماً.

أيضاً من جانبه لم يكن (آدم نظر) يحس بأكثر من احساسات أخته، إضافة إلى اعتبار البقاء المتأجج لجبروتي في بيتهم بقاء من أجل خاطره هـو، حين أنزله عن ظهر ناقته صارخاً في ذلك اليوم البعيد وهم يودعون وفد العزاء (التنجري).. ابق يا جبروتي.. ابق.. أرجوك؟

وحدها كانت أرملة صانع الطبول متوجسة، تنام متوجسة، وتصحو متوجسة، تطبخ وتغسل، وتنقض شعرها وتمشطه متوجسة، ودفعها ذلك التوجس إلى النبش فـي تراب البيـت وحوائطـه، وغرفـه الضيقة وحتى حفرة قضاء حاجاته، بحثا عن شـيء لم تحدده، والطواف على الجارات

وسؤالهن عن طباع أولاد الحُور، وشياطينهم، ومقدار شهواتهم لو كانوا يملكون شهوات.. كانت تخشى من شيء لم تحدده، وتتطلع إلى شيء لم تحدده، وتخاف لو نامت ساعة أو دقيقة أن يحدث شيء لم تحدده أيضاً.. كانت الجارات يزودنها بالهلع، ينبشن لها أساطير الأجداد عن جن أولاد الحُور واستعدادهم لشرب الدم لو سنحت لهم فرصة، وكم من مرة قدمت لجبروتي عصائد الحميض والدخن، ومرطبات (القنقليز) تافهة ومتسخة وفيها رائحة ودق.. أملا في فراره من بيتها، فلم ينتبه، كان يلوك ويحتسي، ويبيض ويفقس، ويعشش في بيتهم.وتحت ضغط مهول من أمومتها وفي أيام متعاقبة.. انتفش ولدها (آدم نظر) مرة أمام جبروتي يريد طرده.. رفع يده، وبرى لسانه، وأيقظ عضلتين نائمتين في صدغيه، لكنه حين احتك بنظرات عينيه تراجع صارخاً..

- ابق يا جبروتي.. ابق أرجوك..

فتكلم الحُوري مندهشا..

أنا باق كما ترى.. من قال إنني ذاهب؟.

كان (آدم نظر) قد كبر أيضاً في تلك السنوات، تصلد وجهه، وامتد شاربه، وتكاثف على صدره، وتحت سرته الشعر الخشن، وأصبحت صياحاته في البيت، والحي، وحتى في دكان الطبول الذي أعاد افتتاحه من جديد وعمرّه بعد أن أقلع عن مدرسة المهاجر (عبد الرب)، أقرب إلى صياحات والده الذي رحل حين كان يستلها بين حين وآخر. لم يكن يعجبه بن الصباح الطارد للنعاس، ولا لون الملاءات في الأسرة، ولا زيارات الجارات في وقت الضحى، ولا طنين البعوض، ولا رائحة عطر القمامة التي هي من مكونات حي الرديم، ولا مشية أخته النسائية العادية والتي اعتبرها مشية غنج، ولا حتى أن تغسل أمه سراويله المتسخة، دون إذن كما تفعل كل الأمهات. وكم من مرة اشتد في نقاش عائلي كسر فيه طبقا من الصيني، أو تعارك في ساحة عامة ومزق قميصه، أو

رجم زبونـا متكبرا بطبل من النحاس.. كانت ذكريات مجلس (الكوراك) الذي شـهده، وانتهى بتلك الفاجعة، ما زالت تؤرقـه، يحس بيد أبيه التي كان يمسـكها في اللحظات الأخيرة، ما زالت لاصقة بيده. وذلك الجسد المهيب للأب الشـيخ.. على أيدي العبيد الخوارق مـا زال يؤرقه أيضاً.. وقد تسـرب في عدة جمع إلى ذلك المجلس لا ليصيح أو يقضي حاجة أو يسـتعيد المشـهد القاسـي لوالده حين عـري فتاقه أمام النـاس، ولكن ليمتص أكثر.ويسـتعيد أكثر.الآن هو في الثامنة عشـرة من عمره.. شـاب ومتمكـن لا يسـتهويه (حلحلـوك) المجنـون وأحاديث ذئابـه الإفرنجية، لا يسـتهويه بكاء الأرامـل والمعذبات وصياحات العجائز المتسـاقطين.. والباحثيـن عـن غرر الصلاة. الأب الشـيخ (يوسـف كـرا).. كيف وصل إلـى تلك المكانـة.. كيف وصـل؟ كان الآن يعرفه جيّـداً.. يعرف ألوان جبتـه وخطـوط حصانه، وموعد تشـريفه إلـى مجلس (الكـوراك) وحتى سـمك عضلات عبيده الخارقيـن حين تتبلـور تلك العضـلات لحمله.. ولولا خوفه من مشكلة أو خراب بيت لركض إليه حين يحضر وصرخ.. أبي الشـيخ.. أبي الشـيخ.. لقد أجبر ولد الحُور فِي إحـدى الليالي على الاسـتماع إلـى وصف الأب الشـيخ وهالته كامـلاً.. وسـأله كيف يصبح الإنسان أباً شيخاً؟ لكن جبروتي الذي كان مشغولا بنصوصه المهلكة في حب الرزينـة، يكتبها في الليل والنهار وبعينـي القصدير أو مزج العطور، لم يكن معه.قال بعد انتهى مباشرة وهو ينهض متوجها إلى سهرة اكتئابية عند أبناء جنسه:

لا أسـتطيع إفادتك يا أدوم.. ليس لي أب ولا شـيخ.. ولا أعرف عن (يوسف كرا) أكثر مما تعرفه أنت.

تلـك الليلـة مسـه رذاذ من صدمـة، لكنـه لـم يتوعك، مضـى إلى أخته (الرزينـة) التي لم تكن صديقة له بالكامل ولا أشـركها في عذابات النفـس من قبـل وكان في معظم أوقاته يعتبرها مشـروع عـورة في حاجة

إلى ستر سألها عن رأيها، فضحكت.. لا أعرف.. يا أدوم.. لا أعرف. حتى أمه لم تسلم من السؤال، ومن مباغتات عديدة كان يتأنق فيها بثياب يظنها تكفي لجعله أباً شيخاً في نظر عائلته. ولأن حي الرديم كان فقيراً وبعيداً وأقصى أماني سكانه هو الستر، فإن أحداً لم يفد.. لم يغذ الحلم المتأجج الذي كان في حاجة إلى تغذية.كان الرجال يقولون ثرثرة بلا معنى.. النساء يضحكن أو ينكفين خجلا والصبيان أمثاله لا يعرفون إلا متطلبات الصبا فقط.

كانوا يحتفلون بالعيد الثامن عشر لجلوس السلطان (رغد الرشيد) على كرسي السلطنة خلفا لأبيه (نفر المقدم) الذي نُحّي قسراً عن كرسي السلطنة قبل وفاته بعامين بعد أن داهمته أمراض (الهيضة) و(الهبوب) و(أم صفوف) وحصار البول وأعاقت تصاريف حكمه، ومجالس كوراكه، وخطفت من حنجرته الصوت الذي كان يهدد به سلاطين (كردمال) عدوتهم التقليدية..

ازدانت (جوا جوا) بحمائم السلام البيضاء وأعلام (أنسابة) الخضراء والوردية، وعناقيد الزهور المنتقاة بحرص من حقول خاصة تابعة للحياة المترفة، ووجوه الصبايا اللائي كن يحملن الفوانيس الملونة ويضفرن شعرهن بالعقيق النادر.. وخرج السلطان إلى الشوارع مرتديا عمامة السلم الخضراء وراكباً فرسه (المهراجا) الذي أهدي إليه من بلاد الهند في إحدى السنوات، تتقدمه أعضاء مجلس الجدات بقيادة جدته السحابة، ومساعدتها المغنية (تمائم) شريف.. يدلقن ماء الورد المعطر، ويضربن بأصابع الشيخوخة على طبول الجلد الصفراء، وكانت خطواتهن ملحنة بفعل عقود (السكسك) التي تحيط بسيقانهن وأصواتهن المغنية رفيعة وحادة. كان عن يمينه الأب الشيخ (يوسف كرا) وعن شماله الأمير مساعد، وفي الخلف كتيبة (الظهوريين) الشرسة في امتصاص الخلل والشرسة في معالجته.. مروا على أحياء (جوا جوا)

كلها.. حيث كان جزارون مختصون ينحرون البهائم، وطهاة مختصون يطهونها.. وفقراء فرحون يلتهمون.. وكان عدد من الرسامين الكبار من داخل السلطنة وخارجها يتوزعون في نقاط مرور الموكب السلطاني كلها، حيث يرسمونه بدقة للتوثيق والذكرى..

ينادي المنادي الغليظ الصوت.. مولاي السلطان في حيكم، مولاي السلطان في حيكم.. فتنفرج البيوت أو تشرع، وتزغرد النساء أو تغني، وينبهر الصبية أو يصرخون.. ويزحف أطفال في المهد يتطلعون بأعين بريئة.كانت (الرزينة نظر) بين فتيات الفوانيس الملونة وعناقيد العقيق اللائي يزين موكب السلطان.. انتقوها من بين ثلاثمائة وجه تم انتقاؤها لتزيين الموكب.. وجاءت مندوبات من مجلس الجدات إلى حي الرديم لأخذها برغم اندهاشها واستغرابها وخوفها الكبير أن تسقط ميتة في أول مهرجان تشارك في إحيائه..

أهل الرديم.. أهل الرديم.. مولانا السلطان شرف حيكم..

خرجوا كلهم للفرجة.. خرج الفقراء والأفقر، والكبار والأكبر، والصغار والأصغر، وخرجت أرملة نظر حبايب، وابنه آدم، وجبروتي ولد الحُور الذي لم يكن يهمه العيد السلطاني بقدر ما همّه التفرس بجنون في كل فانوس ملون أو شريط متماوج أو خطوة رشيقة بحثا عن وجه الرزينة، وحين وجده في النهاية لم يستطع الصمود.. بكى لأول مرة وكانت دموع من قصدير جريح تلك التي أقسم ألا يجففها أبداً، وكان عطره المرتقب في ذلك اليوم.. هو عطر المهرجان.. سيخترعه بلا انتظار وفي هذه الليلة بالذات.

انتهى ضجيج العاصمة في ساعة مبكرة من الليل.. عاد السلطان إلى اختفائه، والحمام إلى أعشاشه والفوانيس إلى أضوائها العادية.. عاد فقراء السلطنة إلى الجوع، وجداتها إلى ركود (الروماتيزم)، وطبول النحاس التي استخدمت أيضاً، إلى رفوف الانتظار.. لم يبق في السنة

سوى يومين آخرين مبهجين سينتظرهما الجميع بلا شك. يوم دحر (الكردماليين) ويوم (النعمة) الذي كان يوماً مفتوحا للأكل والشرب والنعاس لا يعرف أحد من أين جاء.وكانت أيام أعياد الفطر والأضحى مفرحة للجميع، لكن يد السلطان لم تكن تشارك في ملئها.

عادت الرزينة إلى الداخل المخفي مبتهجة، فطوال مشيها الملون في مهرجان السلطان كانت تحس بالشبع.. الشبع من تخيل وجهها الأجمل والشبع من نظرات الرجال المطاردة، والشبع من مجرد إحساسها منتقاة لمناسبة كتلك.. كان الفانوس قد أهدي إليها، وعقيق الشعر قد أهدي إليها أيضاً، ووعدتها الجدة (السحابة) بإرسال واحدة من جواريها المحنكات إليها في حي(الرديم) وذلك لتنظيف جلدها الذي بدا للجدة محتاجا إلى تنظيف.. وفي انفراد طفيف أيضاً همست الجدة في أذنها.. ابقي طاهرة على الدوام، فقد نحتاجك في أمور تقوم بها الطاهرات.. وحين جاءتها جارية التنظيف بعد ذلك حملت إليها وعدا من الجدة بإرسال (عامير) اليهودي صائغ حريم القصر حتى يساهم في رقيها، لقد آلم الجدة بشدة أن ترى عنقاً راقياً بلا عقد، وحلمتي أذنين شفافتين بلا أقراط. كانت الرزينة مبتهجة بالفعل، ونسيت لأول مرة أن تلف شعرها لفة النوم، وتبكي بكاءها المسائي المعتاد منذ رحيل والدها.

ذلك اليوم الاحتفالي كان حاسما بشدة.. أطلق فيه السلطان سراح مائة بائع سمسم وثلاثين محاربا قديماً، وصيادين، وحفنة من موزعي مياه الآبار، كانوا قد اعتقلوا بتهمة التخابر لصالح سلطنة (كردمال)، تغاضى عن هفوات بعض الأمراء في شأن انتقادهم الشديد للحكم وتشكيل مجلس عائلي لتقويضه، وعفا عن زوجته (مسك النساء) التي تذمرت من انعقاد مجالس (الكوراك) في بيتها وكادت أن تفسد أحدها حين أرسلت بخوراً فاسداً.. وحين أمده كبير ممارسي الطب (دوباجي) بالمزيد من إكسير النشاط الفوار الذي يستخدمه كل ليلة، رفض بشدة..

قال اليوم أستطيع بلا إكسير. كان اليوم حاسما لجنود الحدود وخاصة أولئك المرابطين في حدود (كردمال) حسموا أمرهم، وسمحوا لعائلة ضائعة بتخطي الحدود دون تدقيق في نسبها، وسمحوا لخمر العبيد المعتَّق أن يعربد بعقولهم.. للمهاجر اليماني (عبد الرب) حين ابتكر دروساً جديدة سماها (مضاد الهبرات) وكانت نقضا فوريا لكل درس (هبراتي) يتلقاه التلاميذ في مدرسته.كان حاسما للرزينة نفسها حيث رددت.. أنا سلطانة.. أنا سلطانة.. ورقصت رقصة (الطموح) التي ابتكرتها.. ل(آدم نظر) حين امتص الأب الشيخ (يوسف كرا) أثناء مروره في الموكب البهيج واستعاده بعد ذلك استعادات متتابعة، ليس (يوسف كرا) ولكن (آدم نظر) حبايب.. لأمه حين خلعت آخر ثوب كئيب من ثياب الحداد عن جلدها، واستبدلته بواحد أحمر من حرير القوافل الجديدة، ولجبروتي ولد الحُور الذي قرر حسم أمره بعيداً عن اكتئاب أولاد السلالة ولياليهم الطويلة.. الموت.. لا الخصي.. لا التنسك.. لا مجالس (الكوراك).. لا طلب يدها.. نعم.. طلب يدها.. نعم.. نعم.. نعم.. يخرج صوت القصدير من مكمنه:

- هل تسمعني يا أدوم.. هل تسمعني؟

انتزعه من لحظة السرحان الفذة التي كانت تصور الأب الشيخ (آدم نظر)، يهبط من حصانه الرمادي على أيدي العبيد الخوارق، ويخطو إلى قصر السلطان بحذاء جلد النمر المغاربي وسط الصراخ والهتاف.. كان متأنقاً بشدة، وتفوح من جلده القصديري رائحة عطر غامض خففت قليلاً من حموضة اللهاث.

- نعم.. أسمعك.

بصفتك رجل البيت..

- نعم بصفتي رجل البيت.

طبعا تعرف أن اسمي جبروتي إدريس جبروتي.. مواطن أنسابي عريق،

وتنجري من عائلتكم الموقرة كما تعلم.. أبي إدريس جبروتي كان مزارعاً قديماً لم يعرف غير الزراعة، ومات وهو يزرع، وأمي سرورة كانت وما تزال ربة منزل ماهرة.. أنا فنان عطري كما تعلم.. وشيال للتقيل إذا كنت لا تعلم.. وأريد الآن أن أتقدم إلى أختك الزرينة طالبا يدها.. فأنا أحبها.

ألقى بسيرته الذاتية وسيرة حبه في صرامة وتكبر وصوت فاخر كان يخرج من فمه المشحون راكضا، أراد في تلك اللحظة أن يلغي فوارق الصبغة نهائيا، وأراد أن يبدو كأولاد البلد المؤهلين دون أي احتمال آخر.. كان يرتدي قميصه الرمادي المخطط، وسرواله الأبيض النظيف، وعمامة أهل العاصمة كثيرة الألوان.. وكان حذاء جلد الثعبان الفخم الذي يرتديه، هو في الواقع هدية من أحد عملائه، وأخفاه انتظاراً لذلك اليوم.كان يتمنى لو أمر رجل البيت أمراً، ويتمنى لو أطاعه رجل البيت دون جدال.. يتمنى لو أن الرزينة كانت هي التي تعشقه وتود أن تتزوجه، وأنه الذي سيرفض عشقها.. أو يقبله.

الرزينة أختي؟

رددها رجل البيت في استغراب كأن رزينات أخريات خطرن بباله في تلك اللحظة.. لم يكن يتوقع أبداً أن يصبح جبروتي عاشقاً في بيتهم، ولا توقع بعد أن نضج وتساقطت عن ذهنه الحكايات القديمة عن فتاة البادية والراعي، أن تحت هذا القصدير قلبا أو شهوة يمكن أن تستيقظ.. ولا يستطيع مهما اخشوشن أن يفتح باب منزله ويلقي به في الطريق، ولا كان يقدر على تخيل الرزينة مهرجان (جوا جوا) المتنوع، حرما لواحد من تلك السلالة المرعبة.. لقد تغاضى هو (آدم نظر) عن حموضة اللهاث، وقصدير الجفون، وأشياء أخرى كانت ترافق ولد الحُور لأنه أحبه كذلك، وصادقه كذلك، ونضج تحت رعايته الغريبة، لكن الرزينة لن تتغاضى.. ابق يا جبروتي.. لقد بقيت.. عطر النضارة..

لهـا.. للرزينـة.. لعبـة الاسـتقصاء العنيـدة كل يـوم.. إذن كان وراء ولد الحُور مـا وراءه.. خطا إلى قربة الماء المعلقة في الحائط، شـربها كلَّها، وإلى عصيدة التمر المصنفة حلوى للضيوف، أكلها كلها، اختفى ساعتين داخل البيت وعاد ليواجه ولد الحُور:

أنا أوافق لكن لابد أن تقبل الرزينة.

وهل ستقبل؟

لا أعتقد ذلك.

اضغط عليها يا أدوم.. اضغط عليها من أجلي..

لا أستطيع.

أربعـة أيـام مضـت بعـد ذلك ثـم خرجـت (الرزينـة) مـن الداخل المخفـي لتواجه خطيـب الهلع بغتة.كانـت متأنقة بثـوب أزرق من حرير القوافـل الجديـدة الذي بدأ يستشـري في (جوا جـوا) بألوانـه المتعددة، وملمسه الطري، وذلك الإحساس المرهف الذي يمنحه، شعرها مخنوق بالعقيق السلطاني، جلدها مشع ونظيف، ومن عنقها وأذنيها تتدلى سبائك من الذهب من نقش (عامير) اليهودي صائغ حريم القصر.لم تكن غاضبة أبداً، وبدت امرأة ناضجة، ربما أنضج كثيراً من عمرها العشريني..

- حسنا يا جبروتي هل تريد الزواج مني؟

نعم.

قالهـا بتلعثم ومسـكنة في الحبـال الصوتيـة، وإذلال لا يشـبه تلك الغطرسـة التي حاول أن يلغي بها فوارق الصبغـة من قبل.. كان ممتحَناً، وعلى وشـك السـقوط من شـجرة ضخمة للهجليـج.. تسـلقها دون أي خيار.. أحس بعيني الرزينة وأحس بتنفسها واتكأ على ركيزة في منتصف الغرفة..

- إذن اعطني مهلة للتفكير.

- ومتى تردين؟

- عندما انتهي من التفكير.

خرجت من الغرفة في اتجاه الداخل المخفي ساحبة نظرات على حواف الغيبوبة كانت تخرج من عيني القصدير مرهقة.. كان آدم موجوداً، وأخبرته حركة في حواجب أخته كان يعرفها منذ الصغر، أن الرزينة قد قضت على صديقه.. طلبت مهلة للتفكير وكان يعرف أن تفكيرها ربما استغرق العمر كله.. لأنها ببساطة لن تفكر أبداً.. ستتزين بالعقيق والذهب دائماً، وستحمل الفوانيس الملونة في مناسبات (أنسابة) الوطنية، ستغني وترقص، وتتبادل الحكي والنكات في بيوت حي الرديم، وربما ذهبت لتقتني عطورا مختلفة من أي متجر آخر غير متجر (يسر ولا تعسر)، أو ربما تزوجت في النهاية من لص أو ثعلب أو عتال في سوق الفخاريات، لكنها لن تفكر في أمر جبروتي ولد الحُور أبداً.. وضع يده على كتف صديقه، أخرجه من البيت في محاولة لنهب هواجسه، وفوجئ بأن الصديق ابتهج فجأة، ابتدأ يصفر بلحن ما.. كانت مهلة التفكير في رأيه خيطاً أبيض جديرا باتباعه حتى ولو طال.

-4-

أريد أن أصبح أباً شيخاً.. أرروك.. أريد أن أصبح أباً شيخاً.. أرروك...
أريد أن أصبح أباً شيخاً..

لم يكن هرجا في مجلس (الكوراك) السلطاني، ولا جاء من رعونة مراهقة، أو طيش شبابي، أو تنفس بأكسجين ضحل.كانت مسافة واسعة من التخلي عن كل حلم آخر والتزود من حلم الجليل المهاب على فرسه الرمادية المخططة، وبين أيدي عبيده الخارقين، ثم بحذاء جلد النمر المغاربي وتحت مظلة الدهشة والهتاف وفوحان المسك، يخطو إلى القصر في تلك الجمعة البعيدة، وتلك الجمع المتعددة التي أعقبت ذلك.. الجليل المهاب في موكب ذكرى الجلوس، والجليل المهاب الذي يقيم في القلب.. المشهد الذي يلصق بكساء الذهن.. بجلد الذهن.. بمصارينه، المشهد الذي أعيدت كتابته عشرات المرات ليخرج من حي (الرديم)المرهق، إلى ذلك الشموخ البعيد.. الأب الشيخ (آدم نظر).. أرروك.. أرروك...

كانت ثمة خطوات لابد من مشيها، تذكارات لابد من التقاطها، وآلام لأضراس العقل لابد من تذوقها.. ذلك النهار الصيفي اللزج، بشمسه وحره، واحتمال غيبوبته، سار عشرات الكيلومترات حتى وصل إلى بيت قارئة الكف وضاربة الرمل (درة).. والتي كانت درة المنجمات وقارئات الكف في (جوا جوا) وأعلاهن أجرا، هي التي كانت تقرأ كف (حنفي الساحوري) تاجر القوافل الكبير، كلما وضع قرشا في صفقة أو ألقى بقافلة محملة بالسلع في سوق (جوا جوا)، تقرأ كف (دوباجي) كبير ممارس الطب في (أنسابة)، كلما لمح نظرة عتاب في عيني السلطان بعد

استخدام فاشل لإكسير النشاط الفوار، وكف (تمائم) المغنية الذي مدته مئات المرات حتى وصلت إلى مجلس الجدات الفخم في استثناء لم يحدث قبل ذلك في (أنسابة).. وكان يمكن أن تقرأ كف السلطان نفسه لولا أنها خافت بطش ذلك الكف.

وجدها أمام بيتها النظيف في حي (خلوة) العالي المستوى قريباً من بيوت أمراء (أنسابة)، وقادة جندها. كان وجهها عجوزاً لكنه مرتَّب، وجلدها يابسا لكنه يلمع في الشمس، ومن عينيها يشع بريق الخطر الرهيب.كانت ترتدي قميصا من الكستور الأبيض، وكانت تنتظره، وأسمعته سيرته منذ أن ولد وحتى بدأ يحلم، وأمسكت بيده القوية التي بدأ ينال منها الخوف:

ستكبر يا آدم.. تكبر بشدة، وسط خلق لهم عيون كثيرة، وأياد كثيرة وأفراح وأتراح.. لكن.. آخ.. مال ظهرك قد انحنى ولامس الأرض.. وشيء مبارك قد سقط منك.. وبصقت المرأة الكبيرة على وجهك.. آخ..

ثم صمتت.. جففت عرقاً مالحاً انساب غزيراً، بكم ثوبها، وامتدت يدها إليه تسأل عن الأجر..

- زيديني يا درة.؟ زيديني أرجوك..

صرخ الحالم.. قام وقعد، وأمسك برقبتها، لكن القارئة كانت قد انتهت.. عيناها ثابتتان في عينيه، ويدها تمتد لم تتراجع أبداً.

(رسول الأفغاني) كان منجما آخر، قارئ فنجان وكف استوردته قوافل السفر لا يدري أحد من أين، لكنها استوردته.. كان طويلاً، ويابساً، وله عمامة ضخمة من دمور مخيف.. وكانت عيناه كأنهما عينا صقر قال: أنا أفغاني من (تورا بورا)، ودق خيمة من قماش أسود كانت ترافقه في أرض (جوا جوا) وفي تعطشها لاجتلاب المستقبل.كانت تنبؤاته بشأن الحرب والمطر، وزواج الفتيات، والربح والخسارة، تلاك بغزارة

في نهارات (جوا جوا) ولياليها، ويقسم الكثيرون أنها صدقت بالفعل.. كانوا يصرخون..

تنبأ بغزو الجراد لمزرعتي وحدث بالفعل..

تنبأ بمرض أمي بحمى القصب ومرضت.

تنبأ بزواجي من تاجر، وتزوجت تاجراً.

تنبأ بحصول (كركب) على عقد الذهب الذي ترتديه.

ويهمسون:

تنبأ بطلاق السلطان من إحدى زوجاته.

تنبأ بالعجز الذي أصاب الحكيم دوباجي.

وفي اللحظة التي أوشك فيها السلطان (رغد الرشيد) على اصطفائه وضمه إلى عقد منجميه المخضرمين أمثال (التيجاني) و(وقّة) و(ولد رقاق)، تنبأ بتحرشات كردمالية مكثفة على الحدود، يستخدم فيها العدو سلاحا جديداً، ويموت فيها جنود (أنسابة) كلهم.لكن تلك التحرشات لم تحدث، ولا ظهرت آثار أسلحة جديدة على الحدود، وكانت بالعكس من ذلك هدنة مفرحة بين العدوين، زار فيها الأب الشيخ (الكردمالي)، (جوا جوا).. حاملا رسالة تفاهم من سلطان كردمال، وشاهده أبناء شعب (أنسابة) يضحك في موكبه الذي طاف بالعاصمة. فألغى السلطان مرسوم تعيينه وهو موقع، واعتبره واحداً من صعاليك السفر غير الجديرين بقراءة فناجين السلاطين.وجده (آدم نظر) جالساً عند باب بيته، كان كبيراً وخامداً، قهوته مرة الطعم، وعيناه اللتان تقرآن.. كانتا ترتعشان بين حين وآخر:

أرى شاباً يكبر.. وامرأة تحب.. وشيئاً رائعا يسقط.. شيئاً رائعا يسقط.. ولكن ما لي أرى هذا الظهر ينحني..

لم تكن ثمة إضافة أخرى ولكن اليد الممتلئة بالعروق والرعشة، تمتد سائلة عن الأجر.ومن (رسول الأفغاني) إلى (عائشة المصلاتية)..

إلى آخرين كانت مسافة الحلم تزدهر ومرعد الصياح يقترب أكثر..

كان جبروتـي ولد الحُور مقيماً في كل تلـك الطقوس ومباركا لها، ومرافقـا ل(آدم نظـر) فـي كل تحركاتـه، ومخترعـاً لعطور متعـددة كلها تطوير لعطر السـطوة، تلك السـطوة التي كان يحلم بها صهر المسـتقبل. كان الآن مقيماً في جحر من جحور حي (الرديم) المسكين، ليس لصيقا بمنبـع العطر كما كان سـابقاً، ولكن قريباً جداً بحيـث لا تخطئه لفتة من التفاتات (الرزينة) ولا رمشـة من أهـداب عينيهـا.. وكان مدثرا ب(مهلة التفكيـر) بالكامل.. قميصه من خطوط مهلة التفكير، سـرواله من نسـيج مهلة التفكير، وحذاءه من جلد أملس من جلود مهلة التفكير، وكان حين ينعـس للنوم، ينعس بمهدئـات مهلة التفكير، وحين يصحـو في الصباح، يهب بمنشـطات نفـس المهلة.. وفـي واحدة مـن تلك الليالـي الاكتئابية الممتدة، أقام له أبناء السلالة حفلين متناقضين.. وذلك كبروفة لابد منها لحيـن انتهاء مهلة التفكيـر كان الحفل الأول ضاجّـاً.. رقص فيه أولاد الحُـور، وغنوا، وشـربوا المرطبـات وعـرق (الهجليـج)، وأدخلوا لأول مـرة إلى بيـوت اكتئابهـم، راقصة فقيـرة، كانوا ينقطـون لها بثمـار الدوم وهـم يصيحـون.. يا عريـس مبروك.. يـا عريـس مبـروك.. وكان الحفل الثاني تافهـاً للغاية. بكوا فيه بالدموع القصديريـة، تبادلوا التعازي، والبن المر، وتبغ (الـدردار) المقيـئ، وعلقوا جبروتي بحبل في سـقف إحدى الغـرف في انتحار صوري انتهـى بعد عدة دقائق.وتأكيـدا لكل التوقعات فـي حـي الرديـم وغيـره، وبعيـداً عـن مهلـة التفكير تلـك، نشـأ للرزينة عالمهـا الداخلي الخـاص.. وعيِّنت طاهرة من طاهرات (أنسـابة) اللائي كن يقمـن بوظائف متعددة كان أهمهـا إطفاء الحرائق الشـيطانية التي لم تكن تنطفـئ إلا بمعانقة ثياب الطاهرات.. أيضاً كن يشـتغلن في تدريس بنـات القصر الصغيـرات منهجا هاما عـن علم الجمال وعلم الغطرسـة. وكانـت علاقتها ب(السـحابة) جدة السـلطان الآن مزدهـرة.. تطلبها إلى

القصر بين حين وآخر، وتجدد نظافة جلدها أو تمدها بنقشات اليهودي (عامير) الجديدة، وكان أن اهتزت بشدة حين أخبرتها (السحابة) في أحد الأيام، أن مهرجان الجلوس القادم للسلطان (رغد الرشيد) سيكون تحت إشرافها هي دون طاهرات (أنسابة) الأخريات.. هي القائدة.. هي المتأنقة جداً، وهي منظمة المسيرة. صرخت.. لماذا أنا؟، وعادت إلى بيتها لتغني، وتنشئ مساءً ملوناً وصاخباً، وغير ملتفت إلى مهلة التفكير الرهيبة التي يقيم بداخلها (جبروتي) ولد الحُور.

كان المهاجر (عبد الرب) في تلك الأثناء، قد سمع بأحلام تلميذه القديم (آدم نظر)، سمع بها من تلاميذ أمينين وفتّانين كانوا ما يزالون يواظبون على دروس مدرسته ويمارسون الشم واللمس والتنصت في أوقات الفراغ.كان مقرَّباً سابقاً للسلطان، وسائراً سابقاً في عدة من دهاليز القصور المعتمة، وسامعاً حاد السمع للشائعات وغيرها، وشيخاً، ونحوياً، ووالداً للصبيان مهما تشتتوا.. كان دخوله إلى حي (الرديم) في ذلك اليوم مفاجئاً، ووقوفه أمام تلميذه القديم.. مفاجئاً أيضاً وذلك الصوت الذي خرج منه، هو الصوت التربوي الذي كان لابد أن يخرج. عند مهاجر كعبد الرب لم تكن ثمة مجالات للأحلام التي لن تتحقق، وما هاجر إلا عن دراية ولأنه قد يؤسس أجيالا جديدة ينتفع الناس بعلمها:

- عد إلى المدرسة يا (آدم نظر).. واقلع عن هذا العبط.
- ليس عبطا يا شيخ.
- بل عبط.. هل تظن أنك ستصبح أباً شيخاً لمجرد أن (يوسف كرا) أعجبك؟ المسألة أكبر من ذلك بكثير أيها الصبي.

- إذن في المرة القادمة.. احلم بالسلطان رغد نفسه.. واحلم ب(لاليا البرناوي) ولا بأس أن تحلم بالسلطانة (مسك النساء) أيضاً.

قالها المهاجر وانصرف متوعكاً، تاركاً تلميذه في لحظة العناد المسرفة.. أنا الأب الشيخ القادم.. الأب الشيخ (آدم نظر).. .لن يلغي حلمه أحد حتى لو كان مهاجراً صبوراً محا أمية أخلاقه ذات يوم، وحين يركب تلك الفرس الرمادية، يهبط على أيدي العبيد الخارقين، ويخطو إلى مجلس (الكوراك) بحذاء جلد النمر المغاربي، سيعرف المهاجر وتعرف (أنسابة) كلها أن (آدم نظر) حبايب لم يكن يحلم، ولكن كان يرصف مستقبله بجهد.

ذلك المساء ذهب إلى (جبروتي) في جحره.. وجده مستيقظاً يتعلم شيئاً من التدبير المنزلي وذلك لإحساسه بقرب انتهاء (مهلة التفكير) التي وضعته فيها الرزينة، وإنه قد يجد نفسه يوماً فجأة أمام زوجة دلُوعة وكسولة تطلب منه كوبا من الشاي، أو غسيل الأطباق أو حتى أن يضفر لها شعرها. استقبل صديقه في فتور، وكاد أن يسأله عن أخبار مهلة التفكير، لكن الصديق كان في عالمه.. تعشيا معاً، واكتأبا معاً.. وانصرف (آدم نظر) تاركا الصديق الذي عاد إلى تضفير حباله المعلقة على الحائط وخنقها بالخرز.

تجمع لدى الحالم أكثر من عشرين تقرير منْ قراء كف وفنجان وضاربي رمل وودع، تحدث أغلبها عن الظهر المحني حتى الأرض، والمرأة التي تبصق وتهرس، والشاب الذي يكبر ويكبر.. لم يقل أحد شيئاً عن الفرس الرمادية، أو الجبة الخضراء والعمامة الضبابية، وقال (نقستا الفلاشي) الذي كان ينحدر في الأصل من يهود الحبشة، وعرف بتفاهة التنبؤات وأنه ما قرأ نبوءة صحيحة في حياته إلا مرة واحدة، حين نظر إلى إحدى القوافل التي كانت تستعد للسفر إلى الحجاز وقال.. هذه القافلة ستتوه.. قال الفلاشي وهو يرتعش.. حظك رائع.. رائع جداً يا صبي.ولم تكن تلك (الرائع) مفصلة أو ذات معنى محدد.. ولكن سيمضي.. رائع أم محني الظهر أم مبصوقاً على وجهه.. لن يتراجع:

أريد أن أصبح أباً شيخاً.. أرروك.. أريد أن أصبح أباً شيخاً.. مولاي السلطان، نصّبني أباً شيخاً.. أرروك.

كانت الجمعة الكبيرة في (أنسابة) أو (جمعة القدر) كما كانوا يلقبونها منذ أن عرفت، والتي كانت تأتي مرة واحدة في العام بحسابات لا يعرفها أحد، ولكن يخمنها المنجمون وتشمها الأنوف.. ويتجمع الناس بناء على ذلك التخمين والشم، والذي كان يصدق حيناً، ويخيب في معظم الأحيان. كانت جمعة ظليلة، يمتد مجلس (كوراكها) من بعد العصر حتى منتصف الليل، يحضرها الوجهاء كلهم، وملوك الأرياف كلهم، وقادة الجيوش كلهم، ويبدو مزاج السلطان فيها رائقا بحيث يمكن أن تمر الحاجات إلى أذنه، وتجاب دون تعقيد، وكانت كثير من الكماليات تعرض في تلك الجمعة بعد التأكد من أنها الظليلة أو (جمعة القدر) وذلك كطلب بيت أو منصب أو حقل مزروع أو التوسط لخطبة فتاة متمردة وقيل أنها الجمعة التي أهديت فيها لحلحلوك المجنون تلك الجارية الضامرة، والجمعة التي صيرت (صبابي) كبيراً للتجار في (أنسابة)، والجمعة التي رسم زحامها اليوناني (برداس) في لوحة رهيبة لم تحدث من قبل، وعلقت في أرقى متاحف العالم.. ذلك حين مر بالبلاد في سنة من السنوات.

لم يكن (آدم نظر) يعرف أنها الجمعة الظليلة حين وصل برفقة جبروتي إلى تجمع الصائحين.. كان الزحام فذّاً، والكتوف تتصارع، وأشجار (الهجليج) ضيقة الظل، وأزيار الفخار الموزعة في المكان، والتي لا ينضب ماؤها أبداً، الآن ناضبة.. وحلحلوك المجنون واقفاً وقفته القديمة ونافخا لجنونه القديم ومتحدثا عن تسعة عذراوات من بنات (أنسابة) العريقات، يتصارعن على قلبه ويمزقن ثيابهن، لكن أحداً لا يستمع. وكانت ثمة قائمة كبيرة صفراء تتدلى من يد الحاجب وتحوى أسماء الصائحين لذلك اليوم والذين لا يعرف عددهم أحد. أسرع (آدم

نظر) بتسجيل اسمه في تلك اللائحة الصفراء، وعاد إلى الظل مستغربا ليسأل جبروتي..

ما هذا الزحام كله؟

إنها الجمعة الكبيرة كما أظن.. قال جبروتي.

من قال ذلك.

الجميع.. إنهم يشمون ذلك.

ابتسم الحالم بأسنان الشباب البيضاء الخالية من جير العمر، ومضاعفات تبغ (الدردار) المقيئ.. الحظ يبدو معه.. يسنده، وما دامت الجمعة الكبيرة فلن يخرج منها بلا شيء.

كانت مفاجأة ل(آدم نظر) وصاحبه حين لمحا شخصاً يعرفانه.. يزحف باتجاه نقطة الغليان، إنه الجد (سند حسيب) أحد أعمدة التنجر، والذي كان موجوداً في عزاء صانع الطبول عريساً مفترضاً لأمه، وعاد إلى بلاده غاضباً.. نعم لقد كان الجد سند.. بنفس هيكله القديم، وظهره المقوس باتجاهات عدة، وعمامة السلطان (نفر المقدم) التي تغطي رأسه.. اقتربا منه بحذر وسمعاه يردد.. لن أعود إلى بيتي دون عمامة جديدة.

وصل الجليل المهاب في موعده الذي توقعته لهفة الحالم تماماً، فرسه هذه المرة قصر بلون البن، جبته حمراء مزركشة بأخضر لماع، عمامته سوداء ليست من حرير القوافل المتداول، ولكن من حرير آخر لم يشاهده (آدم نظر) من قبل.. هبط هبوط الرشاقة على أيدي العبيد الخارقين، ومشي مشية النمر المغاربي إلى داخل القصر.وقف المتصايحون كلهم، وهتف الهتافون كلهم، وزغردت النساء كلهن، وصرخ الحاجب بالصوت المنبعث من أقصى غياهب الحلق، وكاد (آدم نظر) أن يهرس يد ولد الحُور الذي كان يرافق أحلامه.وبرغم ذلك الزحام، وتلك السرعة الكبيرة التي كان يتحرك بها الجليل المهاب إلا أن

(آدم نظر) استطاع أن يلتقط له الرسم العاشر ويضيفه إلى تلك الرسوم المختزنة في ذهنه والتي التقطها من تردده على مجالس (الكوراك).. ذلك الوجه الأملس بلا شارب، العيون الكبيرة الصافية كأنها سماوات.. الأنف الملوكي المنتصب، الحواجب المستديرة، ورائحة مسك السلاطين التي نزَّت من جلده وهو يعبر.. يقولون إن (يوسف كرا) من أصل فقير، ولد في حي شبيه بالرديم ونشأ نشأة أشبه بنشأة سكانه، لكنه اختفى عن الفقر أعواماً طويلةً، لا يعرف أحد أين انقضت وكيف، وظهر في سماء السلطنة جليلاً مهاباً، وأباً شيخاً، ووزيراً كبيراً للسلطان (رغد الرشيد) يستشيره في كل شيء. وفي تتبعه لسيرته الذي حاول أن يجعله تتبعاً هامساً بقدر المستطاع، سمع الحالم بأن قدوته بلا امرأة، ولا عيال، وسمع أشياء أخرى أراد لها ألا تستقر في ذهنه أبداً.. لن يطفئوا حلمه بنزيف السخافات، ولن يهبطوا بإعجابه للجليل المهاب أبداً.. تحسس عمامته شبه الضبابية التي اقتناها بعد غربلة مضنية لسوق (جوا جوا).. ومهبط القوافل الجديدة.. إنها البداية.. إنها البداية.

السلطان في مجلسه ويتلقى الصياح.

كان أول الصائحين واحد من أهل (كردمال) العدوة، وكان قد تسرب إلى (أنسابة) فرارا في إحدى الليالي. لم يكن ملِكاً، ولا زعيماً، ولا واحداً من قادة الجيش الكردمالي، ولكن ناقلاً عاديّاً للبريد قال أن مشكلته ابتدأت حين عينه أحد أمراء (كردمال) ناقلاً خاصّاً لبريد الحب الذي يخصه.. وكانت جولات مجنونة في أحاسيس الغيد والعذراوات لجمع الرسائل التي كانت تزيد الأمير جوعاً.وتفتح مصارين اشتهائه أكثر.. كان الكردمالي ببساطة يطلب حق اللجوء إلى (أنسابة).مشى صياحه في السلسلة السباعية كالمعتاد، وعاد ردّاً فخماً مرصَّعاً بالجواهر، فقد أمر السلطان (رغد) بإيوائه، وتزويجه ومنحه وسام (السلوان) الرفيع المستوى، وتعيينه ناقلاً للبريد السلطاني الخاص.

صرخ (حلحلوك) المجنون:

أريد جارية داكنة السواد بلا حلمتي ثدي، وبيتاً من أربعمائة حجرة ليس في الأرض، وعربة من فضة تجرها خيول سوداء وخضراء ورمادية.

وسقط صياحه الشيخ عند ذيل السلسلة لم يتعدّه.

وجاء (شونة المنقاري) الذي كان ملِكاً لمنطقة (أم كراميس) البعيدة، وأقيل من منصبه حديثاً وذلك لتغاضيه عن ثلاثة من صيادي منطقته، اقتنصوا ثعلباً برياً سموه (رغد) وطافوا به في الطرق مربوطاً بحبل وهم يتصارخون.. كان المنقاري متشنجاً، وجاء يحمل أدلة قاطعة بأن الثعلب الذي اصطيد كان اسمه (رغت) لكن الوشاة هم الذين حرفوه.. ووصلوا بذلك التحريف إلى أذني السلطان.

وكان الرد السلطاني.. عشرين جلدة إضافية للمنقاري، لأن (رغت الرشيدة بنت نفر المقدم) كانت أختاً مخبأةً للسلطان لم يعلن عنها إلا في ذلك اليوم.

أيضاً جاء (نقولا) النصراني الذي كان تاجراً للأخشاب في سوق الفخاريات، وواحداً من عشرة نصارى ظلوا باقين في (جوا جوا)، بعد تلك الهجرات المكثفة التي قام بها أبناء جنسهم، فراراً من شائعة سرت وتضخمت، وكانت تقول إن جماعة من السلفيين ذوي اللحى والأثواب القصيرة، يستعدون لتنظيف البلاد، والقضاء على أي نصراني يعيش فيها. فروا بلا زاد ولا رؤوس أموال، وهرّب نقولا عائلته إلى صعيد مصر. لكن الشائعة انطفأت وضحك مطلقوها.. وكان النصراني مكتئباً:

- مولاي السلطان.. اقضوا على الشائعات.. مولاي السلطان خسرت تجارتنا.. عائلاتنا لن تعود.. اقضوا على الشائعات.. أرروك.. أرروك.

خرجت (تمائم) المغنية.. خرجت لتصيح صياحها المنغم، معززة

مكانتها كمساعدة للسحابة جدة السلطان في مجلس الجدات.. لم تكن هي نفسها تمائم القديمة، ولا المستحدثة، ولكن (تمائم) أخرى بزي آخر، وصوت آخر، ومديح غلبت عليه صوفية الجدة في آخر العمر:

السلطان خيره برّه.

سيد الحب والمسرّة.

في موكب زيناته مرّة.

خلى التوهان استقره.

السلطان يا وليدي.

ولد أولادي وحفيدي.

بالأقراط حلى جيدي.

وبغويشات زيّن إيدي.

وكانت هديتها غوايش ليست لتزيين اليدين فقط، ولكن لتزيين المفاصل كلها.

انحدرت الشمس إلى مغيب صاخب.. بدأ الإرهاق والتعب، وبدأ تصلب المفاصل، لكن قائمة الصائحين لم تتقلص، كانت تزداد طولاً، وأنوف الشم تأتي بالكثيرين الذين أرادوا عطايا القدر في (جمعة القدر).. لم يكن من المستبعد أن يسقط أحد أو يموت أحد، أو تلعب شياطين البذاءة في جسد أحد..

آدم نظر حبايب.. ابن المرحوم راعي الأغنام نظر حبايب.. آدم نظر حبايب ابن المرحوم راعي الأغنام نظر حبايب.

ابن المرحوم صانع الطبول يا إبراهيم.. ابن المرحوم صانع الطبول يا إبراهيم..

كان الحاجب ما زال جاراً لأسرة صانع الطبول.. شارك في دفن نظر حبايب، وفي عزائه وأكل عصائد الدخن والحميض التي صنعت في

ذلك العـزاء، ووصف طبلا من طبوله كان يصـدر أزيزا حين يلمس، بأنه معجزة، وحين أعـاد آدم افتتاح محل والده، جـاءه الحاجب عدة مرات، كان يفكـر في إنشـاء فرقة للاحتفـالات، وبـرك يتفحص الطبـول كلها.. ابن المرحوم راعـي الأغنام.. لا يهم.. والعبيـط.. لا يهـم.. وصديق ولد الحُور، والحالم.. لا يهم.. اسـتلم مكانه أمام ذيل السلسـلة، تفقد الذيل برهة من رأسـه إلى رجليه، وجده صبيّاً لم يتعد الرابعة عشـرة من عمره، نحيفـاً وفي وجهه جرح، وخمن أنه لابد ابن أخت تافه للسـلطان جاء به إلى ذلك المنصب الرفيع..

أريد أن أصبح أباً شيخاً.. أرروك.

كانـوا يصيحون في شـتى متاريـس الحيـاة، قالوا عـن بيوتهم، عن بيـوت جيرانهم، وعن شـهواتهم، وطالبوا بتغيير زعيم أو محاسـبة ملك، سـألوا عن الحج.. عن الطواف.. سـألوا عن العمرة، عن الكساء والخبز والنظرة العطوفة، وقدموا عذراوات كالمصابيح هدايا لولاتهم السلاطين.. مدحوا ومدحوا، وتشنجوا وتشنجوا، لكن أحداً لم يصح مطالباً بمنصب الأب الشـيخ أبداً.. لا في عهد (رغد الرشـيد) ولا نفر المقدم، ولا حتى فـي عهد (يوسـف ضو) مؤسـس سـلطنة (أنسـابة).. لم يكونـوا يعرفون حتى كيف يشـغل ذلك المنصب، ولا فكر أحد في لحظات الانبهار التي تواكب هبوط الجليل المهاب عن فرسـه على أيدي العبيد الخارقين، أن يمتص أو يحلم أو يسـتعيد أو يستشـير منجِّماً وقارئاً للكف.ترك الجميع حلوقهـم متورمة، وحاجاتهم راكدة في القلـوب، وتزاحموا حول الصبي ابن الثامنة عشـرة الذي قد يكون ميِّتاً قبل أن يقوم السـلطان من مجلسه. كان جبروتـي ولـد الحُور، وبرغـم مرافقَتـه للصبي الحالـم ودعمه حتى لحظـة مخاض الحلق، إلا أنه تفاجأ كالآخريـن.. بحث عن مهلة التفكير التي أضاعها تشـته، وحين عثر عليها.. امتص منهـا عدة جرعات أعادته للتماسـك.لم تكن خمس دقائق معتدلات، ولا عشر أقرب إلى الاعتدال

ولا حتى عشرين دقيقة مكسوة بالقلق، ولكن ساعة كاملة في واحد من أهم التوترات التي أصابت أهل (أنسابة) طوال تاريخهم الطويل.. سُمِع صوت طبل نحاسي يضرب، صوت نسوة نائحات، صوت حرب وخيول، وصوت باب من خشب الزان يفتح ويغلق.. سقطت عمامة، وانخلع شارب، وتفرقت رزمة من عناقيد الخرز كأن جبروتي بكى، وكأن ذيل السلسلة دلق على نفسه، وكأن ستة من زملاء مدرسة (عبد الرب) القدامى قدموا تعزية ما لشخص ما.. ثم ذيل السلسلة يصرخ.

يرفع مجلس (الكوراك) لهذه الجمعة.. أمر مولانا السلطان.. يرفع مجلس (الكوراك) لهذه الجمعة.. الجميع ينصرفون.. الجميع ينصرفون.

تفرقوا ببطء وبلا مروءة، وتحسر الذين شموا الجمعة الكبيرة وجاءوا على هدى حواس شمهم، على حظهم البذيء حين أعاقهم ابن صانع للطبول أراد كرسي الوزارة.. لم تكن ضغينة كبيرة تلك التي أضمروها لآدم نظر، ولا حتى ضغينة صغيرة، فقط تحسر وتحسر على بذاءة حظ.. وجد الحالم مئات منهم يسألونه.. مئات يتحسسون رأسه، ومئات يسألون جبروتي عن وصف بيت صديقه حتى إذا أرادوا تقديم واجب ما.. عرفوه.سار برفقة ولد الحُور وقد أحس بالنشوة تمسك بمزاجه، حتى لو طاشت الرمية، وخضع حلمه المجنون للنسف وهو ما سيحدث، فإن الناس في (أنسابة)، لن ينسوا أبداً ولداً لصانع طبول فقير رفع مجلس (الكوراك) السلطاني قبل موعده. وصلا إلى البيت حيث كانت الرزينة مزينة، وأمها قلقة، وأهل الجوار الذين كانوا هناك، والذين لم يكونوا، كلهم في فزع ينتظرون.نظر إليهم الحالم بتكبر، خاطبهم بتكبر واستغرب من كل ذلك الفزع الذي كانوا يرسمونه.. لقد صاح وانتهى.. ولم تكن ثمة ثمار قد قطفت.. لا خير ولا شر.

أسبوع مضى، عقدت جمعة ((الكوراك)) في روتينها.. أظل هجليج

الشـوارع كما كان دائماً يظل، سقت أزيار الفخار كما كانت تسقي دائماً، جـاء الناس بالحلوق المنتفخة، جاءوا من (جـوا جوا) وغير (جوا جوا)، جـاء (حلحلوك) المجنـون، وجـاءت صياحاته الشـيخة، وهبـط الجليل المهاب عن فرسـه الرمادي على أيدي عبيده الخارقين، وجاء (آدم نظر) وجبروتـي أيضاً، كانت نشـوة الحالم ما تزال متقدة، ورعشـة الصديق ما تـزال متقدة أيضـاً، وكان ثمة همـس، وحسـد، وعيون كثيـرة تتبع الحالم في وقفة النشـوة تلك.. السلطان في مجلسه.. السـلطان يتلقى الصياح.. فلان بـن فلان. فلانة بنت فـلان.. أريد مولاي.. أريـد مولاي.. زوجي مولاي.. ملك القبيلة ظلمني.. يرفع المجلس.. ينصرف الجميع.

وفي عصر السـبت تماماً.. وحين اختتمت القيلولة، وانزوى الحر، وبدا أهـل الطريق في طريقهـم، وأهل البيوت في بيوتهـم، والأطفال في تخبط طفولتهم، وصلت كتيبة (الرعاع) القوية، والمكلفة بمهام سـلطانية جليلـة إلى (حـي الرديم).. كانوا علـى خيول، وعلى نوق وكانوا مشـاة، كانـوا يصرخون، وكانـوا يهمسـون، وكانـوا موغلين في الصمـت، كانوا شـرهين للعـداوة، وكانوا أصدقـاء بلا ضغينـة.وكان على رأسـهم الأمير (مساعد).. مؤسسهم، ومروضـهم.دخلوا حي (الرديم) المسكين دون أن ينهروا أحداً أو يقهروا أحـداً، أو حتى أن يرفعوا عينا إلى وجه أحد.مروا بأبواب كثيرة، ونوافذ كثيرة، ومروا ببـاب صانع الطبول دون أن يطرقوه، أو يقتلعوا مصراعه، ودون أن يسـألوا (جبروتي) القريب من منبع عطره، والمدثر بمهلة التفكير، والذي هب من جحره فزعا على أصوات خيلهم ونوقهـم وحناجرهـم.. وحين تجرأ واحد مـن فقراء الحـي، واقترب من الأمير مساعد سـائلا عن سبب ذلك التشـريف، وعارضا خدماته إذا لزم الأمـر، رماه الأمير بنظرة الصقور المهووسـة التي اشـتهر بها، ولكز على بطن دابته التي لم تكن حصانا ولا ناقة ولا حماراً، ولكن واحداً من أفراد ذات الكتيبـة.. خرجوا مسـوَّرين بالشـك، ومطرَّزين بالنظـرات، وتاركين

علامات استفهام الدنيا كلها وعلامات تعجب الدنيا كلها، تتراكض في حي الرديم.. تدخل هنا وتخرج من هناك..

لو أرادوا (آدم نظر) لأخذوه..

لو أرادوا ولد الحُور لأخذوه..

لو كانوا خاطبين للرزينة لخطبوها..

لو كانوا معزين في (نظر حبايب) بعد ثلاث سنوات من موته، لعزوا..

لو أرادوا مفتوقاً أو أعور أو أطرش أو صاحب لسان ركيك لبعثة الحج السلطانية، لعثروا على المئات.. لو كانوا كذا لكذا.. وكان في الحي خصي اسمه (نجّام) سكن حديثاً وقبل أشهر معدودة.. كان من قبيلة (البيقو) عديمة الجدوى، وعمل في ما مضى خادماً في قصر (المسك)، ثم طاهيا لحساء الطيور الجارحة عند الأمير مساعد في مستنقع الرعاع. إلا أن الأمير أبعده فجأة ولسبب غير معروف.. قال (نجّام) وهو يرفع ثوبه إلى مستوى سرته، ويلقي برقبته إلى اليسار في تلك الحركة (الخصيانية) المعروفة ساعة الانفعال.. - - مولاي الأمير يحب حساء الطيور الجارحة الذي كنت أعده له.. لعله جاء لاستعادتي للخدمة بعد أن شعر بالفرق.

وكانت (النسيم) المرأة العجوز، وأم الرديم كما كانوا يلقبونها، هي التي رمت بالحكمة.. لا من أفواه المجانين ولكن من فم أشد حنكة.. رسمت بعكازها على الأرض دوائر ومربعات وخطوط متعرجة، وقالت..

إنهم يريدون ولد صانع الطبول الذي أفسد مجلس السلطان في جمعته الظليلة.. لكنهم أوقدوا له النار.. ولابد سيأخذونه حين ينضج.

وعلى مدى شهر كامل كانت كتيبة الرعاع نصلاً جارحاً لقيلولة (حي الرديم)، حتى أصبحت جزءا من لحمه وعروق دمه.. أصبح أفرادها كأنهم أبناء الحي نفسهم، خيولها ونوقها وحميرها، كأنها نشأت

في الحي ورعت في قمامته، وثمر (اللالوب) الذي يمصه أفرادها كأنه من شجر الحي العتيق، والأمير مساعد.. كأنه (عيسى الزهوي) بائع مرطبات (القضيم) أو (دريسة) العتال في سوق (جوا جوا).. وفي اليوم الحادي والثلاثين طرقوا على باب (أم الرديم) وسلموا عليها.. أخذوا شاة من الطريق وذبحوها، وضربوا بعصي (الخيزران) حلاقاً للحمير لم يسمع حتى بالأب الشيخ من قبل.وفي اليوم التالي مباشرة، وفي لحظة انتهاك القيلولة الروتيني.. وقبل أن يشتد الصياح أو الصمت، وقبل أن يمشي المشاة، وتحفر الحوافر، وتتناثر نظرات الصقور المهووسة، خرج (آدم نظر) من مخبئه.. كان ناضجاً بشدة وسلمهم يديه.

تجمعت دلائل الحسرة كلها في حي الرديم في ذلك اليوم، لم يستطع جبروتي ولد الحُور أن ينسى، أنهم سرقوا من أمامه صهراً مستقبلياً، وجسداً هاماً لتذوق عطور (السطوة) التي لابد سيتوقف إنتاجها منذ تلك اللحظة.. لم ينس الخصي (نجّام) أنه لن يعود ثانية لطبخ حساء الصقور الجارحة لأمير يتمنى خصيان السلطنة كلهم أن يطبخوا حساءه، وفي غرف الدلال الفقيرة المبتكرة بإحساس سلطانات فقيرات، لم ترفع مقامهن حتى أشرطة العقيق، وأقراط ذهب اليهودي عامير، بكت (الرزينة).. بكت بنفس دموع المساء القديمة التي أعقبت وفاة والدها.. كانت قد سمعت عن كتيبة الرعاع كثيراً.. عن بيوتها التعيسة، وتغذيتها المرّة، وأخلاق مجنديها التي لا تشبه الأخلاق، شاهدت معاقين كانوا من صنعها، ورجالاً خصتهم الشدة في كهوفها الغامضة، ورأت الأمير (مساعد) مراراً، لكن نظرات الصقور المهووسة لم تمسها أبداً.. ولا حتى حامت حول وجهها السحري.. نظرات غير مغرمة بالجمال.. ولا تقدره.. نظرات من حنظل.. كان موقعها في قلب (السحابة) جدة السلطان، الآن موقعاً سلساً.. موقعها في كوكبة الطاهرات المطلوبات في أعمال جليلة، سلساً أيضاً، وموقعها في القصور ذات الحكايات

والغوامض، لم يرسـخ بعـد، ولم تكن تعتقـد أبداً أن أحداً سـيمد عطفه إليها، لا السحابة، ولا المطر، ولا أية مفردات أخرى، ولا حتى السلطان نفسـه، لو اسـتطاعت أن تقف بين يديه.. كانت كتيبة الرعاع غليانا آخر لا يطفئـه أحد.. الحـل الأخير للعقد المتشـابكة، وأقراص نوم السـلطان التي ينام بفعلها حين لا ينعس.

في الشـوارع الملتوية، وتربة المطر، وتلال القمامـة التي يغص بها الحـي الفقيـر، كانت ثمة دلائل أخـرى، هي الصمت.. هـي الركود، هي انشـغال الكبـار بالقيلولـة، وانشـغال الصغار بتوافـه الصغـر وانصراف النسـوة لتضفير شـعر مضفر. والدة آدم حنطوها في تصـور مخترع، نابع من الحلم نفسه.. قالوا.. ثمة أب شيخ سيخرج من حيِّنا، ومن بيتك أنت بالذات.. والآن يتـم إعداده في مكان بعيد.ضحكـت.. ربما.. زغردت.. ربما.. بكـت.. بالتأكيد، لأن غياب الأبناء في المهـام المفرحة.. هو ذاته غيابهم في المهام المفجعة.. غياب قد يطول، وقد لا ينتهي.

(أم الرديـم) المـرأة التي عاشـت في عهـد وعهد، وربمـا تعيش في عهد جديـد، وشـهدت أجزاء كبـرى من سـلطنة (أنسـابة) غابـات حنظل و(هجليج) ورأت كثيراً من أمرائها في ريالات أشداقهم، وسراويل نومهم، وربما مبلولين.. نهضت إلى مياه نقية، غسـلت يديها من سـلام أحست به سلام خناجر، ووجهها من مطالعة أحست بها مطالعة ذئاب.. صلت كثيراً واسـتغفرت كثيـراً، واضطرت إلى اسـتقبال مئـات من أبنـاء حيها، محت فـي أيديهم آثار ذلك السـلام.. قالـوا لجبروتي ولد الحُـور.. أنت أضعت صاحبك بشـدة.. حين اخترعت له عطر السطوة أيام كان بلا حلق يصيح، وبلا سطوة حتى على دجاجة، وقالوا للمهاجر (عبد الرب) الذي جاء بناء على طلب من إحساسه الداخلي تجاه تلميذ تتلمذ على يديه مرة: أنت لم تقيده يا شيخ، ولم تضربه بالعصا كما كان يفعل شيوخ العلم.

وحين لموا الليل شديد السـواد، ناموا به أو سهروا على أرقه، كان

الجميع على يقين بأن صانع الطبول.. ابن صانع الطبول.. لن يظهر في حي الرديم مرة ثانية..

لا يدري أحد كيف سمعت قبيلة التنجر في أصقاعها البعيدة بتلك المسألة التي لم يمض على حدوثها الكثير.. فلا رسالة أرسلت، ولا ريفي متجول في العاصمة سافر، ولا كانت لجبروتي صلة بالريف منذ عشق، والتصق بمنابع عطره في (مهلة التفكير) تلك، لدرجة أن رائحة أمه التي جاء بها وكان يستنشقها من حين لآخر منعا للعقوق أن يتسرب إلى قلبه، كانت قد تبخرت ولم يسع أبداً إلى تجديدها.. وصلت من هناك رسالة مواساة أولى، ورسالة مواساة ثانية، وثالثة وخامسة وأربعين، ووجدت الرزينة نفسها تغطس في مئات من المشاعر.. والدموع، وعبارات الفداء بالدم.. ويا ليتني كنت، ولو أستطيع، وما بعد الشدة إلا الفرج.. وتماسكي تماسكي.. كانت تصدق بعضها وتشم في البعض روائح خادعة.. تحملها إلى (جبروتي) سائلة عن مرسليها.. وسيرهم.. وهوية مشاعرهم كان ولد الحُور يجيبها بتأن، ووقت أطول ويكاد يتجاوز السياق العام للهلع المحيط بالأسرة، ويسأل عن أخبار مهلة التفكير التي كان يعيش بداخلها.وفي أغلب الليالي التي تلت بعد ذلك وبالرغم من نعاساتها القليلة جداً، استطاعت (الرزينة) أن تلتقي بوالدها صانع الطبول الراحل، التقت به مرة في حج ومرة في عمرة، ومرة وسط شقراوات فاتنات في مشفى كبير وبعيد، كن يخرجن من بطنه إبليساً أسود، وغوائش تشبه غوائش اليهودي عامير، واستطاعت أن تسأله ذلك السؤال الذي تبادر إلى ذهنها لأول مرة وهي طفلة لم تتعد العاشرة.. لماذا كان اسمي الرزينة ولم يكن ست الحسن؟ ولماذا آدم اسمه آدم، وليس حمار الوحش؟

-5-

تلك الجمعة حين صب رأس السلسلة صياحات الصبي (آدم نظر) في أذن السلطان (رغد الرشيد)، وبحضور جماعته وأقربائه من أعضاء مجلس (الكوراك)، توقع الحاضرون أن تنفتح شفتا (رغد الرشيد) أولا، تلمع أسنانه البيضاء جنبا إلى جنب مع تلك المؤطرة بالذهب، ثم تخرج قهقهة الإحراج تلك التي خرجت مراراً في مجالس سابقة كان بعض صائحيها سذجا وعبطا وطالبوا بمطبات وحاجات لا يمكن لأي سلطان تلبيتها. إعادة الرجولة لشيخ يحتضر، زراعة غرة الصلاة في جبهة فاجرة، وتحويل ثور عديم الجدوى إلى بقرة حلوب، تسري قهقهة الإحراج تلك عبر سلسلة المقربين السباعية، لتجرح أذني الصبي المتصايح، وتجر شماتة الحاضرين، وينتهي الأمر.لكن ذلك لم يحدث أبداً.. لا شفة مفتوحة ولا ذهب في الأسنان يلمع، ولا إحراج.. استمع السلطان للصياح الغريب بتأن وخبرة، وإحساس عال من يقظة حاكم، يكاد أن يعرف عدد السيوف التي تستل في السر لجز عنقه، وعدد الرماح المجهزة لنغز صدره، وعدد القناني المعبأة سماً لاصطياد أمعائه إضافة إلى تلك الذبحات، والسكتات الدماغية التي قد تقضي عليه واقفاً.. هو عادل.. ربما.. هو ظالم.. ربما.. لكنه في النهاية حاكم الجميع الذي لا يرضى بحكمه الجميع. انحنى إلى الأمام نافخاً شيئاً من حر.. وماسحا قليلاً من عرق، وطلب المزيد من إكسير ضبط النفس الذي كان الحكيم (دوباجي) يحتفظ به كضرورة في مجلس (الكوراك).. وعندما أحس بأن عمامته الضبابية قد ارتخت قليلاً، أعاد بنائها على رأسه.. ردد:

- اقرأ علينا لائحة (الكوراك) يا مساعد.. اقرأ..

لم يهضم الأمير، ولا هضم الحاضرون بمن فيهم الجليل المهاب (يوسف كرا)، سر تلك الهلوسة، وذلك التوتر، واحتقان الجفنين الذي لمحوه مؤطرا في سلوك سلطانهم، وسحنته.. تمردوا على جلسة الاسترخاء قليلاً، وكاد بعضهم أن ينطق أو يضع تمباكا على شفته.. وارتبك الأمير مساعد:

أي بند يا مولاي؟

ذلك المختص بحماية السلطان وكبار رجال دولته.

حسنا.. حسنا..

كان بندا طويلاً وعريضاً، وصارم التقاطيع، لم يولد هكذا في عهد السلطان (يوسف ضو) مؤسس سلطنة (أنسابة) ومبتدع مجلس (كوراكها) لكن سنوات عجافا، وأياما متمردة ومحملة بالخطر، قد قوت من شكيمته وأوصلته إلى عهد السلطان رغد، بهذه التقاطيع.. كان يحرم بذاءة الألسنة، والتشبه بالكبار، واتخاذ الألقاب الرئاسية بتخبط ودون حذر، والصياح في المجالس السلطانية بثياب مرقعة.. وحمل السيوف والخناجر إضافة إلى أشياء أخرى متجهمة لا سبيل لإضحاكها. حتى الجلوس تحت ظل (الهجليج) كانت له نظمه، والشرب من أزيار الفخار كانت له نظمه، ومخلفات الدواب المرافقة كانت ترفع في نفس اليوم بعد انصراف الصائحين، وكان ثمة استثناء وحيد أضيف في عهد (نفر المقدم).. كان خاصّاً بتصرفات (حلحلوك) المجنون ومن هم على شاكلته ما لم يأتوا إلى المجلس عرايا.لم يكن ثمة بند صريح يمنع الوهم، أو يدين متصايحا طالب بوظيفة الأب الشيخ دون أن يحمل سلاحاً..

رعونة مراهق.. رعونة مراهق.. لا تكدر نفسك يا مولاي..

تحدث الأب الشيخ لأول مرة، كان صوته كرنفالياً وناعماً، ويخرج من كيانه المهيب كسريان ماء.. لم يكن صوت الهيبة المتوقع أبداً..

وكان كأنه صوت آخر استوردته الهيبة حتى لا يخافها الآخرون.. صياح ولد غبي.. ولد غبي.. لا تفسد جمعتك الظليلة يا مولاي..

الآن سريان الماء المنحدر من قمة الهيبة عند السلطان رغد، لكنه لا يشرب.. لا يشرب..

-لا لا ليته كان كذلك..

إذن ما الأمر؟

يتقطع لهاث الماء عند الرشيد.. لكنه لا يشرب..

بذاءة الألسنة.. نعم.. بذاءة الألسنة.. أن تطالب بثوب أبيك. هذا حقك.. أن تطالب بشعر جدتك الأشيب.. هذا حقك.. أن تمدحنا أو تنافقنا بالقصائد.. هذا حقك.. أن تكون مجنوناً كحلحلوك.. هذا قدرك.. أن تطالب بغرة للصلاة.. أو رجولة ضائعة.. هذا عبط سيضحكنا.. أن تطالب بمنصب رجلنا الكبير.. أو حتى قطعة من قماش عمامته هذه بذاءة.. بذاءة الألسنة.. نعم.

كانت أطروحة السلطان واضحة وشديدة التوهج، فلو قهقه ردّاً على صياح ابن صانع طبول فقير في الجمعة الظليلة التي كان نصف سكان سلطنته يحضرها ونصفهم الآخر يتطلع إلى حضورها، لما وجد في فمه ضحك يضحك به بعد ذلك على آلاف من الصياحات في مجلسه أو في شوارع (جوا جوا)، ربما تنادي بإزاحته عن كرسي السلطنة وتنصيب حمار مكانه.. ظالم.. ربما.. عادل.. ربما.. مبذر ربما.. متزوج من أربع، وعاشق لأضعافهن.. نعم.. لكن كان ثمة عشرات من المدن، ومئات من القرى، وحدود وملايين البشر.. وسلطان وحيد.. بذاءة الألسنة.. بذاءة الألسنة.. وهو كذلك..

هل تفهم يا مساعد؟ هل تفهم كيف يقوّم اللسان البذيء؟

نعم يا مولاي.. عندي في الكتيبة.

دارت عينا الصقر المهووس في قاعة المجلس كلها.. تجاوزت عن

أخطاء في الزينة، وألوان في الصبغ، وبعض الشعيرات الضالة التي تخرج من بين فتحات العمائم، حطت على رسومات الخيل ذات الحوافر، والسيوف ذات النصال، والخناجر المستقيمة والملتوية، وتباطأت قليلاً على وجه جارية فاتنة كانت من رسم الفرنسي (جيني جيان).. أبدعها منذ ثمانية عشر عاماً بناء على طلب السلطان (نفر المقدم) فقد كانت جاريته المفضلة.. عندي.. في كتيبتي..

كان الجليل المهاب قد تزعزع، ألهبته أطروحة السلطان ذات الألوان الداكنة بتذكارات قديمة أيام كان مشتتا في ريف (أنسابة) يدفن حلما ويقتلع آخر، ويحمل في قلبه يقيناً ملعونا بأن جبته ذات الرقع الكثيرة، ستخضر في يوم من الأيام.. وجها لوجه أمام صبي يصيح.. ظهرا لوجه أمام امرأة كانت توده في يوم من الأيام.. ووجها لظهر طارده مراراً واستحلفه أن يسرق منه شيئاً عزيزاً.. أخرج مسبحة الكهرمان (الأغاديري) التي ما كان يستخدمها إلا حين يشتد حر النفس ويظهر ذلك الخفقان العنيد.. ولم تظهر في لوحات الصبي الحالم التي التقطها للأب الشيخ واستعادها مئات المرات، لأنها لم تشارك أبداً في طقس الدخول المهيب وسط أولئك الخوارق.بذاءة الألسنة.. وقود الأحلام الفاسدة، نواة الصياحات لخطوب أشد وطأة.. هكذا إذن.. انتبه على صوت (رغد الرشيد) منهكاً لكنه واقف على ذات حباله القوية:

- اتبعوا إحساسكم يا مساعد.. اتبعوه.. لا أريد صائحين ينامون وأنا مستيقظ.ولا أريد مستيقظين يحفرون قبري وأنا نائم.

لم يأت السلطان على ذكر صانع طبول قديم، كان مفتوقاً، وحالماً، ومات من حسرة كبيرة، عُدِّلت بعدها قوانين الحج حتى كادت أن ترسل باليهود والصليبيين إلى ذلك المؤتمر الجليل.. لم يأت على ذكر ولد حور عاشق ربما لعب دوراً هاماً في تعكير المزاج، ولا تذكر تلك الرزينة حاملة الفانوس الملوّن في موكبه، والتي سحرت عاصمته كلها..

اكتفى ببذر بذرة حرق الدم في ذلك المساء الملعون آباؤه.. واستند على وسادته واضعاً يده اليسرى ذات الخاتمين الفضيين على رأسه..

اتبعوا إحساسكم.. اتبعوه..

كانت تباريح (كردمال) تكفي، وتذمرات قبائل الجبال تكفي.. وأنصار والده الذي رحل منذ ثمانية عشر سنة مازالوا يرتدون ثياباً سوداء لم يغيروها.. والباب الذي تأتي منه الريح.. اغلقه واستريح.. كانت هذه طريقة (رغد الرشيد).. ليست الأبواب المشرعة فقط هي التي تدخل الريح، ولكن حتى المواربة منها وأحياناً كانت الريح تأتي حتى من شقوق الأبواب المغلقة.

- وبقية ساعات الجمعة الظليلة يا مولاي؟

كان صوت الهيبة الرقراق يسأل..

ارفعوها حالا لا أريد أن أقضي في صياحات الناس وأنا سخيف.. اعدوا مائدتنا.. وتسامروا. ولا بأس من جلب (جديلة) المغنية.. صوتها قد يعيد التوازن. أريد التوازن.. أريده بشدة.. سأخرج من هنا إلى مسك النساء.. أريد أن ألتقيها سلطاناً.. لا رجل بيت.

نفذت مشيئة السلطان على الفور.. ورصت على ذلك البساط الملون بألوان الطيف كلها، مائدة الجمعة المميزة بلحومها وشحومها، وطيورها وحساءاتها، وعسل نحلها الذي يجلب من الجبال.. إضافة إلى قوالب الحلوى العديدة والرائقة المذاق، وحين جاءت (جديلة) المغنية.. عزفت على (مندلين) السحر وغنت أغنيتها (سلام إلى رغد)، بدا أن شيئاً قد مضى وأن شيئاً قد رجع، وأن السلطان ما عاد في حاجة إلى (أكاسير) دوباجي ليهدأ أو ينشط أو يؤدي واجباته الحياتية.. أتموا الجمعة الظليلة حتى قعرها، ولحسوا قليلاً من حساء السبت الذي تلى.. ولولا ثقل في الأجفان واهتزاز في الرؤوس، لكان السبت كله منحوراً على مائدتهم.كان الجليل المهاب مبعثراً قليلاً.. (صبابي)التاجر، خبيراً

ونافـر العينين، وهو يتفحص وجـه المغنية ويقيّم عقدهـا اللماع، وأقراط أذنيهـا التـي اندلقـت على العنـق، لاليـا البرناوي، مفتـي ديار (أنسـابة)، تصـدر المائدة عنـد الأكل، لكنه تأخر إلى أقصى ركن حيـن ابتدأ الغناء، ومصمم الأزيـاء الكردي (كردم كردمان) بدا وكأنه اسـتوحى زيّاً جديداً، والعـم أحمـد بـرم كان صامتاً إلـى أقصـى حـد. وكان ملـوك الأرياف، وشيوخ القبائل قد صرفوا باكرا، وقبل أن تتغير سحنة السلطان بالكامل.. لـم يكونوا من الخاصـة ليعرفوا بالدواخـل، ولا كانوا شـديدي العمومية ليحرموا من الجلوس السلطاني.. اتبعوا إحساسكم.. اتبعوه..

لـم يكن خطبا جللا بمقاييـس الخطوب التي تعرفها السـلطنة.. أن يصـرخ صبي فـي جمعة حتـى لو مـس صراخه شـخصية جليلـة.. ليس كتحرشـات (الكردماليين) ولا كتذمرات رجال الجبال.. أو تهريب نبات (البانجو) المخدر إلى مزاج (أنسـابة).. لتنظم مـن أجله طوابير الصباح، وتـزاد وجبات الغـذاء الروتينيـة، ويمنح جنود شـارات كانـوا يتمنونها.. وتسـن السـيوف والخناجر في مسـن عملاق كان مغروسـا في أحد مقار كتيبة (الرعاع) القوية..

هل يحتاج الأمر إلى كل ذلك مولاي الأمير؟

نعم.. نحن نتبع إحساسـنا.. ليس من أجل صياح فقير.. ولكن من أجل سلام (أنسـابة).. من أجل وحدتها.. من أجل رفاهية شعبها..

كل تلـك الأحصنة.. كل تلك النوق.. كل أولئك المشـاة الذين لو مشوا إلى حصن لدكوه ولو مشوا على صخر لتأرجح؟ نتبع إحساسنا.. حين أسـس (مسـاعد) كتيبته، وتولى إدارة الأمن في السـلطنة، لم يخرج لسـان إلا انقطع، وما ارتفع حاجب إلا هـوى.. ولا صرخت مظلومة في مجلس (الكوراك) وا رغداه.. وا رغداه.. إلا كان عند مساعد الرد.. منذ عامين قضوا على تمـرد مفترض كاد يفترضه بعض متقاعدي الجند حين دقـوا النحـاس ولبسـوا دروع الحرب وتنزهوا في شـوارع (جـوا جوا)..

ومنذ عـام أخرجوا عدداً مهولا من سـحرة قبائل (البيقـو) من جحورهم وجلدوهـم، لمجـرد الشـك أنهـم قـد يطبخـون شـاة يسـمونها (رغت) وكانت العظمة كلها في اعتقالهم لعباد الله المعاقين والمفتوقين والعمي والطرشـان وحاملي ميكروب ركاكة اللسـان، وحشوهم في تلك القوافل الفخمة حتى حجوا واستغفروا وتنسكوا وعادوا إلى (أنسابة) ذلك العود الحميد..

- مولاي الأمير نحن على أبواب حي الرديم من الجهة الشرقية، أمامنا أكوام للزبالة، وترع من الماء ونساء يتنزهن.. هل ندخل الآن؟

ادخلوا..

هل نمص ثمار اللالوب كما تعودنا أن نمصها في كل حملة؟

نعم مصوها..

- مـولاي الأميـر.. هل نقبـض على أحـد من سـكان الحي؟ هـل نلفّق تهمة؟

لا

ولد الحُور صديق الصبي (آدم نظر) ورفيقه في مشـاويره يقترب منا.. هل نمسك به؟ هل نسأله عن شيء؟

لا

مولاي الأمير هل ننهب محل؟!.. هل نأخذ بروش السـعف تلك؟هل نطرق على باب؟ هل نقتلع نافذة؟

لا

هل نعزي في صانع الطبول الذي مات منذ عدة أعوام؟

لا

طباخـك القديـم.. الخصـي (نجَّام)، يسـكن هنـا في واحـد من تلك البيوت.. هل تريده لصنع حساء الطيور الجارحة المفضل لديكم؟

لا

- ولـد الحُور داخل مهلـة للتفكير وضعته فيهـا الرزينـة، والرزينة لاهية فـي أمور أخرى لا علاقة لهـا بولد الحُور.. هل نعقـد قران أحد على أحد؟

لا نتبع إحساسنا..

وظل ذلك الإحسـاس الغريب يتبع لثلاثين يوماً كاملة في قيلولات حي الرديم وصبـره المذهول.. تـردد الكتيبة ويردد الأميـر نفعل؟ لا نفعـل.. لا إلـى أن توقف الإحسـاس المتبـوع يوماً ونشـر الأمير صوته الجارح..

اضربـوا واحداً من سـكان الحي.. أي واحـد.. انحروا شـاة.. ادخلوا على أم الرديم وسلموا.. لا تؤذوا عينيها الكليلتين.. ولا تغضبوها..

مولاي.. خرج (آدم نظر).. ماذا نفعل؟

- اعطوه قيده.. لقد جاء ليربطه بنفسه.

-6-

حين ولد الأمير (مساعد) في بيت والده (رغد الرشيد) الذي كان نائباً في سلطنة أبيه في ذلك الوقت، ومتزوجاً لثلاث من النساء النظيفات بينهن والدة الأمير، و(مسك النساء)، وعاشقاً لعدد آخر لا يقل نظافة، لاحظ الكثيرون ممن شهدوا انبعاج سرته، وطول حلمتي أذنيه، وذلك النمش الأبيض في لسانه، وعصارة بطنه التي كانت خضراء داكنة، واستغرقت يوماً كاملاً لتجف، أن الأمير رغد آنذاك، أمسك بالمولود من رأسه، ثم من بطنه ورجليه، خبط على ظهره مراراً، وأداره في الهواء عدة دورات واحتضنه.. سماه مساعد على الفور، ربما لأنه تذكر أحداً وربما لا أذن في أذنه بنفسه، حرم على المنجمين أن يقرءوه، ولصق علي جبهته دينارا من ذهب.. وأقسم على جدته (السحابة) أن تحرض جدات مجلسها على الحضور للثمه، وإدراجه في طقس احتفالي خاص، بالرغم من أن ذلك لم يكن من اختصاص مجلس الجدات، وقال وهو يقوم إلى مهام السلطنة التي بدأ يغازلها في ذلك الوقت ويسحبها رويدا رويدا من تحت والده:

- هو ذا رجل أمنكم إن شاء الله.. فاحفظوه.

لم يكن مضطرا لقول ذلك لحفنة من خاصة القصر وخصيانه وجواريه، شهدوا ميلاد ولد قد يكبر وقد لا يكبر، وقد يحكم وقد لا يحكم، وقد يموت من سل أو طاعون أو نزلة معوية، وقد يموت شيخاً على فراشه.. ولم يكن مضطرا لأن مساعد الصغير، ومساعد الصبي ومساعد الرجل بعد ذلك، استطاع أن يحافظ على أسنانه فلم تسقط لبنية ولا دائمة، واستطاع أن يحافظ على قلبه فلم يسقط في شراك العشق

أبداً، وعلى شعيرات شاربه السوداء، فلم تبيض أو تحمر.. وكان حافظاً لمئات الأحاييل، وأناشيد مجد (أنسابة)، ومتقدما على غيره من الأمراء وأبناء ملوك الأرياف، أنه لم يرضع من ثدي جارية، ولم يسقط عن فرس، وما مارس عادة السر إلا حين أراد أن يعرف مدى إيلامها للحواس، ولم تؤلم حواسه.. كان موشوما في يده، ومجروحا من عراكه الذاتي لذاته، وصبورا، وقليل الأحاديث وتكلف مشاق الانضباط غير المعهود في الكبار حين انضبط.. وتكبد مشاق القبح وتوعك السيرة، حين تقابح، ووعك سيرته ولكن من أجل (أنسابة) و(أنسابة) فقط.. لم يكن الأمير (مساعد) أخطبوطاً عادياً يمكن تقطيع أذرعه، ولا شجرة هجليج تمنح الظل لله في الله.. ولا الخور الضحل الذي يخوضه كل من هب ودب.. ولا المطر ولا أية أنفلونزا عابرة تصيب بالقيء لأيام وتبعد.. ومثلما قال (رغد الرشيد) جهرا.. هذا رجل أمنكم.. قالت الناس سرا.. هذا رجل بلائكم.ومثلما قال كبير ممارسي الطب (دوباجي) حين ولد.. ما أشد وسامته.. قالت الناس ما أشنع وجهه.. ومثلما أصدر (لاليا البرناوي) فتوى تبيح أكل الطيور الجارحة.. أصدر الناس فتواهم في تحريم تهجين فرس بحمار لم تكن نظرات الصقور المهووسة عادة واكتسبها، لكنها ولدت فيه، ولعلها الدليل الذي استوحاه والده حين ردد.. هذا رجل أمنكم.. فحافظوا عليه.. كانوا يختلطون في الأعراس ومناسبات الوطن.. فحافظ مساعد على عدة أمتار بعيدة.. يتنافسون في مسابقات الجري، فيجري مسابقاً رجليه.. هو.. وكان معلموه الذين عينهم والده بعد اختبارات وتكنيكات قاسية قد أخفقوا في تعليمه الحفظ، والخط والتفاخر، وشؤون البروتوكول السلطاني، ونجح هو في الشم واللمس، وتتبع الإحساس.. تتبعه في طائر مغرد، وحمامة جريحة، وحمار ينهق، وأسنان تضحك، ومخزن لروث البهائم.. تتبعه في عسر هضم وتتبعه في فهم خاص للرجس اخترعه هو ويهضمه هو.. في سن الثالثة عشرة وفي

حفل كبير أقيم بتلك المناسبة، منحه أبوه الذي كان قد تسلطن بالفعل، جبة السلطان (يوسف ضو) مؤسس (أنسابة) ذات التواشيح والأوسمة، تقديرا لجهوده في ضبط عدد من الحراس في حدود (كردمال)، متلبسين بالخوف والرعدة، في سن الخامسة عشرة أوفده إلى جنوب مصر ممثلا لجلالته في اجتماع غير عادي لرؤساء الدول الفقيرة، وفي سن الثامنة عشرة ناداه إلى قصر (رملة) الذي كان بعيداً، وخاليا، ويمتاز بمعماره الرجولي، وحيطانه الخرساء بالكامل، لا تسمع ولا تتحدث..

كم عدد خونتي وخونتك في رأيك يا مساعد؟

لا أدري يا مولاي.

عد شعر رأسك.. عد ذرات الرمل في حذائك.. عد قطرات الطيب في أجساد الجواري.. وان استطعت أن تعد المسافة من هنا إلى مخدع (هاشم درب) سلطان كردمال.. عدها.. هل تفهم يا مساعد؟

أفهم يا مولاي.

إذن اتبع إحساسك.. اتبعه يا مساعد.

قالها السلطان وانصرف هادئاً، وسمعها الأمير وبقي هادئاً، ذلك الهدوء الذي بدأ يضج رويدا رويدا.. بميلاد كتيبة الرعاع.

لم تكن كتيبة الرعاع فصيلاً عاديّاً لحفظ الأمن من نوع تلك الفصائل المتعارف عليها في الدول، كانت بناء معقداً ابتكره الأمير متتبعا لذلك الإحساس.. وفي قصر (رملة) الأخرس ذاته جاء بطاولة كبيرة من خشب أملس لا يعرف أحد من أين جاء به، رسم عليها، وبحس فني رفيع، سلطنة (أنسابة) كلها كما يتصورها، رسم قصورها وحدائقها، وطرقها وبؤر فقرها، ومطابخ خيرها وشرها، ووساوس مواطنيها، وحتى قبور موتاها.. كانمتشنجاً وهو يرسم.. وهو يعيد.. وهو يمحو.. وتوصل إلى مشروعه الكبير.. أمن القصور في ردع بؤر الفقر.. وردع بؤر الفقر في ابتكار عقار من جنسه.. وفي عدة أعوام فقط خرجت من ذلك الرسم

الخشبي تلك الكتيبة التي لم تكن مجرد جنود، ومقرات وبيوت ترهيب فقط، ولكـن روائح يمكن شـمها، وكائنات يمكن لمسـها، وهواء يمكن استنشـاقه، تعيش في كل شـبر.. تظهر مـن أي منحنى.. وتخـرج من دم أي جرح.. كلها رعاع.. قابلين للطي والفرد.. ومد الخد الأيسـر وكلها ثمار مرة يأكلها الأمير باستمتاع.. أخذت كثيراً من سلطة الجيش، وأكلت سـلطة الخيالـة والمعمميـن التي كانت مسـؤولة عـن الأمـن فيما مضى بالكامـل.. وكانت في داخلها فصائل عديدة بمهـام مختلفة.. منها فصيل الركـوب الـذي كان مكوناً من أشـداء مـن مختلف القبائـل، يركب على ظهورهم الأمير فـي تنقلاته في (جوا جوا) أو خارجها، وفصيل (الأشـد حماقة) المكلفين بالكي والخصي وتعليق البائسين من أرجلهم، وفصيل (تلك النظرات) الذين مـا كانت تفوتهم حتى نظـرة العطف التي تعطفها أم على ابنها.. وقد وفر الأمير ومن مورد خاص في السلطنة ابتكره أيضاً وسـماه (ضرائب النخـوة) وتجبى في أي وقـت ودون أي أيضاًح وحتى من متسـول على باب الله، تغذية جبارة لتلـك الكتيبة.. كانت مكونة من اللحـم بأنواعه، ومـن الدخن أيضـاً.. كان يقـول.. اللحم للبنـاء عندنا.. والدخن للهدم عند أعداء السلطنة..

وصل (آدم نظر) إلى واحد من مقار كتيبة الرعاع في العاصمة (جوا جوا).. كان مقيدا بحديد صدئ، وكان متألما وكان خائفاً، وكانت فكرته عن (الأبوة الشـيخة) الآن، نفس فكرته عن الجرب والطاعون.. ومرض (الهبوب) الذي يبتز الآدمية.أدخلوه إلى أحد الأكواخ الصغيرة المنتشـرة فـي المكان، والتي كان فيها أفـراد آخرون.. نظروا إليـه لبرهة ثم تفرقت نظراتهم، وعلى الفور اسـتلمه مختصون في شـتى فروع صياغة الرعاع.. وبدأوا تفصيله وخياطته.. ليتم ارتداءه فيما بعد في تلك المهام الجليلة..

لكي تكون مريحاً، وخالياً من النتوءات، ولا تسـبب الدمامل أو الشـد العضلي حين يمتطي مولانا الأمير ظهرك، يجب أن نبنيك من جديد..

نبنيك أولاً كحمار، وثانياً كفرس، وفي النهاية نبنيك ناقة..

كان مستغربا بشدة، وما تخيل كيفية البناء تلك، وكيف يحول ظهر إنس مهما أذله الزمن، لن يحمله أكثر من كيس ذرة أو دخن في سوق المحاصيل، إلى ظهر دابة.. تملكته رعشة جارفة، وبدأ في عد الخسارة التي كلفه إياها الجليل المهاب.. حين امتصه واستعاده، وامتصه واستعاده وتخيله يخرج من حي (الرديم) ليس (يوسف كرا)، ولكن (آدم نظر).. الآن بعيد عن ذلك الحلم مسافة تكفي لدفن الحلم نفسه، بعيد عن جبروتي ولد الحُور.. ويشتهي حموضة لهاثه وحكاياته عن شماس متجول اسمه (عبود)وفتاة بادية خارقة الجمال، وراع للأغنام اسمه (الدليل كرشو) يتعارك بالعصا ويفسد كل شيء، وليته مات عند نقطة تجمع القوافل أمام بيت مال (أنسابة) كما فعل والده صانع الطبول حين عذبه الفتاق الإبليسي.. الفرق واضح بلا شك.. والده حلم بالحج والطواف، وهو حلم بالدنيا والمخازي، ولو مات ما أظن أحداً من قبيلة التنجر البعيدة سيأتي ضمن وفد في عزائه.. كان خائفاً جداً.. ومرتبكاً جداً وقال لمتخصصي فن الرعاع وهم متوغلون في فحصه.. أعيدوني إلى مجلس مولاي (رغد الرشيد) سأصيح مطالبا بغرة للصلاة، وسيضحك السلطان وتضحك السلسلة السباعية، وأنصرف مطرقا، وينتهي الأمر لكن أحداً لم يبتسم، وأحداً لم يضحك، وأحداً لم يغير حتى من مسار نظراته التي كانت تركز على ظهره بشدة.. نبنيك حماراً.. نبنيك فرساً.. نبنيك ناقة لحمل الوزر.. فكر للحظة في أخته (الرزينة)، كانت مهرجان (جوا جوا) سلطانة بمقاييس نفسها.. مكحّلة بكحل فقرها، ولم تسع لاحتلال قلب كبير في قصر كبير بالرغم من ترددها على تلك القصور.. وحملها للفوانيس الملونة.. يعرف علاقتها بالدهاليز، ويثق في قدرتها على إخراجه من ذلك الجب.. الرزينة لن تبكي وتسكت، لكنها ستبكي وتسعى.. تبكي وتسعى.. وأمه، كيف استقبلت نبأ اصطياده؟.. لابد نبت

فـي وجهها أخـدود، ولابد ستسـعى هي أيضـاً إلى ردم ذلـك الأخدود. ابتسـم.. وكانت ابتسـامة مخبول يخوض نـارا.. جاء الأمير مسـاعد إلى كوخـه الصغير بغتة.. لم يمسـه بنظـرات الصقور المهووسـة أبداً، سـلم على عدد من زملائه في الكوخ سـلام صديق لأصدقاء، وقال لأحدهم.. اقرأ طالعي يا زين.. وحين قال له.. طالعك في السـماء كما هو لم يتغير مـولاي الأمير انصرف.. وكانت فرصـة لآدم نظر لتخيـل وجهه تحت اللثـام.. لابد أنـه وجه عاق وغزيـر البهاق.. كلنا أنسـابيون.. وما يمسـنا عقوق في حق (أنسـابة).. كانت فرصـة لتأمل ظهره ومشـيته.. هذا ظهر أسد، وتلك مشية ذئب في وسط قطيع من النعاج.

كان مـن ضمـن زمـلاء (آدم نظر) في ذلـك الكـوخ الصغير، صبي جامـد التقاطيـع قدم نفسـه بأنه الفـرس المفضـل للأمير.. قـال أنا كنت أحمله حين كنا ندخل (حي الرديم) في كل قيلولة.. وحين ضبطنا سحرة (البيقو) المشـبوهين وحين أغرنا على المطلوبين للحج، وأرسـلناهم في القوافل.. وحين علقنا الجنود المتقاعدين من أرجلهم نهار تمردهم. كان اسـمه (شـبرق).. وكان من قبيلة (الشـباريق) التي تقيم بعيداً في الجبال بعيدة عـن مناخات (جوا جـوا)، لا تدخلها إلا للضـرورة أو الصياح في مجالس (الكـوراك).. لم يزر (جوا جـوا) أبداً إلا حين صنـف رعاعيا.. وكان الأميـر قد اقتنصه أثناء زيـارة لقريتهم كان يبحـث فيها عن رعاع.. شاهده في لعبة جر الحبل الخبيثة يجر القرية كلها والقرية تنجر، صفق له بغزارة، وقال:هذا حصاني الذي كنت أبحث عنه منذ سنوات.. ولم يكن في حاجة إلى إضافة لكي تقوم كتيبته بالمهمة.. حمل (شبرق) الأمير في أسفار عدة، وغارات عدة، وكان يتلقى باستمرار علاجا مكثفا من دمامل الظهر التي كانت من نتاج رياح البطن التي تتكدس في شبع الأمير.

أنا كنت مبنيا من الأساس كفرس.. ولم يبنوني كحمار أبداً..

- وناقة؟

لن أكون ناقة أبداً.

- وهل تعجبك هذه الوظيفة؟ فرس الأمير المفضلة؟

همس المرتعش في أذن زميله، وكان قبلها قد تلفت حتى أيقن أن مختصي فن الرعاع قد انصرفوا تماماً..

لا تعجبني إذا كنت أملك الخيار.. أما الآن فكما ترى. كلنا بلا خيارات.. أنا كنت أحلم بالبقاء مزارعاً وجاراً للحبل في المناسبات.. وأنت حلمت بمنصب نائب السلطان، وغيرنا هنا كثيرون كانوا يحلمون ربما بأكل لقمة من حميض.. كلنا بلا خيارات.. اسكت.

قال شبرق وبرك على قوائمه الأربعة، وعلى الفور لاحظ المرتعش أن ظهره واسع جداً، وأن في عنقه سوادا يشبه سواد الخيول الأصيلة.

وفي ركن منزو من نفس الكوخ الصغير الذي حشر فيه (آدم نظر)، كان يوجد شاب ثلاثيني واسع الفم، وأحمر الشفتين، في عينيه نعاس ما، وفي صدره بروز وقح، ومن عنقه تتدلى قلادة رقيقة تنتهي بقطعة من سن الفيل. لم يكن يبدو حماراً، ولا فرساً ولا ناقة، ولا أعطى نعاس عينيه فرصة لضمه إلى فصيل (تلك النظرات).. وجاء إلى عند المرتعش ماشيا مشية غزال. عانق (آدم نظر) بفجاجة، وابتسامة، ورشه بعطر نفاذ أدار رأسه.. وحين عاد إلى ركنه كانت ضفيرتان من شعر أسود ناعم تتلاعبان على ظهره.

- هذه هي المرحلة الأخيرة أبي الشيخ..

نطق الفرس (شبرق) من بين الحوافر.. كان لسانه مزرقّاً، رأسه ممتلئ ببقع داكنة، وعيناه كأنهما لا تبصران.

المرحلة الأخيرة أبي الشيخ.. حمار.. فرس.. ناقة.. غوامض أخرى.. ثم هذا الفتى.. ما اسمه؟

- اسمه قلب الأسد..

رددت الحوافر.

اسمي قلوب..

رنت ضحكة العطر، والضفائر من ركنها المنزوي.

قلب الأسد.. قلوب.. اسمان واسعان وفارهان لرجل وضده، هذان اللذان يسكنان ذلك المعطر، والمضفر وناعس العينين.. ترى كيف صار ذلك كذلك؟ وأي مهام جليلة يمكن إنجازها بضدين كقلب الأسد وقلوب؟ مؤكد ليسا للحرب.. ليسا لمداهمة ساحر أو خائن.. ولا حمل السلاح في حملة تستهدف المفتوقين والعمي والطرشان المطلوبين للسفر.. هما للنواح على الموتى المهمين.. للضحك في مجالس المسرّة، وربما لحراسة نساء متمردات يخشى عليهن من حراس هم قلوب للأسود ولكن بلا ضد.. مؤكد ذلك.. غمغم (آدم نظر).. مؤكد.. الآن جاء درس (الهبرات) القديم والذي لم يستوعبه في حينه ولا استوعبه تلميذ آخر في مدرسة المهاجر (عبد الرب)، راكضا.. كان الأمير (الهبراتي) منتفخاً جداً في ذلك اليوم، وكان يشرح فقرة أسماها (التبرع بألمك)، وكانت عن كيفية الاستغناء عن متعتك الخاصة لتحرس متع الآخرين.. أعطى نماذج من التاريخ القديم، ونماذج من تراث (أنسابة)، واصطحب معه في يوم الدرس أخوين شقيقين، كانا خصيين، رجلين وضدهما، فيهما رجولة وفيهما أنوثة.. فيهما نظرات أسد وضحكات عذراء.. قال.. هذان يحرسان متعتي في البيت فحيوهما.. فضجت قاعة الدرس بالتصفيق.. حمل (آدم نظر) ما التقطه من ذلك الدرس إلى حي الرديم.. مرره على الكثيرين ممن يعرفهم، ولم يجد تضحية هنا أو هناك.. وحين شاهد (نجّام) مواطن قبيلة (البيقو) الذي انتقل إلى الحي مؤخراً، وكان يتحدث عن حساء للطيور الجارحة، وألبسه فقرة الدرس.. وجدها تطابقه تماماً.

مرحلتك الأخيرة أبي الشيخ، ولكن ماذا بعدها؟.. هل هو كرسي الجليل المهاب فوق الفرس المخطط.. وسط العبيد الخوارق وبحذاء

النمر المغاربي كما يقول الحلم؟ هل كوّة في باب تتمرد خلفه امرأة.. أم صانع لحساء الطيور الجارحة كما كان (نجّام)؟ وقلب الأسد.. قلوب الضفائر.. الضد والضد من أين جاءا وبماذا حلم القلب قبل أن يتبعثر قلوبا؟

لم أكن أحلم..

من الركن المنزوي، ومن بين العطر والضفائر يأتي الصوت الرقراق راكضا..

لم أكن أحلم.. وحدها (حرة المسلاطية) هي التي غيرت حياتي.

- حرة المسلاطية؟

امرأتي.. لقد صاحت في مجلس (الكوراك) بعيوبي كلها. حتى تلك التي لم أكن أعرفها.. لقد أرادتني آخر.. وصرت..

إذن هذا هو.. هو سارق الفئران العادي.. ودالق الطبيخ العادي في بيت امراة صاحت. لابد لم تكن تعرف.. ولابد يوماً ستعرف.. ولكن ماذا سيكون حاله هو الأب الشيخ.. سارق الهيبة وبذئ اللسان ومعطل المزاج السلطاني في جمعته الظليلة؟

المرحلة الأخيرة أبي الشيخ..

كان خائفاً جداً ومرتبكاً جداً، وسعى عدة مرات إلى لثم رأس الأمير مساعد حين كان يمر بكوخهم لقراءة الطالع، أو يقف كصقر مهووس لمتابعة عملية بناء المجندين إلى دواب.وفي يوم محدد حددته ظروف كثيرة، كخفقان الرعد، وبشارة المطر، والتواء في أحد حوافر الفرس (شبرق)، وعودة جباة (ضريبة النخوة) في الأقاليم بحصاد وفير، وأنباء عن قرب اكتمال السرداب الآمن.. مشروع السلطان رغد، والذي كانت تعمل فيه كتيبة الرعاع بجانب خبراء أوروبيين، نادوه إلى صومعة إدارة الرعاع، كان هادئاً جداً، ومتأقلما جداً، ظهره متسع بعض الشيء، ومن أذنيه تشع بوادر عالم الحمير.. الذي صاغه متخصصو فن الرعاع.

لم يكن يتذكر أن ضرسه انخلع، وواحدة من عينيه بها قرحة، وأن سوائل الرجولة قد اختفت تماماً من صباح سراويله.كان الأمير هناك.. أمامه طاولات عدة من ذلك الخشب الأملس.. يرسم ويمحو ويضيف.. كانت عمامته من حرير سوقي.. لثامه كأنه خرقة من خرق (أم الرديم) وحذاءه الذي كان خارج الرجلين كأنه حذاء متسول.. وقف (آدم نظر) أمام متتبع الإحساس وقفة جامدة.. لم يرمش ولم يبلع الريق، واستمر هكذا يوماً كاملاً إلى أن رفع الأمير نظراته في النهاية.. ألقاها عليه ثم عاد إلى رسومه الغريبة. وفي اليوم التالي كانت تجربة ظهر الحمار شاقة على الأمير لكنه تحملها ببسالة، لم تكن ثمة مهمة رسمية ولكن تجربة.. مجرد تجربة، طاف الحالم بالأمير في شوارع مقفرة، وحارات تتناثر في ضحالتها برك المطر، وحين عاد به في النهاية إلى المقر، كان ثمة دمل صغير قد بدأ بالبزوغ على ظهره.

في حي الرديم المسكين كانت ثمة تحركات وأمور معقدة، وبناء على ضغط هستيري من الرزينة وأمها، تسلل جبروتي ولد الحُور إلى ذلك الجحر الذي يسكنه الخصي (نجّام).لم يكن ثمة أمر محدد لكن المفجوعتين أرادتا أن تعرفا شيئاً عن أي شيء.. لم يكن جبروتي يثق في فائدة نجّام، ولابدا له الطباخ المخلوع جديرا بالثقة.. اخترع له عطراً أنثويا رخيصا وطرق بابه. الرجل وضده، شاربه لا يكاد يخرج من مكمنه، ثوبه مرفوع إلى مستوى السرة، وفي ضحكته ألوان غرف حمراء. اسأله عن الكتيبة.. اسأله عن التغذية.. عن ألحفة النوم الواقية من البرد.. عن أي شيء يا جبروتي.. الآن مزيد من الخيوط البيضاء تلوح في ظلام (مهلة التفكير).. اقتربت منه الرزينة.. اقتربت بالدرجة التي يمكن أن يفكر فيها في تعلم طهي صدور الدجاج التي تفضلها للحفاظ على الرشاقة..

لا أعرف شيئاً.. أنا طباخ سابق.. وهذا كل شيء..

حتى صوته الزاجر لم يكن صوته.. صوت الضد في تلك اللحظة..

ذهب جبروتي بلا معنى، وخرج بلا معنى.. وقال للرزينة..

إيأسي.. إيأسي أرجوك.. انهي التفكير.. انهيه أرجوك..

في ذلك المساء المخلوق من طينة أخرى وربما طينة داكنة للغاية، كانت الرزينة على موعد كبير.. موعد مع (السحابة) جدة السلطان، طلبته بالدموع وباللهاث، وبوعود أخرى لم تكن أبداً واعية حين أبرمتها.. وفي مقر إدارتها لمجلس الجدات الذي كان نظيفاً ومرتَّباً ونقي الهواء، وفي قصرها الذي لا يبعد كثيراً عن قصر (المسك)، وقفت الرزينة.. خلعت ذهب اليهودي (عامير) من عنقها ومرفقيها وحلمتي أذنيها الشفافتين، وحررت شعرها من قبضة أشرطة العقيق السلطانية، وضعت عتاد نضارتها على الطاولة.. وأخرجت رماداً داكناً من بين ثيابها، دهنت به جلدها ردعاً للنظافة التي كانت قد اجتهدت فيها واحدة من جواري (السحابة).. طلبت إعفاءها من قيادة كرنفال الجلوس القادم كما كان مقرَّراً، إعفاءها من حمل الفوانيس الملونة، وعدم رغبتها في المشاركة في نشاطات طاهرات (أنسابة) التي تشمل إطفاء الحرائق ومهام أخرى داخل القصور.. لم تصدم السحابة حقيقة، ومنذ صاح الولد في ذلك اليوم.. أريد أن أصبح أباً شيخاً، والسحابة تحس بأنها لن تصدم أبداً.. كانت جدة السلطان فعلا، ورئيسة مجلس الجدات فعلا، لكن الدهاليز أكبر وحفرة الولد الصائح أعمق من قدرتها.. قالت.. لا أستطيع المساعدة في هذا الشأن.. هذه أمور سيادية.. وقالت لا أستطيع أن أمنعك من التمرد على خدمتنا.. فهذه دموعك.. وقالت.. عودي متى شئت، فنشاطاتنا تحت أمرك.

خرجت (الرزينة) وفي جنبها مغص، وثمة طعم مر يتناثر في حلقها.. كانت تعرف النتيجة، وتريد الآن أن تبدل قدراً..

جمعة (الكوراك) في يوم شتائي من أيام (أمشير) نافخة الرعاة، والمبيدة لمشاعر الدفء، كانت الريح صارة، والبرد حبل الربط قرب

النيـران، وكان السـلطان (رغد) قد غاب أكثر من عشـر جمـع وعاد لتوه من رحلة مؤلمة، تفقد فيها الجبال والسـهول، وحدود سـلطنته المتاخمة لكردمال، زرع في الجند روحاً.. وفي الفقـر آمالا وفي وجوه الأطفال الذين هتفوا بأبوّته، سـراب مسـتقبل.. قال لمنجمين أفرحوه وأطالوا من إشـراقات عهده.. ويلكم لا تغرسوني كثيراً في الدنيا.. وقال لملوك تلك المناطق.. تتبعوا الإحسـاس.. تتبعوا الإحسـاس.. وكان الجليل المهاب غائباً أيضاً.. أرسـله السـلطان في رحلة عمـل إلى بلاد قبيلة (الشـرّيـين) أعقل قبائل البدو المترحلة في(أنسـابة).. كانوا يحتفلـون بمولد جديد.. تغيير اسم القبيلة إلى (الميامين).

مـن بلاد(البرقـد).. من (البيقـو).. مـن (التنجر).. من (الشـباريق) مـن (البرقو) و(المسـاليط).. مـن مدينة (سـن الرمـح) الحدودية وواحة (العفراء) المزهرة وسـط القفر.. شـهوة ((الهجليج)) فـي الإيواء.. ليس من حـرٍّ ولكن من صر الرياح.. شـهوة أزيـار الفخار فـي الإرواء.. ليس من ظمأ القيظ ولكن من ظمأ التوتر.. شـهوة السحرة في الإبهار، وشهوة السـياح في رسـم الهرجلة التي تدر مبالغ عظيمة في أوروبا.. وفي نفس الوقت لابد من لوائح، ولوائح لا تقبل التهاون.. صرخ أب..

- ابني بلا قلب.. يرميني رمي الكلاب..

صرخ ابن..

أبي بلا قلب يرميني رمي الكلاب.

بكت أرملة.. والتاع مأزوم.. وصرخ حلحلوك المجنون:

أريد جارية نحاسية بلا وجه.. أريد بستانا أخضر بلا زرع.. أريد فرساً مكسور الحوافر يلقيني على الأرض.. أرروك..

وقفت (الرزينـة نظـر).. مهرجان (جوا جـوا).. وحاملـة الفوانيـس القديمة، مطفأة.كانـت مرتها الأولى في مجلس الصيـاح، ومرتها الأولى ووجهها محتقـن، ومرتها الأولى أمام كل تلـك العيون.وكما كان متوقعاً

من رزينة بلا سند ولا ظهر، وفي مناسبة مرة كتلك، فقد احتفظت بمسافة شاسعة من العبوس بينها وبين جبروتي ولد الحُور الذي يرافق الآن أزمتها.. ولا يستطيع أن يقفز بذهنه إلى أبعد من تلك الأزمة.. بمسافة العبوس اقتلعته من جحره، بمسافة العبوس اقتادته عبر احتقان الجمعة وتناقضاتها حتى قصر المسك.. عبست في وجهه ليسجلها في قوائم الصائحين، وعبست ليهش عنها نظرات الفجور التي أطلقها البعض وهم يعلمون يقينا أن هذه هي الأخت الهائمة لابن صانع الطبول الذي اتهم ببذاءة اللسان وتبنيه كتيبة الرعاع من جديد.

كانت الرزينة نظر حقيقة لقطة لا تتكرر في تلك المجالس أبداً، وسلطانات مثلها حتى لو كن معدمات أو عاريات من الزينة، لا يتوقع خروجهن في عصاري الجمع حاملات لصياح ما دون تفكير، لكن الأخت الهائمة فكرت.. وقدرت.. وتحتمي ب(الهجليج) من صر الريح انتظارا لدورها.

الرزينة نظر حبايب.. ابنة المرحوم راعي الأغنام نظر حبايب.. الرزينة نظر حبايب.. ابنة المرحوم راعي الأغنام نظر حبايب..

صانع الطبول يا إبراهيم.. صانع الطبول يا إبراهيم.. كان الحاجب ما يزال مقيماً في حي الرديم، وما يزال عاشقاً لطبول آل حبايب التي أبدعوها.. وجاء إلى الرزينة شخصياً مقترحا شراء محل الطبول بكامل عدته نظرا لموت والدها واختفاء أخيها.. زجرته الرزينة بشدة، كانت على قناعة بأن أخيها سيرجع، وحتى لو لم يحدث ذلك، فستقف هي وتشرف بنفسها على استمرار مجد أبيها.. راعي الأغنام.. لا يهم..

أخي ليس بذئ اللسان يا مولاي.. أخي مراهق يا مولاي.. أخي أرعن يا مولاي.. أريد أخي (آدم نظر).. أريد أخي (آدم نظر).. مولاي السلطان أنصفني.. أنا يتيمة يا مولاي.. أرروك.. أرروك..

كان واحداً من أرق الصياحات التي مرت على جمعة (الكوراك)

منذ أن ابتكرها (يوسف ضو) واعتمدها ركيزة من ركائز الحكم في السلطنة.. ليس الصياح الباكي كصياح الأرامل والمطلقات، ولا الضاحك.. كصياح الفاجرات.. ولا العابس ولا المبتسم ولا أي صياح آخر سمعه المتجمعون من قبل.. أحس جبروتي بأن الناس قد التهموا رزينته من شعرها حتى ارتعاش رجليها، وشاهد بعينيه أن السلسلة السباعية كانت تتراقص وهي تنقل الصياح.. تجمع الناس من حولها بجنون، وهنأها الكثيرون على انفراج المحنة التي تشوه جمالها مقدما، وحتى قبل أن يصل الصياح إلى أذني السلطان، كانوا يعرفون (رغد الرشيد) جيّداً، ولم يتوقعوا أبداً أن رقة كهذه يمكن أن تصافحه ولا تدخل القلب.. وقد همس البعض بقصة (مسك النساء) زوجته الأخيرة ومسك قصره الذي لا ينضب.. كانت أرملة فقيرة لبائع متجول يبيع حلوى (الدرادم) اللزجة التي يأكلها الصغار بتشنج، وصاحت في إحدى الجمع تشكو من ضيق ذات اليد بعد أن رحل زوجها.. وكان أن دخلت مزاج السلطان ومن ثم بيته.. هنأوها باقتناع.. وقال بعض معارفها من حي الرديم.. ابشري يا رزينة.. ابشري يا سلطانة..

والواقع أن (رغد الرشيد) مولاهم وسلطانهم، كان كما يعرفونه، وأيضاً أكثر مما يعرفونه، ولوكان ذلك الصياح المتوسل بشأن قاتل لرقبة أو سارق لجمل أو متخابر خائن لصالح سلطنة (كردمال) أو متمرد مدجج بدروع الحرب يمشي في شوارع (جوا جوا)، لكان لذلك الصوت الرزين وزنه، ولتلك الرقة الرزينة وزنها، وربما خرجت تلك الفقيرة من إيواء ((الهجليج)) الشوارعي، إلى إيواء قصر.. لكن الأمر يختلف. أن تطالب بقميص أبيك المهلهل.. هذا حقك.. أن تطالب برأس جدتك الأشيب.. هذا حقك.. أن تمدحنا أو تنافقنا بالقصائد.. هذا حقك.. أن تكون مجنوناً كحلحلوك.. هذا قدرك.. أن تطالب بمنصب الرجل الكبير في سلطنتنا.. هذه بذاءة ألسنة.. نعم بذاءة ألسنة. رف الصياح

محلّقا بجانب الأذن.. مس حلمتها وطبلتها ونسيجها الداخلي، وأرقص شمعاً متماسكاً.. مس مراكز التوازن في القاع.. خلخلها كلها.. ولكن هل يعفى عن بذاءة الألسنة يا مساعد؟.. هل نلغي أعمالكم الجليلة يا مساعد؟ هل نسمح باستخدام صياح الرجرجة كمقاليع لهدم عرشنا؟
لا لا يا مساعد.. اتبعوا إحساسكم.. اتبعوه إلى النهاية:

الرزينة نظر حبايب.. ابنة المرحوم راعي الأغنام نظر حبايب.. طلبك مرفوض يا بنية.. صيحي بعد عام.

بعد عام؟

- بعد عام؟
- بعد عام؟
- بعد عام؟

لم تكن حسرات الرزينة، لأنها تحسرت حسراتها كلها قبل أن تأتي.

ولا حسرات جبروتي، لأن ولد الحُور تعود على نسيان الزمن.. منذ أن فصل من (مهلة التفكير) حياته كلها.. وكانت سخرية ومرة وحنظل، أن توضع الرزينة نفسها في مهلة للتفكير.. ليت مهلته كانت عاماً فقط.. لكان قد جهز كل شيء.

أيضاً لم تكن حسرات أهل الجوار في الرديم، الذين جاءوا أصلاً ليتحسروا.. دون انتظار لحكم سلطاني.. ولكن (بعد عام؟) الدامعة تلك، كانت من قبائل وقرى ومدن.. وحلوق ما ظنت أبداً أن في قلب السلطان عصا يمكن أن تهش مثل تلك الرقة.. شديد.. ربما.. صارم.. ربما.. مستنشق كبير للرقة.. نعم.. نعم.. وتحت إيواء (الهجليج) الذي كانت الريح الآن تقهره، وتحيله إلى جذوع عارية.. كأن آذانا قد حُكّت، وكأن صمغاً قد خرج، وكأن عيوناً قد رنت إلى ذيل السلسلة سائلة عن الخطب.

أمسكها جبروتي من اليد المقهورة لأول مرة منذ أن دخلت قلبه

ولم تخرج. كان في قمة السعادة الخائنة، السعادة التي تلذذت بالرعشة، وبالخوف، وبإحساس فقدان طعم الأشياء الذي تحسه الآن.. وفي الطريق إلى البيت سألته عن طعم الملح كيف يبدو؟ وعن طعم عصيدة الدخن.. كيف يبدو؟، وعن طعم الدجاج المطبوخ بماء ثمر القضيم.. هل سأحبه إذا أكلته؟.. لا أعرف الطعم يا جبروتي.. أحس في لساني غباء لم أعرفه من قبل..

وصلا إلى حي (الرديم) والريح هدأت قليلاً، والمقهورة الآن تذكرت الطعوم كلّها حتى تلك التي لم تتذوقها من قبل، لكنها فقدت لياقة السلوك.. أرادت أن تشكره على كل ما قدمه من أجل أسرتها منذ أن عرفوه، فدعته إلى دخول البيت، وأرادت أن تصلح الغلطة وتطرده، فأحضرت له ملاءة ولحاف.. وأرادت أن تصلح الغلطة الأولى والثانية معاً.. تطرده، وتعيد الملاءة واللحاف إلى الداخل، فجلست بجانبه، وفي اللحظة التي كان جبروتي فيها متسارع الأنفاس ونهم الخلايا، يتوقع الغلطة الرابعة التي ستلقي به حتما في تلك الأحضان الدافئة.. استعادت الرزينة لياقة السلوك، وانتهى أمر تلك الليلة.. انتهى نظيفا في بيت نظر حبايب.. وحسرة كبيرة في جحر جبروتي ولد الحُور.. وعلى مدى عدة أشهر كانت الرزينة تفقد حاسة وتستعيد حاسة، تنسى شيئاً وتذّكر شيئاً.. فقد رقصت وغنت في فرح مجاور فقير، ظانة نفسها (جديلة) المغنية.. عطفت على الخصي (نجّام) بشدة باعتباره طفلاً يتيماً، وعلى المرأة العجوز (أم الرديم) باعتبارها عنزة لا تدر اللبن.. غازلت فتاة في الحي باعتبار نفسها فتى مراهقا، لبست درعا، ودقت طبلا من النحاس الأجوف في الشوارع باعتبار نفسها جندياً يستعد للحرب. كانوا يراقبونها في الرديم ويشهقون.. يصححون أخطاءها ويشهقون، وفكر جبروتي أن يصيح بشأنها في مجلس (الكوراك) السلطاني، طالبا أي معونة، وذهب بالفعل إلى إحدى الجمع، لكن خوفه من شيء منعه، وتوجسه من أشياء

أعـاده إلى حـي (الرديم) حلقا منتفخـا كما ذهب.. لكنـه تمكن في تلك الأيام من إمسـاك يدها، وإسـناد ظهرها في لحظات الدوار، وأيضاً رشها بقطرات من عطر(النضارة) المخزّن وإعادة استنشـاقه. وحين شـفيت في النهاية بعد تلاوات، وبسـملات، وأعشـاب مـرة.. وزيـارات من حكماء غير موهوبين، لم تعد رزينة الحرير، وأشرطة الخرز الملونة، ولكن رزينة الحياة القاسية والمزمجرة الرياح.

مرحلتك الثانية أبي الشيخ..

فـي مسـتنقع صياغـة الرعاع كانـت نظـرات الصقور المهووسـة لا تهدأ، لسـان المهام الجليلة يطرق على الحديد وهو سـاخن.. وهو بارد. اضربوا هنا.. سـاووا هنا.. شـدوا على تلـك الأذن.. رشـوا على العيون غبـار المغامرة.. ضعـوا على الظهـر المزيد.. فرقوا بيـن جنس وجنس.. أغبياء.. اسرعوا.. اسرعوا.. نتبع إحساسنا..

مـن كوخ إلـى كوخ.. من مـاء فاتر إلـى صديد يغلي، مـن مطرقة إلى سـوط من سـياط جلد البقر.. مـن (أميبا) إلى (بلهارسـيا).. مـن جرب إلى طاعون.. كان الظهر قد اتسع فعلا، حول العنق نبتت علامات الأصالة الفذة، وما عادت الحوافر تشتكي من رمل أو بقع من الطين أو حجارة من الزلط.. المؤخـرة تضـخ الدمامـل لابد.. وتجـارب الغزو علـى أشـدها.. وفي تلك الأيام اسـتعاد بشـدة ما رددته (درة) المنجمة، وما ردده (رسـول الأفغاني)، وما ردده الآخرون أيام أن سعى إليهم مبتلعاً لذلك الحلم الأهوج..

(تكبر يا آدم نظر.. تكبر كثيراً.. الظهر ينحني، امرأة تبصق.. وشيء عزيز يضيع).

كان الآن يعرف.. ولم يكن يخشـى من ضياع شيء.. فقد مات كل شـيء.. حتى الجليل المهاب مات.. مات فرسـه.. ماتت عمامة الضباب على رأسـه.. ومـات العبيد الخـوارق الذين يحملون كيانـه إلى الأرض. كانـت الغوامض قد تكشـفت لـه بالتدريج، وفـي ذلك المسـتنقع الغزير

التكوين والذي تضاف إلى بنيانه كل يوم معضلة يرسمها الأمير أولا على طاولته الخشبية ثم على أرض الواقع، التقى بعلماء كانوا قد نسيوا في سياق الحياة في (أنسابة)، وعدد من أبناء حيه اندثروا في ظروف غير معروفة. شاهدهم حميرا وخرافا ونعاجا تدر اللبن.. وشاهدهم واسعي الأعين ويحملون نظرات جائرة، وشاهدهم عيالا يصرخون في فوضى ونزق وكان بعضهم بالفعل رجالا وأضدادهم.وكان بعض العاملين في السرداب الآمن الذي طلبه السلطان رغد، قد عادوا بعد أن اكتملت مهمتهم وتسلم السلطان خريطة سردابه، لم يكونوا أحياء يمكن استضافتهم في حديث، أو إضحاكهم بنكتة أو إسكانهم تحت سقف وأغطية أو يتوقع صراخهم حين يقرصوا. ولكن أمواتا خرجوا من قبر إلى قبر.. التقى بالشيخ القرَشي.. ذلك الفقيه الذي صاح في مجلس (الكوراك) ضد فقرة مساواة الخصيان بالرجال.. لم يكن هنا فقيها بأي حال من الأحوال.. كان في الواقع رجُلاً وضده.. خصيّا كاملاً، وكان مكلفا بإعداد وجبة الصقور الجارحة للأمير مساعد.والتقى أيضاً بأحد زملائه في مدرسة المهاجر (عبد الرب) وكان قد اختفى منذ مدة طويلة.. كان حماراً يأبى التطور إلى أبعد من ذلك..

الفرس (شبرق).. ولد قبيلة (الشباريق) الذي شد القرية بحبل سخيف وفي يوم احتفالي تافه، ما عاد يأكل كثيراً، أو يتحدث كثيراً، وما عادت دمامل الظهر تكويه كما كانت.. كان ينام واقفاً.. يشخر في النوم بلذة معذب، ويصحو من النوم بإرهاق حارس لم ينم للحظة. وحين يخرج إلى واحدة من تلك المهام الجليلة حاملا سيده، يخرج إليها بلا إحساس.كان (آدم نظر) قد أحبه.. أحس به صديقا عاثر الحظ.. ليس مثله.. فهو الذي سعى إلى الرعاع بنفسه، ولكن مثل جبروتي ربما.. أحدهما كان يجر حبلا سخيفاً وسقط.. والآخر كان ولدا للحور يجر عشقا سخيفا وسقط أيضاً.. لن تكون الرزينة أرحم على جبروتي كما لو

كان قد صنف رعاعياً..

جبروتي أين أنت؟

الخصي (قلب الأسد - قلوب).. الرجل وضده، كان يتأسف كثيراً.. يتأسف من- فئران أكلها، وعيال آذاهم، ومسلاطية هدمها وهدمته.. أجاد فن الطهي، وفن غسيل الثياب، وفنون الحياكة والتطريز، وتسريح الشعر، وحراسة السلطانات المتمردات.. كان يبدو لامعاً بشكل دائم، ويبدو متخما بالهرمونات، ويبدو كما لو كان سيستعيد شيئاً ما.

وفي يوم خروجه الذي حدث بغتة، جاء إلى (آدم نظر) راكضا..

- وداعاً أبي الشيخ.. الآن أذهب إلى قصر المسك.. عند السلطانة مسك النساء.. يريدونني هناك.شكراً.. شكراً..

كان فرحاً بصورة لا تصدق.. ولن يعود أبداً إلى ديار (المساليط).. وإلى (حرّة) التي هدمته.. افتقده (آدم نظر) كثيراً.. افتقد لمسة الضد فيه، تلك التي كانت تشعرهم بدفء الأسرة..

للمرة الثانية في ذلك اليوم، جاء الأمير إلى كوخه، كانتا مرتين تافهتين، لأن الأمير لم يكن ملثّماً ولا اهتم بإزالة مخاط كثيف من حواف أنفه، وبذلك الوجه وتلك التقاطيع وازرقاق في واحدة من الشفتين، احتاج (آدم نظر) إلى أكثر من نسيان لينسى وأكثر من حلق ليبتلع ريقه..

مد يده إلى (آدم نظر).. اقرأ طالعي.. اقرأ طالعي أيها الفرس.. كانت يدا مجنونة بحق.. فيها عروق زرقاء وعروق سوداء، وفيها عرق يوشك أن ينفجر.. وكانت خطوطها من التعرج بحيث لا يمكن قراءتها أبداً.. لم يكن (آدم نظر) يعرف شيئاً عن التنجيم أو قراءة الكف.. لكنه يعرف كيف يرد.. طالعك في السماء كما هو مولاي الأمير لم يتغير. لم يكن يعرف ما هو ذلك (الكما هو).. جملة سمعهم يرددونها وتعجب الأمير.. استعاد يده إليه.. تحدث إلى نفسه برهة، وحين استدار لينصرف.. مرت نظرات الصقور المهووسة على ظهر (آدم نظر) وسكنت.. إذن حانت

ساعة المهمة الجليلة على ظهرك أبي الشيخ..

ردد (آدم نظر) وانكمش مرتعشا في حوافره.

- مولاي الأمير نحن على أعتاب حي الرديم.. هل ندخل من الشرق أم الغرب أم الجنوب؟

- ادخلوا من الجهات كلها..

هل نمص ثمار اللالوب كما كنا نفعل في كل مرة؟

مُصُّوها..

دخلوا إلى الحي بالفعل، كانوا على أحصنة وعلى نوق، وكانوا مشاة، كانوا يصرخون، وكانوا يهمسون، وكانوا موغلين في الصمت.. لم ينهروا أحداً، ولم يقهروا أحداً وما رفعوا عينا محمرّة إلى أحد. جاءتهم المياه النقية، فرفضوها.. جاءتهم أقداح من عصائد (الحميض)، واللبن الرائب، فرفضوها، وجاءهم الخصي (نجّام) مؤملا استعادة وظيفته، فما سألوه، وجيران الخصي نجّام، فما سألوهم، وشاهدوا (جبروتي) يخرج من جحره باتجاه مقر (الرزينة) فما استقر في أعينهم إلا برهة.. لم يطرقوا على باب ولا اقتلعوا نافذة، ولا سرقوا برشاً أو قلة من الفخار، ولا علّقوا على رداءة الكحل في أعين النساء أو ارتداء بعض الأطفال لسراويل آبائهم. كانوا عابرين بالحي.. وعابرين في غاية الكمال والتهذيب، وكان الأمير يتوسطهم.. صقوره المهووسة ساكنة لا تطير، ودابته التي يركب على ظهرها تتهادى في عذوبة.. لم تكن فرساً ولا ناقة ولا حماراً وحشياً، ولكن ابن الرديم، الصبي الحالم (آدم نظر).خرجوا مطرزين بالشهقات.. ومتبوعين بشهامة الذعر التي كانت مجرد غيظ ولكن بلا حراك.. ولم تكن هناك أية علامة للتعجب أو الاستفهام.. فقد كان المغزى مكتوباً ومكتوباً بخط واضح.. كتبته حوافر الدابة الفقيرة على الأرض، وهي تحمل رجل المهام الجليلة.

-7-

في البداية لم يكن أحد يعرف أبداً سر تلك العلاقة التي نشأت بين (الرزينة نظر)، مهرجان (جوا جوا) السابق، والأخت الهائمة الجريحة الآن، وبين الخصي (نجّام) طباخ الطيور الجارحة المستغنى عن خدماته من قبل الأمير (مساعد)، خاصة إن تلك العلاقة قد نشأت في أعقاب ذلك الزحف الرعاعي على حي الرديم، وظهور ابن الحي دابة تحت ثقل الأمير وغازات بطنه. فلم يكن (نجّام) ابناً خالصاً لحي الرديم.. لم يولد هناك، ولم يحبو هناك، ولم يؤخذ قسراً من الحي ويعاد هكذا كما حدث لآخرين.. فقد وجدوه في الحي فجأة منذ عدة أعوام، حين كان الرجال منشغلين بأنباء تحرشات الحدود، واحتمال توزيع دروع الحرب، وأجولة السكر والدخن، والنساء منشغلات أيضاً بتعلم العيش بلا رجال في حال أن نشبت الحرب.كان يبني كوخاً من القش اليابس من ذلك النوع الذي تعافه حتى السكنى المعدمة.. ثم عدله إلى صفيح صدئ، ليشيده في النهاية طيناً مثل كل طين البيوت.وعرفوا من رقة في حواجبه، واتساع في حوضه، ومهارة في إخفاء العمر، وذلك الثوب المرتفع إلى مستوى السرة، أن ساكن الحي الجديد امتحان عسير من تلك الامتحانات التي تعود الزمن أن يدلقها تحت أرجل الفقراء.. في الأشهر الأولى تفهوه بشدة، كانوا يمرون من أمامه وهم يشتمون مرض (البهاق) الخصي ومرض (الهيضة) المخنث.. يمر من أمامهم، فيقولون: أتفه الحمير تلك التي بلا ذكورة.. تفهوه حين فتح بابه، وحين أغلقه، وحين تحدث وحين صمت، وحين صلى معهم، وحين لم يصل، وحين جاء شهر(رمضان) وحين مضى شهر (رمضان) وحين قال كل عام وأنتم

بخير في صباح العيد، وحين لم يقل.وفي اليوم المحدد، والذي حدده الحي كله، لطرده ودك بيت الطين على آثاره، بعد أن بدأت النساء في استعارة خرزه، وأمشاطه، ومراود كحله الشرس، صدرت تلك اللائحة المعدلة في الدستور بتوقيع السلطان (رغد) والتي تجيز مساواة خصيان السلطنة بالرجال، واستدعائهم للشهادة إن لزم الأمر.

كان محظوظا بلا شك.. محظوظا لأن أهله (البيقو) كانوا بلا جدوى حتى في مصائب أكبر من تلك.. ومحظوظا لأن قضايا كثيرة، ومتشابكة كانت في حاجة إلى شهادته، والأهم من ذلك كله.. ذلك التلويح الخفي أولا ثم العلني بعد ذلك، بعلاقته بالأمير مساعد.. وأنه طباخه الأثير لكن في إجازة مفتوحة سيعود بعدها حتما إلى العمل.. الأمير يحب حسائي ولن تمر أيام حتى يستعيدني..

تراجعوا إلى نقطة البدء بجدارة، ابتكروا تحرشات محلية ينشغلون بها عوضاً عن تحرشات الحدود التي هدأت.. وتركوا للنساء مطلق الخيار في أن يستلفن منه أو يسلفنه، يستخدمن كحله أو يمنحنه من كحلهن.. يضحكن عنده أو يضحكنه عندهن.. والواقع أن (نجَّام) لم يكن مؤذيا لمناخ الرديم، ولا ضارا بإرثه كثيراً، ولم يكن أشد قمامة من كثيرين، ولدوا في الحي واستنشقوا عاداته.. فهو لم يسرق، ولم يتعارك، ولم يرفع الثوب إلى مستوى السرة إلا في لحظات الانفعال الإنساني والتي كانت قليلة عنده، أيضاً لم يقل أبداً لأطفال الشقاوة الذين كانوا يردمونه بالحجارة أثناء مروره بالطريق.. لا تردموني، ولم يقل للألسنة التي كانت تسلقه حين تلمح مشيته أو قميصه الذي في مستوى السرة.. لا تسلقيني.. ولم يرد واحدة أرادت كحلاً أو مرطباً للوجه.. كان يزيل من عينيه ومن وجهه، ويعطيها.وبعد عدة أشهر تطور فهم الرديم لحالته وحالة أمثاله من الخصيان الذين كانوا ينتشرون في مجتمع (أنسابة) وتزداد أعدادهم باستمرار.. اعتبروهم ضحايا لا مضحين، ونعاج هشة لا

ذئاب ضارية، وثمار حميض أتلفتها الريح ولم تتلف بمحض اختيارها.
لم يعطوه آذانهم ليحدثها، لكنهم لم يسحبوها حين تحدث، لم يدعوه إلى مجالسهم أو مآدب أفراحهم، لكنهم لم ينهروه حين جاء، ولم يطلبوا شهادته في نزاعاتهم المحلية، لكنهم لم يردوها حين أدلى بها.. وبعد أشهر أكثر ملامسة واحتكاكا، اكتشفوا فيه مزايا لم تكن توجد إلا عند القليلين، اكتشفوا يده الطاعمة التي كانت تحيل الدخن إلى شهد، وشراب «الهجليج» المر إلى حلوى وصوته الحاد جداً، والذي كان يحيل النواح على ميت فقير إلى نواح عالي المستوى.. نواح على واحد من السادة.. أيضاً اكتشفوا موهبته في إزالة الصدأ عن الأبواب.. وتدريب الحمام على العودة إلى أعشاشه، والتسرية عن المهمومين بسرد قصص لم يسمع بها أحد من قبل.. نادى (أم الرديم) أمي ونادي (الرزينة) أختي، وتذوق (جبروتي) ولد الحُور، كما لو كان معتادا على حموضة لهاثه.. وفي طوافه المعتاد على بائعي الدخن والحميض واللحم المقدد وحتى بائعات الهوى المختبئات هنا وهناك، لم يقل لبائع إلا عمي، وما خاطب بائعة للهوى إلا بلقب الشريفة، وفي ذلك اليوم المنتهك بواسطة (الرعاع) والذي بدا فيه ابن الرديم دابة تتهادى.. لم يستطع أحد أن يمحو دموع الرزينة، ودموع أمها التي أذابت جزءا من الخد.. كانوا يسمعون، ويتحسرون ويمضون، حتى جبروتي لم يستطع ذلك.. اعتبرته الرزينة في ذلك اليوم بالذات عنكبوتا، وحاولت هرسه، واعتبرته أمها.. غرغرة من خلاصة (الهجليج) لعلاج حلقها الناشف، وحاولت تغرغره. وحده (نجّام) استطاع ذلك، وبصوت أخت وصوت أم وصوت جدة، وبثوب كستور فيه رائحة صندل، وبعيني حمامة مبتسمة، استطاع أن يعيد توازن الحزن إلى مساره في بيت المرحوم (نظر حبايب).. أعد غداء الحزن وعشاء الدموع، وغسل أطباق المأساة كلها.. وكان ماهرا لأن كحله لم يسقط، وحناء أصابعه بقيت متماسكة كما هي.. لا تلوموا نجّام

على شـيء.. فهو مسـكين.. كانت قناعة الرزينة المعلنـة هكذا، وقناعتها غيـر المعلنـة.. خوفا لئيما أن تسـتلم أخاها من مسـتنقع الرعـاع هكذا.. ليست الدابة التي ظهر بها مسيئة بقدر ظهوره في شكل (نجَّام) إن ظهر.. سـاعتها لن تجد تربة لدفن وجهها، ولن تجد قماشا صـالحا لتغطية عورة العائلة.نقبـت فـي دفتر الحضـور اليومي لسـكان حي الرديم إلـى بيتها.. ذلك الدفتر الذي تسـجله في ذاكرتها.. كانت تبحث عن (رديمي) شـهم أو (رديمـي) لـه مواصفـات دابة تحـورت إلى خصـي.. نقبت فـي دفتر الرسائل التي كانت تصلها متقطعة من أهلها التنجر في اختبائهم البعيد.. كانت تبحث عن ظهر ليس مشـوها بجينات عـدم الصبغة.. لم تعثر على الشـهم، ولـم تعثـر على الظهـر، وعثـرت على الدابـة التـي تحولت إلى (نجَّام)، والتصقت بالخصي لمحاولة اكتشـاف طـرق الرعاع في إنهائهم لخيانـة رجل.. لم تكن قد يئسـت تماماً حتى تلـك اللحظة، وتوقعت أن تدعوها (السـحابة) إلى قصرهـا في أي يوم مـن الأيام، لتخبرهـا بانتهاء المأساة، وتعينها قائدة لطاهرات (أنسـابة) من جديد.. توقعت أن يباغتها اعتذار من السلطان رغد لسـوء تعامله مع الرقة، وتوقعت أن يطوف مناد في (جوا جوا)، يعلن الحداد على أمير معتوه مات بالسم..

علمنـي طريقة طهوك لحسـاء الطيور الجارحة يا نجَّـام.. علمني يا صديق..

احتضنها (نجَّـام) احتضان أم ملتاعـة.. لو نفع رجُـلاً لكانت ابنته، ولو نفع امـرأة ربما كانت حفيدتـه.. الضد وضده.. لا ذكـورة حقة، ولا أنوثة تشد الرجال.. أفلتها ليحتضنها مرة أخرى..

لن تعملي عند الأمير مسـاعد.. ولا أظن أحداً شـرب ذلك الحساء غيـره.. لماذا تتعلميـن حفر الأرض وأنت لـن تزرعي؟ لمـاذا تتعلمين الخطأ وأنت لن تخطئي؟.. تعلمي سـلق البيض.. تعلمي صناعة المديدة مـن نبـات الحلبـة.. تعلمـي تطهيـر الجـروح، وغسـل الموتـى، تعلمي

استخراج الغزل الرفيع من صدور الرجال.. تعلمي أن تلبسي على مهل.. وتضحكي على مهل، وتغتسلي بالأملاح المطهرة، ولا بأس إن تعلمت أن تمشي دون أن يلحظ أحد إنك تمشين.

من صياح الديك، وقبل أن تنتبه الحواري إلى صياح معاناتها كانت تأتيه.. توقظه من النوم عيناً ملوثة وعيناً يتطاير منها التلوث.. ترتب له كرنفال التهادي، ليتهادى، وتغرق في وسط لجة صوته التي كانت تغني تتنحنح.. أو ترسل الآهات التي لا يعرف إن كانت آهات معذب أم آهات معذبة.لم يحاول (نجّام) أن يبدو غبيا، فقد كان ترددها على بيته غالياً، ارتماؤها في أحضانه حين يبدو أمّا، غالياً، وعطر النضارة الذي استلمته من اليد المرتعشة لخطيبها ولد الحُور، وأهدته إياه بلا مناسبة، غالياً أيضاً.. تحسس تماسكها أمامه، فوجده تماسُكاً هشّاً، تحسس ضحكتها التي تضحك بها، فوجدها ضحكة غدير معكر، وتتبع نبضات قلبها من داخل الصدر إلى العنق، فرآها نبضات مذبوح.. لكن لماذا حساء الطيور الجارحة.. لماذا؟ كان يمكنها أن تسأل وكان يمكنه أن يفكر في الإجابة.. لم يكن ثمة قانون موحد في مستنقع الرعاع.. ولم يكن بناء الرعاعي ينتهي دائماً بإنهائه إلى خصي.. إلى رجل وضده.. حين كان هناك.. كان معه آخرون وحين انتهى إلى الضد انتهى آخرون إلى نهايات أخرى.. الفرس المكسر الحوافر.. الناقة التي بركت بلا قيام.. والحمار الذي مات من سقطة باهظة.. ليس كلهم مثلي.. أراد أن يقنعها.. وأراد أن يستخرج خوفها من العمق، ويحرقه دون فائدة.. إذن احضري الطيور الجارحة.. احضري لوازم الطبخ.. احضري انتباهك.. وكوني صادقة..

علمها أن تطبخ حساء الطيور الجارحة، وحساء لحم الثعالب الضالة، وكيف تصنع من النبق حلوى أسطورية، ومن بيضة واحدة وجبة تكفي لعشرين شخصاً. يراها مرة ابنته المدللة، ومرة حفيدته التائهة بلا جدوى، وحاول في مرات كثيرة أن يراها عشيقة الوله التي تتسلل إلى

أحضانه في الليالي العذبة، لكنه أخفق..

كيف كنت فيما مضى يا صديق؟.. تسأله..

كنت كأبيك.. كنت كجدك.. كنت كعشاقك الذين ربما لا تعرفينهم..

- ماذا حدث بالضبط؟

تلقي بالسؤال كما لو كانت تقول.. هل يحدث لآدم أخي ذلك؟ يبتسم الخصي بسهولة.. يضحك بلا غباء.. لا يطمئنها لكنه يلكزها لتسرع.. ليس ثمة قانون موحد ينتهي إليه المجندون.. وما دمت تسرعين فقد يخف الضرر. كانت الرزينة تبكي.. استنفدت سعيها وبلا أمل.. أهملتها السحابة في مواكب الفوانيس، وذكرى تولي العرش تقترب.. لم يأت اعتذار السلطان عن سوء معاملته للرقة أبداً، ولم ينع أي ناع في (جوا جوا) أميرا معتوها مات من رشقة سهم أو غليان سم.. ماذا ستفعل.. ماذا ستفعل؟ احفري في الخرس أكثر.. جربي جمعة أخرى.. وأخرى.. مضى العام الذي حدد لك.. اذهبي.. اذهبي..

تذهب إلى اضطراب الأيام.. تذهب إلى السهر تذهب إلى الحمى.

كان (جبروتي) مستاء بشدة.. فمنذ تعلق بهواء الرزينة، والهواء يبدو ثقيلا على التنفس.. يحبها جداً.. ويقدر ظروف حياتها جداً.. وقد استعد مراراً ليفديها، ولكن بعيداً عن التهلكة.. رفضت أن تشم عطره مراراً، وأهدته إلى خصي، تملصت من عذابات يده، واستسلمت للجوع.. غريبة هذه الرزينة، وغريب هو.. وغريبة علاقة ولد للحور.. بطاهرة كان يمكن أن تصير سلطانة.. وذلك (النجّام) الذي يمشي متهاديا في أتراح روحه المعنوية.. كلمه مرة.. وفوجئ به لا يرد.. يرفع ثوبه إلى مستوى السرة وينصرف. كلمه مرتين وعشر، وفوجئ به لا يرد، يلقي برقبته إلى اليسار وينصرف.. قالت له الرزينة.. لست وليا لأمري.. أنا أفكر في عرضك للزواج مني.. أنا أفكر.. لكنني لم أنتقل إلى بيتك. أغلقت باب نخوته

بالقفـل المتين الذي كان أصلاً موجوداً ولكـن يتزحزح بين حين وآخر ساعتها تمنى جبروتي لو تاهت مرة أخرى وظنته فارسا من فرسان عهد بعيد، لو فاجأها الدوار.. ولو سقطت على يده.. وفي ظروف كتلك، كان يمكن أن يتمنى لو عـاد مرة أخرى ريفيا في قريـة (أم حراب) فيه رائحة أمـه، وفيـه عذابات يمكـن تذوقها، ويمـر الشمامسـة المتجولـون، ويمر السياح، فيلحسهم ويلحسونه.. لكن ولد الحُور لم يتمن ذلك أبداً.. على العكـس كان نادماً على وجـوده المتأخر في (جوا جـوا).. كانت تجارته فـي متجر (يسـر ولا تعسـر) قد تدهـورت. دهورهـا هبـوط المعنويات إلى الصفر، وصعود نبض الوله إلى القمـة.. لن يترك الرزينة حتى تنتهي مهلة التفكير بالكامل.. نعم لن يتركها.. وعن طريق رعاعيين كانوا يأتون ويذهبون وكان يعرفهم، استطاع إيصال رسـالة إلى (آدم نظر).. لم تكن أشـواقا، ولا سـلاما حارا، ولا أمنيات خالصة بالرجوع سليما معافى من ذلك المستنقع، ولكن بصاقا غريب الشكل قال في طيه..

مرحبا أيها الصديق هـذا جبروتي إدريس يكرر طلبه في الزواج من أختكم الرزينة.. برغم تحولها إلى جبل.

كان الفرس (آدم) في تلك الأيام منشـغلاً بذاتـه.. لم تكن في عينه بؤرة صالحة لقراءة خطاب مسكين.. ولا كان يملك العصا الأسرية التي قد تهش الرزينة إلى بيت طالبها.. وصلته الرسالة، والمستنقع يفور ويغلي اسـتعدادا للذكرى التاسـعة عشـر لتولي السـلطان رغد مقاليد الحكم في السـلطنة.. تلك المناسـبة التي يملؤها الرعاع صخباً يليق. كانوا يوزعون على الرعاع دروعهم وأخلاقهم.. يوزعـون عليهم أوامر الكبت ونظرات الحماية في الشـوارع، وألفاظ الخدش التي قد يستخدمونها عند اللزوم. ووزعوا لـدواب الأمير مسـاعد حوافر من جلد لماع وصلـت إلى البلاد حديثاً.. هذا العام لن يحمله شـبرق في موكب السـلطان، لأن شبرق قد اسـتهلك.. ولم يعد قوياً كما كان. دورك أنت أبي الشيخ.. كن صبورا..

فـي المناسـبات الجليلة يلتهم من الطيـور الجارحة أكثرها شراسـة.. كن صبوراً على غازاته.. وكان شبرق في الواقع قد تلف.. لم يعد ظهره متيناً كفاية، وسـرت شـائعة كبرى بقرب تحويله إلى ضـد.. ارتعب (آدم نظر) لتلك الشـائعة، كان حتى تلك اللحظة يحتمي تحت مظلة الفرس شبرق. يراه قديماً في الخدمة ولم يتـم تحويره بعد، ولكن إن حدث ذلك.. فقد جاء دورك أبي الشيخ..

ألقى بالرسـالة الحُورية في تواطؤ النسـيان الـذي كان يحبه.. حين يتواطأ النسـيان ويلغيك من شـعورك لابد أن تحبه.. بتلك الفلسـفة نسي أباه، ونسـي أمه. ونسـي الرزينة.. ونسـي جبروتي، وأوشـك على نسيان أنفـه لأن لا رائحـة محـددة يمكن شـمها في ذلـك المسـتنقع.. لم يكن الرعاعيـون كلهم الأمير ولم يكونوا كلهم مسـاعدي الأمير.. كان فيهم أبنـاء وفيهم آبـاء، وفيهم دراويش حنطـوا في ذلك المسـتنقع بلا إرادة.. الآن بالذات لن يعود إلى حي الرديم.. وحتى لو استقام ظهره مرة أخرى لن يعود.. من ينسى تلك الحوافر التي حفرت بجدارة؟ من ينسى تلك العيون التي كانت أوتادا في الأرض؟ من ينسى دابة الأمير مساعد التي تهادت؟ استسـلم لمرارة إكسـير النشـاط الذي ألقوه فـي حلقه.. يكره ذلك الإكسـير جداً.. وحين يسـري في دمه يحس بأنه فرس حقيقي.. لا آدمي تنتهك آدميته.

رسـالة جديدة من ولد الحُور للفرس المخنوقة في مستنقع الرعاع، وفي حمى الاسـتعداد الكبير للذكرى التاسعة عشرة لتولي (رغد الرشيد) مقاليـد الحكم في سـلطنة (أنسـابة)، يحملهـا الرعاعيون الذيـن يذهبون ويعودون..

أيها الصديـق.. أكرر طلبي بالتقـدم إلى أختكم الرزينـة بالرغم من أن بوزهـا قد التـوى، وضفائرها قد تغيرت، ونبت فـي وجهها الكثير من النمش..

هل جن جبروتي؟ الطليق الحر في حي الرديم، يحب ويخطب، ويصنع العطور التافهة والركيكة؟ ويجد رعاعيين طيبي القلب يحملهم وزر قلبه.. لو كان فرساً يحمل المؤخرات والغازات.. لو كان ناقة تجتر ماء السفر لو كان حماراً، أو ضدًّاً وضده؟ تكفي دمامل الظهر وحدها.. يكفي تكسر الحوافر على الحصى والرمل، ويكفي حساء الطيور الجارحة الذي تكلف صناعته ماء الوجه.

وفي يوم وصول الرسالة الثالثة التي قال فيها جبروتي.. إن الرزينة لم ترتعش لذكرى أبيها صانع الطبول العظيم، وعينت تافهاً في محله بعد أن افتتحته مجدداً، كان (آدم نظر) نفسه في تفاهة غير عادية، يأكل وجبة من النبق المر، ويشرب أكاسير للنشاط بلا حصر.. لم يكن يذكر شيئاً عن طبول أو محلات أو شوارع أو إشراقات عرس.. ويذكر فقط أن في ظهره دمامل وفي وجهه غرة أصيلة.. وثمة موعد للتحوير النهائي يقترب بجنون.

لم يظهر الأمير (مساعد) في المستنقع منذ عدة أيام.. لم يلحظ أحد أي نظرات مهووسة تتقصى أو تتابع البناء الفني للمجندين إلى رعاع.. لم تمتد يده إلى أحد طالبة قراءتها كما كان يحدث يوميا.. حتى دوارق الحساء الجارح كانت ممتلئة لم تمس.. وتكونت شائعة مطلوبة بشدة، في فم الفرس (شبرق) كادت أن تغادر الفم وتسري لولا أن الفرس قمعها، وابتلع أضرارها قبل أن تضر الجميع.. هل مات بالسم؟ لا يمكن فحساء الطيور الجارحة سم لم يمته.. هل يعاني من المرض.. لا يمكن فنظرات الهوس التي يحملها هي المرض.. وضخ الغازات هو المرض.. ومد الكف للقراءة مرض أقوى وأمتن.وفي اليوم الذي كان يفترض أن تمطر السماء ولم تفعل.. وأن يشلع البرق ولم يفعل، وأن يرتسم قوس قزح في الفراغ، ولم يفعل، ظهر الأمير مساعد.. كان فخماً بطريقة لا تصدق، جبته من حرير أخضر لماع، عمامته فارهة وبلون

الضباب، ومن لثامه الوردي تتدلى خيوط من الذهب.. مد يده ل(آدم نظر).. قال:

- اقرأ طالعي أيها الفرس..

ردد الفرس..

طالعك في السماء كما هو يا مولاي.. لم يتغير..

سحبها، ومدها لشبرق، لآخرين.. رددوا كلهم..

- طالعك في السماء كما هو.. لم يتغير مولانا الأمير.

سحب الأمير يده بغتة.. مررها على الجميع في صفعات مؤذية انهرست لها الآذان.. صرخ:

بل تغير إلى الأفضل.. إلى الأفضل أيها الأغبياء..

منذ ذلك اليوم تغيرت جملة قراءة الطالع المخصصة.. وكما لم يعرف أحد ذلك (الكما هو) الذي كان سائدا في السابق. لم يعرف أحد أيضاً.. ذلك (الأفضل) الذي تطور إليه طالع الأمير.. راقبوه وهو ينصرف.. كانت مشيته مشية سارق للقطيع.. فيها هرولة وفيها حذر.. راقبوه وهو يحكم لثامه على الوجه.. كان إحكام متنكر في حفل دامي.. راقبوه وهو يجول بنظرات الطيور المهووسة.. كان تجواله عصبيّاً إلى أقصى حد. تغير إلى الأفضل.. تغير إلى الأفضل.. ظلوا يرددونها في السر يضمون الأفضل إلى صدورهم ويتمنون لو كانوا أصدقاءه.. نريد صداقتك أيها الأفضل.. ولكن..

-8-

لـم تكن الأنباء التي جـاءت راكضة من بعيد، وشـمتها أنوف (جوا جوا) الحساسـة، أنباء ملفقة أو مجرد طوب ألقى به المغرضون في الماء الراكد.كانوا حدوديين منهكين، ورعاة إبل وأبقار طاشت منهم قطعانهم، وكانـوا جنودا بعثـرت أزياء حربهـم، وتخرمت الدروع على أجسـادهم، وكنَّ نساء فقيرات سُرِقت من أعينهن النظرات ومن حلوقهن الزغاريد.. الكردماليون.. الكردماليون.. الكردماليون يغزون (أنسابة).. الكردماليون ينهبون.. يقتلون.. يغتصبون.. الكردماليون.. ذلك اليوم سـقطت أدوار شـاهقة في السـلطنة، وسـطعت أدوار جديدة كانت في ركود.. اندحرت القيلـولات والنعاسـات وأحاديـث الملـل والروتيـن، واسـتيقظ الحـس الوطني كله، انعقدت مجالس الحرب والجدات والطاهرات، وما عادت تسـمع في العاصمة سـوى همهمات الذاهبين وهم يذهبون، والمودعين وهم يودعون، وطالبي الموت وهم يطلبونه.. أُجِّلت مجالس (الكوراك) إلى أجل لم يسـم.. وعلـق الاحتفال الكبير بجلوس السـلطان رغد على عـرش السـلطنة والـذي كانت البـلاد تتزيـن له، في ذمـة الغيـب.. توقع الناس أن تتعثر القوافل، ويجوع السـوق، ويدفـن المزارعون غلالهم في الأرض.. توقعـوا أن يرتفـع سـعر الدخـن، والحميض، وتأخـذ (اللوبيا) الرخيصـة مكانة غير متوقعـة في التغذيـة.. الحرب.. الحـرب.. لم تكن المرة الأولى التي يواجه فيها الأنسـابيون خصمهم منتفشـا على الحدود، ولن تكون الأخيرة بحسـب تقديـرات المعمرين والحكمـاء الذين قدروا للبغضـاء عمرا يفوق عمـر الكرة الأرضيـة.. ولأن سـلاطين كردمال من (آل درب) هم في الأصل أنسـابيون شرفاء شـردتهم دسائس ومؤامرات،

وأطماع في السابق، فلم يتوقع أحد أن تطير (أنسابة) من وعيهم أبداً.. وكانت محاقن البغضاء متوفرة، يحقنها جيل في دم جيل وإلى الأبد.. مئات التحرشات.. عشرات الهدن ووقف لعلعة السيوف ومرة أو مرتين، زيارات مبتسمة متبادلة.. لكن الدم هو الدم.. وسيلانه هو سيلانه.. الحرب.. الحرب.. خرج المنادون بالأوامر السلطانية إلى جميع أنحاء السلطنة.. من كان يقوى على القتال فليأت.. من كان يقوى على دق النحاس، فليأت، من كان يقدر على مد المحاربين بالزاد، فليمد.. من كانت تحفظ أشعار الحماسة وتغنيها.. فهي مطلوبة بشدة.. ومن كانت ذات صوت بكّاء فهي مطلوبة بشدة.كانوا متبوعين بفصائل كتيبة الرعاع ذات الحس المشوش في تلك التوترات.. كانت تفسر (من يقوى) ب(يقوى) و(من يستطيع) ب (يستطيع)، و(من كانت تحفظ) ب (تحفظ).. لموا من القرى ومن المدن ما استطاعوا لمه.. وحصدوا مئات الأفدنة المزروعة ذرة ودخنا كزاد، كانوا رحماء بالكلاب لأنهم قتلوها، ورحماء بالقطط لأنهم أبادوها، ورحماء بالدجاج لأنهم سلقوا بيضه، وقساة على الحمير لأنهم خططوا لاستخدامها كدروع واقية حين تنشب الحرب.

كان حي (الرديم) من الأحياء التي شملتها تباريح احتمال الحرب.. اختفت سلعه القليلة من رفوف استهلاكها، وناوشه المنادون والرعاعيون.. من كان يقوى.. من كان يملك من كانت حماسية.. لا كلب.. لا قطة.. لا فأر.. ومئات الحمير التي ستستخدم كدروع.. أخذوا الأقوياء ليقاتلوا والضعفاء ليموتوا.. والزغاريد لتنوح.. أخذوا الخصي (نجّام) لأن مهمة جليلة تنتظره، والمرأة العجوز (أم الرديم) لأن الحرب في حاجة إلى كبار يحتضنون البكاء.. لم يأخذوا (ولد الحُور) لأن جلده غير المصبوغ شوشهم، ولم يعطهم تصنيفاً.. ولم يأخذوا (الرزينة) لأنها لم تكن تشبه نساء الحماسة الضاربات للدفوف.. ولا نساء البكاء

المطلوب على شهداء قد يستشهدوا.

في مستنقع الرعاع كان الأمير متسخاً.. جبته من قماش شعبي رخيص.. لثامه كأنه لثام راع، وعمامته هي نفسها عمامة الحاجب الفقير الذي يحمل قائمة الصائحين في مجلس (الكوراك).. مد يده إلى الأحصنة والخصيان والنوق..

أقرأوا.. اقرأوا طالعي..

(طالعك في السماء تغير إلى الأفضل.. مولانا الأمير)..

رددوا.

جاءتهم الصفعات مؤلمة، ومغيبة للسمع..

كما هو لم يتغير أيها الخونة.

إنها معضلة الحظ.. وربما توتر الحرب.. لا أحد يستطيع التكهن.. كانوا مستعدين لتنخر ظهورهم، ومستعدين لنمو الدمامل في سلاسلهم الفقارية.. ولم يكونوا أبداً مستعدين لمجابهة تلك اليد.. في السماء كما هو تغير إلى الأفضل..

لم يكن من المفترض أن يكون لأمن السلطنة ذلك الدور المتهور.. لكن الرعاع لم يكونوا أمنا.. ولم يكونوا غير أمن.. نشطت خلاياهم كلها.. وتوقفت أعمال الرصف والبناء والتحوير، وفوجئ المجندون بتقشف التغذية الذي طالهم.. وجدوا اللحم مجرد عظام، والدخن عصائد مهلهلة كأنها تقدم لطير

كانت (جوا جوا) الآن عاصمة نظيفة.. نظيفة من فضلات الشوارع، ونكد المراهقين، وإحراج التسول، وبرك ماء الاستحمام.. ذهبوا كلهم للحرب.. ذهب السلطان رغد، وكبير ممارسي الطب دوباجي، والمفتي لاليا البرناوي، والترزي كردم كردمان الذي فصل للكبار أزياء حربهم على عجل، ذهبت السيوف، وذهبت المدى والعكاكيز، وحتى المهاجر (عباد عبد الرب) الذي كان يأمل في دور تفاوضي يكسبه لقبا جديداً،

وتركوا الجليل المهاب (يوسف كرا) سلطاناً على سلطنة بلا حياة.. لم يذهب الأمير مساعد لأن مهامه الجليلة كانت تشده للداخل.. كانت نظراته تجول في العاصمة.. إحساسه في تتبع الخلل يتركز وعيناه على نائب السلطان تمنعانه من الانتفاخ أو الزهو بكرسي لن يجلس عليه كثيراً.. وكان (آدم نظر) مستمتعاً بعض الشيء وهو تحت ثقل الأمير في تجواله.. شاهد أناساً يعرفهم، ولمح جبروتي، واقترب كثيراً من خيال أخته الرزينة الذي كان يشاهده في الشوارع.. لم يعرف أبداً أن أمه زوجّته في خيالها بواحدة من جميلات (جوا جوا)، واحتفت بعياله المتخيلين احتفاءً مُراً، ولم يعرف أبداً أن أخته الرزينة كانت فنانة بحق وهي تصنع حساء الطيور الجارحة والماضغة للرميات، بشكل يومي وتدلقه..

كانت أنباء الحرب تأتي بكثرة، تأتي نقية وأحياناً غارقة في الشوائب.. يرسلها التوتر البعيد، ويهضمها الانتظار الممل دون مضغ..

قتلنا منهم مائة..

استولينا على واحدة من قوافلهم..

قتلوا منا أربعة عشر فرداً في كمين..

السلطان رغد يسعى للوصول إلى عاصمتهم (دبيرا).

الشيخ عباد عبد الرب يقول إنه سيتوصل إلى هدنة.

اسمعوا هذه الأغنية الحماسية..

خيل أبوك هرشات.

في الدرب طاشات.

راح ندك بلدك..

بي ولاد وبنات.

هاشم الملعون..

لاعنه رب الكون.

احنا أسيادك..

للبلد ما نخون.

وكانت أكثر الأنباء استدراراً للعاب الفضول، تلك التي تحدثت عن شقراوات مشفى العناية الألهية اللائي كن يقمن في (كردمال) بعد فرارهن الليلي والمتعجل من فتوى (لاليا البرناوي) التي صدرت في حقهن، قالوا وجدوهن نشطات وكثيرات الثرثرة، يتهبن من الرعاة والمزارعين إيمانهم، يتغلغلن في وجدان ربات البيوت بحيل وحيل، ويطعمن الصغار من حلوى ملوَّنة، فقطعوا ألسنتهن. وقيل وجدوهن خيِّرات، ونقيات، ويعالجن البسطاء في نكران ذات، فأثنوا عليهن، وقيل لم يجدوهن أصلاً، لأن الحرب كانت ضارية، ولم يكن بالإمكان العثور على غريب أو حتى قريب في وسط ذلك السعر.. وفيما بعد حين عاد العائدون وتحدثوا، لم يقل أحد شيئاً عن شقراوات.. وحتى أولئك الجرحى كانوا معالجين بأسلوب العلاج المتوارث.. الخياطة التقليدية.. لبخات (القرض) ومراهم النباتات التي كانت توقف النزف.وقد تزامن اشتعال الحرب مع تلك العصابات التي نظمتها ذئاب البراري بعد أن أحست بالأمن في غيبة الأقوياء، كانت عصابات منظمة، وتستهدف الدجاج، وما تبقى من الغنم، وتسلطنت على كثير من القرى، وترتب على ذلك أن قويت شوكة النساء الملولات وعاشقات الانتظار، فالتقطن نخوة غريبة عالجن بها الأمر.

وفي تلك الأيام أيضاً نشطت الخيالات الوسخة عن جمال (الكردماليات).. عن شعورهن التي كالليل، ووجوههن التي كالقمر، وعن أجسادهن التي تستعمر الشهوة وتشد اللعاب، السبايا.. السبايا.. كان الرجال يرددون.. اللعنة اللعنة.. كانت الأنسابيات يهتفن.

ثم جاء الخبر الثقيل بغتة يتراكض من منبع الحرب بعد ستة أشهر من اندلاعها.. فقد استولى الأنسابيون على سلطنة (كردمال) بالفعل..

وصلوا حتى عاصمتها (دبيرا)، وفر سلطانها (هاشم درب) إلى جهة غير معلومة ربما كانت ممالك الوسط.. كانت أخباراً مؤكدة لأن كثيراً من المقاتلين عادوا، عادوا وبرفقتهم تذكارات كردمالية جلبوها من هناك، وعادوا وبرفقتهم جروح لم تندمل بعد، وآثار هلع نفسي كبيرة.. وفي ساحة (أنسابة) الكبيرة التي كانت مخصصة للفرح ومخصصة للحزن، ومخصصة لأشياء أخرى عديدة، تجمع أهل (جوا جوا).. وأهل الجوار وأهل تلك الجبال البعيدة الذين قدموا على عجل واسعي الآذان.. كانوا على موعد مع الأب الشيخ (يوسف كرا) نائب السلطان في خطاب مفسر للأمر.. كان خطاباً كبيراً بالفعل ألقاه صوت الهيبة الرقراق في بطء وفي تفاؤل.. وصف الذين تحملوا وزر الحرب بالمجاهدين والذين ماتوا بالشهداء والذين عادوا إلى البلاد بالأبطال العائدين.. وصف السلطان رغد بالقائد والكبير.. ودخوله (دبيرا) عاصمة التمرد بدخول النور المشع إلى أرض الظلام، ولم ينس أن يلمع فقرة خاصة يدهن بها سيرة الأمير مساعد، عين الوطن التي ما نامت منذ وجدت ولن تنام ما بقيت.. وحين سئل عن حقيقة الجرح الذي أصيب به السلطان في كتفه من سهم أثناء مطاردته للخونة في أحراش (كردمال)، وضح صوت الهيبة الرقراق بأنها شائعة ربما بثها الخونة أنفسهم إحداثا للبلبلة، ومولانا السلطان في أتم صحة وعافية.

ونطت واحدة من جيل (أنسابة) الجديد الذي غير كثيراً من زي المرأة وصوتها، وطريقة تفكيرها، إلى حلق الهيبة الرقراق..

ما موقعنا في خطة التعمير الجديدة، نحن الفتيات الأنسابيات.. أبي الشيخ؟ هل سنعمل ونعمر أم نظل قعيدات البيوت؟

كان سؤالا مباغتا هز في الشيخ المهاب كيانه الهرموني، لم يكن من سلطة نائب السلطان أن يقترح وأن يحل، وأن يربط، وأن يواكب الطموح المتمرد، ولم يكن في ذهنه خط واضح يسير به خلف واحدة

تحرريـة إلى النهاية.. تنحنـح واضطرب، وبانت قواطـع ذهبية مخبأة بين شفتيه، قال..

حين يعود مولاي.. حين يعود مولاي..

سـئل عـن مكافـأة الأبطـال.. حين يعـود مـولاي.. عن دعم أسـر الشـهداء.. عن خفض أسـعار السـلع، عن دعم السـلطنة للبرسـيم.. عن الغلال الغائرة في الأرض وجشـع المزارعين.. حين يعود مولاي.. حين يعود مولاي..

كان جبروتـي والرزينة يسـتمعان بتأن.. ولـم يكن ثمـة تخيل محدد لبطل قاتل أو شهيد استشهد، ولـم يكن ثمة احترام خاص لعائد عاد.. كان مجرد استماع عادي من مواطنين عاديين لنائب سلطان رقيق الحس يلقي خطاباً.. وكانت الرزينة مستغربة بشدة، ونقلت استغرابها إلى مرافقها ولد الحُـور في لحظة دفئه بقربهـا، ما الذي أعجب (آدم نظـر) في هذا الأب الهرمونـي حتى ليموت مـن أجله؟ ما الـذي أعجبه؟.. علـى العكس لم يعجبهـا صوته أبـداً، ولا تخيلته فـي ذهنها المتوعك، غيـر خصي عادي ربما يتجول الآن في قصر المسك طابخاً أو حارساً أو عاجنا للحميض.. فقـط كان الفرق فـي نظافة الكبار وعمامـة الضباب الفخمـة. وفي الأيام التاليـة تحدثـوا كثيراً عن عودة السـلطان رغـد.. قالوا هـو الآن في دبيرا النظيفة ينشـر نـوره، ويتلقى بيعـة الكردماليين.. وقد وضـع على حكمها سلطاناً جديداً.. يخضع لسلاطين (أنسابة) بالولاء، ولا يمت بصلة لعائلة (درب) المندحرة.. سيعود (رغد الرشـيد) قريباً.. وستعود جمع الصياح بعودته.وكانـت الأيـام التالية أيضـاً.. سـوقاً متشـعبة لمعاينـة العائدين.. واحتضانهم، ومعاينة غير العائدين وبكائهـم.. وقد بكى حي (الرديـم) كله عندمـا لـم تعد أمه العجـوز (النسـيم).. والتي قيل أنها ماتت في السـفر، ولـم تبلـغ الحدود، وقيل دفنت فـي العراء، ولن يعرف قبرهـا أبداً.. وقد أقـام لها الحي جنازتهـا المبجلة كما لـو كانت قد ماتـت بداخله.. كانوا

يدفنـون خرقهـا القديمـة، يدفنـون أكـواب شـايها، ومواقد صناعـة بنها، وكانـوا يقـرءون القـرآن، ويتلقون العـزاء.. وقـد لطمت في ذلك الشـأن مئات الخدود، شـقت مئات الجيـوب، وهطلت من أعيـن الرجال دموع الفقد.وقد كان ثمـة اقتراح نفذ على الفور، وهو تحويـل بيتها الفقير إلى مزار.. يذرف بداخله الدمع كلما اشـتد اكتئاب الحي أو تأزمت أنفاسـه. (نجَّام) الخصي عاد.. كان مغبرا، وبلا ضفائـر، ولا لمعة هرمونية.. كان طبَّاخـاً مرافقـاً.. ونائحـاً مترهل الصوت ومسـاعدا لنسـاء الحماسـة في مهمتهن الشـاقة والجليلة. ومن بيـن دموع ناداها من قاعـه، وفي حضرة أهـل الرديم الذين تجمعوا مـن كل جحر لمواسـاته.. حكى عن الحرب كأشـنع ما تكـون الحكايـات.. قـال الحرب رمـة.. الحرب ليسـت بنت ناس.. الحرب كادت تقتلني.. وكما توقعت الخيالات الوسخة، فقد جاء بعض العائدين بالسبايا.. كن كردماليات مسكينات، كن فتيات لم يبلغن، وأرامل بلغن، وتزوجن وفقدن، وكن أمهات مكسـرات الشـعور، وأقرب للخدم منهن إلى مدرات الشـهوة.. تنفست الأنسابيات بارتياح، وسكنت الخيـالات لا تتحرك.وحين عرضن في سـاحة (أنسـابة) الكبيرة بعد مدة من تلك الحـرب، كن يعرضن كعذابات إنسـانية أوجدتهـا حرب الطمع وحرب الخسارة.

-9-

جمعة الصياحات المفتقدة بعد غيبة طويلة فرضتها تعاسة الحرب، ازدانـت أشـجار (الهجليج) التـي تمنح الظـل والمأوى بأعلام (أنسـابة) الخضـراء والوردية، دهنت حوائط قصر (المسـك) بأبيض لماع اسـتورد من خارج السـلطنة على عجـل، دهنت نوافذه بالأخضـر الزرعي، وباب المهوقني الذي يتوسـطه، بأزرق شـفاف كان يمنحه البريق.. ملئت أزيار الفخـار المكلفة بالسـقاية حتـى أعناقهـا.. طيرت فـي السـماء حمامات بيضاء للسلام، وبركت في الطرق التي تؤدي إلى قصر الصياحات، مئات الـدواب التـي حملت الأعـلام الخضراء والورديـة أيضاً.كانت السلسـلة السـباعية في زي جديد، وكان الحاجب نفسـه في زي جديد والخصيان الذين يحرسـون ويروحـون ويجيئون بأزياء جديدة أيضاً.جاء أهل (أنسابة) كمـا لم يجيئوا أبداً من قبل وحتى في الجمعة الظليلة، جاءوا من رأسـها القاحل ورأسها الممتلئ ضجة.. من بطنها الممتلئ عزة، من أكتافها التي تحملت الوزر، ومن سـاقيها اللتيـن لن تنفرجا أبداً لمفتـر كان كرنفالاً نابضـاً حيّـاً.. أحيتـه أنامل الجـدات فـي عزفها علـى الطبـول الصفراء، وتحريك الأرجل المنغمة بالسـكك والخرز، وفي صـوت الجدة (تمائم شـريف) وهي تغنـي قصائد العـودة المرتجلـة. وطهارة الطاهـرات التي كانـت وجوهـا غضـة، وفوانيس ملونـة، وضفائر شـديدة السـواد يخنقها العقيق.طفن على الجموع بمباخر مزركشـة تضخ عطـر الصندل، وقناني بنية اللـون فيهـا هذيان مسـك.. وحيـن أمر السـلطان شـخصيا بترطيب الحلوق بشـراب القضيم المنقح بماء الورد، صفق الناس حماسا ورهبة. حضر ملوك الأرياف كلهم.. حضروا بألبسة المناسبات المطرزة، وعمائم

الضباب الفخمة، وعلى أحصنة أصيلة لم تكن تستخدم إلا نادراً.حضرت أرامل الشهداء، ونساء العائدين، حضر أطفال اليتم، وكأن أرواح الموتى نفسها رفرفت بابتهاج في تلك الجمعة الجديدة الطعم.وقف (حلحلوك) المجنون تحت شجرة هجليج ظليلة.. في يده علم أخضر يرفرف.. في رجله عناقيد خرز قديم.. في عينيه لمعان قنديل متوهج، ومن فمه تتساقط حكايات المجانين التي كانت في طيها حكم..

(قابلت الخائن (هاشم درب) في صحراء (أم حلق) اليابسة.. نعم قابلته.. ارتمى فوقي وقال عضني يا حلحلوك.. عضني أرجوك.. فهربت منه.. هل أعض خائنا.. بذمتكم هل أعض خائنا؟

لم يكن الناس يضحكون، ولا كانوا يبكون، فقد بدا أنهم استنفدوا الضحك واستنفدوا البكاء، وما عادت سوى مشاعر موحدة تجاه (أنسابة) العظيمة..

هبط الجليل المهاب عن فرسه الأسود المخطط، على أيدي عبيده الخارقين، ثبت عمامة الضباب السوداء على رأسه، وخطا بحذاء جلد النمر المغاربي إلى داخل القصر.. هبت رائحة مسك.. مد الجميع أعناقهم. هتف هتاف، وزغردت مزغردة، وصرخ الحاجب الذي عند الباب..

- الأب الشيخ (يوسف كرا).

دخل الحكيم دوباجي مبجَّلاً.. والمفتي لاليا البرناوي منتفشا، والترزي كردمان مرتديا لواحد من أزياء السلم الجديدة والمفصّلة بعناية.. وكان هناك العشرات من رسامي المناسبات من داخل السلطنة وخارجها، ينتشرون بأقلامهم، وقماش فنهم.. يلتقطون.. ويوثقون.

كان (نجَّام) الآن ممتلكاً للرزينة نظر بالكامل بعد أن تركت بيتها تماماً وأقامت في بيته. كان توهانها معضلة، وعدم توهانها معضلة، وإصرارها على النكش الدائم لشعرها، وبعثرة أزرار الفساتين، أعباء

أخرى تضاف إلى أعبائه.وحين كان في مهمته الجليلة في الحرب، كانت تتغذى بالنبق، وتأكل الحميض نيئاً بلا طبخ، وأجلت حتى سواك أسنانها وترتيق الثقوب في فساتينها انتظارا لعودته.. لم تكن تجدي عتابات أمها المكثفة، ولا اعتبرت جبروتي سوى أبكم وأصم، لا يسمع ولا يستطيع التعبير اضطر نجّام أن يستأجر حماراً لنقلها إلى زحام الجمعة، اضطر أن يمشي معتدلا، وبلا ثوب مرتفع إلى مستوى السرة ولا ضحكة مجلجلة حتى لا يلفت النظر، أنزلها من الحمار برفق، وأجلسها في ظل إحدى أشجار (الهجليج)، وسجل اسمها في قائمة الصائحين الطويلة في ذلك اليوم. كان قد مضى عام ونصف على صياحها الأول.. وكانت يائسة ولا تملك فرصة الحل، لكنها تملك فرصة الصياح.. قال السلطان.. صيحي بعد عام.. وجاءت الحرب لتضيف إلى ذلك العام ستة أشهر بغيضة.. هي تعرف الآن أين أخوها، وتعرف كيف يحيا، وتستطيع أن تقسم أن ظهره يؤلمه بشدة، وأن روحه المعنوية في الحضيض.. وأن عشرين دمل على الأقل مبثوثة في جسده.. تعرف أنه لو عاد لن يعود أخاها.. وهي تريده.. تريده حتى لو كان فرساً مستهلكة تريده، لو كان ناقة عابرة للتخوم.. تريده.. وخلال رعاية نجّام لتوهانها، عرفت أن ثمة فرصة لتلحقها قبل أن يتحول أخوها إلى خصي.. رجل وضده.. لا تريده كذلك. لا تريده كذلك.كانت قد كتبت وقبل انتقالها إلى بيت (نجّام)، رسالة إلى جبروتي ولد الحُور، وبخط التائهات اللائي تعلمن الكتابة في سن مستهتر، قالت له فيها..

(إن كنت ما تزال تنتظر ردي.. انتظر.. وإن كنت مللت الانتظار.. لا تنتظر يمكنك أن تأتي لتأكل وتشرب وتنام أيضاً.. فقط لا تنظر إلى وجهي.. لا تنظر إليه أرجوك..).

وفاجأها جبروتي بأن جاء متعطراً بعطره الجديد.. عطر الانتظار.. طلب أن يأكل الحميض، ويشرب (القنقليز)، ويسترخي قليلاً على

وسادة، ولم يرفع عينه إلى وجهها أبداً.. وكتبت إلى أخيها آدم رسالة ومزقتها.. قالت..

يمكنك أن تنهق كحمار.. وتطن كبعوضة، و(تبرطع) كناقة، وتأكل القصب والبرسيم، وتحمل سفاسف الأمور على ظهرك بلا نهاية، لكن لا تعد بلا ذكورة.. لا تعد بلا ذكورة أرجوك.

كتبت إلى نفسها.. أفيقي يا رزينة أو موتي.. أفيقي أو موتي.. الإفاقة تعني حياتك، والموت يعني فشلك في الاستفاقة. وحين التقت بالمهاجر (عبد الرب) بعد عودته من الحرب بلا لقب جديد يضاف إلى سلسلة ألقابه كما كان يأمل.. قالت له.. هل يجوز البكاء على موت النخوة يا شيخ؟ هل يجوز الحداد؟

عاملها المهاجر كأنثى عارية برزت فجأة في طريق تدينه، أشاح بوجهه بعيداً.. وبث الخطى مبتعدا عن عريها وهو يرتعش.. ليست سوى (نعيمة) أخرى جاءت لنسف ألقابه من جديد.. تعمدت أن تصادف (لاليا البرناوي) مفتي ديار (أنسابة) خلال تسوقه الذي كان يحرسه العبيد بضراوة.. أزاحتهم بقليل من الرقة، وكثير من التشنج وسألت البرناوي..

هل يجوز البكاء على موت النخوة يا شيخ؟ هل يجوز الحداد؟ أفتني أرجوك..

لم يفتها البرناوي أبداً.. اعتبرها النموذج المتمرد للمرأة الأنسابية الذي كان قليلاً لحسن الحظ لكنه بدأ يبرز إلى السطح في تلك الأيام.. قال..

عودي إلى الله.. عودي إلى الله يا بنية.

ولكز بطن دابته ليمضي.. جربت أن تلتقي الأمير (مساعد) نفسه.. أعدت حساء فاخراً من طيور جرحت كثيراً.. وأكلت من الرميات أكثر.. حملته في الشوارع التي فيها خلل.. والبيوت التي ظنت أن الأمير يغشاها.. فتشت عن الرعاع بالعين التي كانت تميز الرعاع.. وعن آثارهم

بالعين التي اعتادت آثارهم، وحين وجدت الأمير أخيراً.. وسلمته الحساء الذي كان كثيراً وفاخراً، وفيه حبهان، وقرفة، لم يقل الأمير شكراً.. ولم يعطها أذنا لتثرثر أو تشكو أو تسأل عن أخيها.. وأمر رعاعه أن يعودوا بتلك المرأة السخيفة إلى بيتها وأن يستروها.. وكان مفهومهم للستر شعرا مقصوصا، وفما مكمما.جربت أن تسأل أباها في قبره، وأن تعاتبه في قبره ولم يكن أبوها سوى ميت ولم يكن القبر سوى قبر

السلطان في مجلسه ويتلقى الصياح.

كانت الصياحات في أغلبها تشنجاً فرحاً بالنصر الكبير الذي حدث لشعب (أنسابة)، وحمدا للسلامة بالعودة الظافرة، وترديدا لمقولة النور المشع الذي أضاء ظلام كردمال والتي رددها الأب الشيخ (يوسف كرا) في خطابه التنويري.. صاح الكبار وصاح الصغار.. وصرخت امرأة من إحدى قبائل جنوب (أنسابة):

مولاي السلطان.. أريد زوجاً شريفاً.. أريد بطلا عائدا من النصر أريد أن أتعلم الشرف وألد أولاداً شرفاء.أرروك.. أرروك.

وجاءها الرد قائمة بأسماء أبطال عادوا ربما تفيدها في الاختيار.

وصاح واحد من المعمرين.

مولاي السلطان.. أريد أن أحتفل بالنصر.. أريد مجلساً للأجداد مشابها لمجلس الجدات.. أريد طبولا أريد خرزا ملونا. أرروك.. أرروك.

وكان الرد تحية سلطانية خالصة ووعدا بالنظر في الدستور.

صرخ حلحلوك المجنون في هياج مستمد من تداعيات الحدث:

أريد جارية كردمالية بلا وجه.. وقصراً في (دبيرا) وليس على أرضها.. وحماراً أسود اسمه هاشم درب.

وسقطت نداءاته عند ذيل السلسلة لم تتعدّه.

وكان في قائمة الصياحات أبطال عادوا، لم يكونوا طالبين لحوائج، ولا هاتفين متشنجين، فقط أبطالا عادوا، وأرادوا أن يصيحوا في تلك الجمعة.وكان أكثر الصياحات شدا للانتباه، ذلك الذي صدر من رسامة فرنسية قدمت من بعيد، وكانت توثق لذلك النصر الكبير صاحت بلغة لم يفهمها أحد، ولا نقلتها السلسلة، ولا كان ثمة رد.

الرزينة نظر حبايب.. ابنة راعي الأغنام نظر حبايب.. الرزينة نظر حبايب..

صانع الطبول يا إبراهيم.. صانع الطبول يا إبراهيم.. لا يهم. وقفت عند ذيل السلسلة مستندة على أمومة نجَّام المبهرة، ومتابعة بحرص من عيني ولد الحُور الذي تبع توهانها وحمارها حتى مجلس (الكوراك).. ليست واثقة من النتيجة، ولكن واثقة من حلقها:

أريد أخي (آدم نظر) يا مولاي.. أريد أخي يا مولاي.. أنا يتيمة يا مولاي.. أنا وحيدة يا مولاي.. أرروك. أرروك..

نفس التفاعل البشري حيال رقة مسكينة.. نفس الهمسات.. يا كبدي.. وكثير من التوقعات بأن السلطان في نشوته العظيمة تلك، لابد سيستجيب.. عاشق الرقة كيف يحرج الرقة للمرة الثانية؟ وتكهنات هامسة.. لابد أنه أحب صوتها وأراد أن يسمعه يعطر مجالس (الكوراك) باستمرار.. وتكهنات هامسة أكثر.. لابد أن لمسك النساء دخل في الأمر والرزينة خائفة، والرزينة واثقة بأن لا نتيجة، ونجَّام أمها وأختها.. وجبروتي يحس بالعطش، وأم الرديم ماتت، والتنجر بعيدون.. والفرس في خطر.. والأمير بالداخل وعشرون دقيقة انقضت..

الرزينة نظر حبايب ابنة راعي الأغنام نظر حبايب.. طلبك مرفوض يا بنية.. لا تصيحي في هذا الشأن مرة أخرى..

طلبها مرفوض؟

- لا تصيح مرة أخرى؟

لابد أن السلطان قد كبر أو لابد أن أذنيه ما عادتا تتذوقان كما في السابق.. في المرة الأولى تعاطفوا بجسارة، وفي هذه المرة يتعاطفون بجسارة أشد.. من أجل ماذا كل هذا؟ ولد صغير صاح عن جهل.. وولد صغير كان يمكن أن يزجر وفتاة رقيقة تتلوى، وفتاة رقيقة تستحق حرير القصر.. من أجل ماذا كل هذا؟ حوروه إلى حمار، وإلى فرس وغداً قد يحور إلى سلالة نجَّام. فكر الكثيرون أن يصيحوا تعاطفاً، وفكر الكثيرون ألا يصيحوا إلا تعاطفاً.. وبدت جمعة النشوة كأنها جمعة تعاطف جماعي.. حملت الرزينة إلى الحمار المتهالك.. حملت بأيد أرادت أن تحمل الرقة، وأيد أرادت أن تحمل المسكنة، وأيد أرادت أن تحس بأنها أيد في الوطن ومن الوطن.. كان نجَّام الآن أمها الحانية أكثر، لم يترك دموعها تسرح إلى أبعد من المنابع، لم يترك ضفائرها تجف من زيت (كركارها) العنيف، ولم يترك للحمار فرصة للشقاوة، وأن يلقيها عن ظهره.. كانت في الهيام كامل المواصفات.. ذلك الذي يصطنع الألغاز ويحلها.. يتساءل عن شجر ((الهجليج)) المبثوث في الشوارع.. هل هذه نوق جائعة؟ أم قوافل محملة؟ أم جبال؟ عن حفر الشوارع.. هل هذه آبار مالحة؟ أم أشلاء ناس؟ عن ألوان عصافير (ود أبرق) الملونة.. هل هذه أقواس قزح التي تأتي مع المطر؟، وعن الأمومة الكاملة للخصي نجَّام.. هل هذه وسادة قطن؟ أو ملحمة صوف؟
أرادت أن ترى أباها بأي ثمن.. وأن تصافح (أم الرديم) بأي ثمن، وما قبلت أن تسمي العقارب والثعابين المتوفرة بغزارة في الحي إلا الأطفال الصغار.. والمساكين.وكان أصعب ما واجه (نجَّام) أثناء تهدئتها هو تلك المقارنة التي كانت خارج النص، وأدخلتها الرزينة إلى النص قسرا.. اعطني مرآتي.. اعطني قلم الكحل.. اعطني مرطب الوجه.. اعطني.. ثم بعد ساعة حين صرخت:

- من هي الأجمل.. أنا أم مسك النساء؟ قل يا نجَّام.. من هي الأجمل

أنا أم مسك النساء؟

كان الخصي قد عمل في قصر السلطانة (مسك النساء) كجزء من تدرج الوظيفة حين حور إلى ضد.. وقبل أن يستعيده الأمير لطهي حسائه.. شاهد السلطانة كاملة وغير كاملة، وشاهدها في لحظات الهيام المحموم، والثورة الطاحنة، والغيرة العمياء وحتى حين كانت تصرخ في وجه (رغد الرشيد).. وهو يسترضيها.. قارنها بالرزينة على الفور ووجد في الرزينة بقعا من السكر لم يشاهدها هناك.. وشاهد هناك بقعا من سكر مختلف لم يشاهدها هنا.. كان الطرح في حد ذاته خطرا.. ويده التي امتدت لتسد حنك الخطر كانت قوية لأول مرة.. .اسكتي..

لن أسكت..

اسكتي..

لن أسكت..

أنت أجمل.. صدقيني.. كان يهمس ويده التي قويت ما عادت قادرة على كبت الصراخ.. أنت أجمل..

إذن لماذا أُحتقَر؟

لم يحتقرك أحد.. كل شيء نصيب..

نعم كل شيء نصيب.. التي نبتت في بؤر الفقر نبتت من نصيب، والتي مات أبوها من نية الحج، مات من نصيب، والتي كانت زوجة لبائع حلوى (الدرادم) اللزجة وتسلطنت، تسلطنت من نصيب.. والذي بترت رجولته في مستنقع الرعاع، بترت من نصيب.. و(آدم نظر) صاح.. صاح بالنصيب.. وأنت يا نجّام. أمي وأختي.. هذا نصيبك. هدأت في النهاية.. طلبت شراباً مرطِّباً.. وأمسكت بيده التي كانت قد عادت إلى رقتها، أدخلتها بين طيّات شعرها المزيت.

سار (نجّام) في حي الرديم الذي بدأ ينام في تلك اللحظة، متجهما، ضفائره النامية من جديد بعد أن عاد من الحرب، تتأرجح من

هواء مؤرجح، وقميصه الذي ارتفع إلى مستوى السرة، ارتفع عن انفعال إنساني.. كان قدره عجيبا بالفعل.. ليس الذي اصطفاه ليكون واحداً من أبناء قبيلة (البيقو) عديمة الجدوى، ثم من الرعاع، ولا الذي أحاله إلى رجل وضده وهو في عنفوان الصبا، ولا ذلك الذي صيره طبَّاخاً للرميات التي لا يمكن أن يتقبلها فم.. ولكن ذلك الذي قربه من الفتاة الجريحة وفي كمال جرحها.. في البداية كان يعتبرها مجرد فضولية دخلت إلى حياته من مدخل مشفر، هو مدخل أخيها ومدخل الحساء الجارح. وحين اقتربت واقترب أحس بأنه مسؤول حتى عن دموعها.. وسهاد عينيها. كان يود لو أنصفها.. لو كانت له سلطة الأخذ باليد ليأخذ بيدها، يسلمها للسلطان ويستريح.. لو كان يملك أن ينظر في عيني الأمير، لنظر فيهما.. وبث في ظلامهما المريع مأساة الرزينة التي تستوجب إعادة النظر هو لا يعرف أخاها.. ولا يعرف مقدار وزنه في تلك العائلة المأزومة.. لكن لابد أن له ذلك الوزن الذي يجعل أخته تموت وتموت. لقد فكر كثيراً أن يستجدي.. يستجدي الأمير لإعادته إلى الخدمة، لا ليفلت من قدره في التصاق الرزينة، ولكن ليرتكب هفوة العمر التي قد تخرج المنادي السلطاني.. يصرخ في شوارع (جوا جوا)، ناعيا أميرا ضالا مات بالسم.. فكر كثيراً.. وتسحب في أيام عدة من التصاق الرزينة ليشم التغيرات، ويرسل إلى الأمير، وينتظر الرد، ولكن إعادته إلى الخدمة لم تكن واردة أبداً.. لقد أغلق الأمير ملفك.. يا سفيه.. أغلقه إلى الأبد.. هكذا خبره الرعاعيون، وهكذا أجهضوا أحلامه في إنهاء تأزم الرزينة.. لا يستطيع.. لا يستطيع.. بكى في شوارع الحي كلها.. وبكى حين خرج من الحي وسار في أحياء أخرى.. ملفك مغلق.. مغلق.. ولن تستطيع شيئاً سوى تجفيف الدمع. كان (جبروتي) حلا آخر تبادر إلى ذهنه.. لماذا لا يسعى إلى تزويجها من ذلك القصديري العاشق، ويحمله مصيرها؟ لماذا لا يسعى؟.. لكن الرزينة تفكر.. هكذا أخبرته، وهكذا أخبره ولد الحُور..

جلسـا هو وجبروتي في أحد الأيام يستعرضان التوافه كلها.. كان مغتما وولد الحُور يرصعه بنظرات المغص.. ويكاد أن يسأله عن تفاصيل الرزينة التي لم يقو على قراءتها إلا فـي أحلام التفاهة المتعمدة.. خلصا إلى نتيجة واحدة.. خلصت إليها الرزينة قبلهما.. وتكاد أن تكون السلطنة كلهـا قد خلصت إليها.. (آدم نظر) لن يعود (آدم نظر) أبداً.. والرزينة لن تعـود الرزينة أبداً.. وجبروتـي لن يصنع العطور إلا مضطـرا.. ونجَّام لن يفقد أمومته المكتسبة أبداً، ونقطة البدء المعتمة.. هي نفسها نقطة النهاية المعتمة.عـاد إلى بيته بعـد تلك الجولـة المتجهمة.. وجد الفتـاة نائمة.. وجهها فيه نمش لكنه وجه سـاحرة.. شـعرها مدلوق على الوسادة لكنها دلقة مفاتن، وفي فمها ابتسامة الأطفال حين يبتسمون وخمن نجَّام.. لابد أنها في الحلم الرائع الذي يعيدها فتاة في سـن سـلس لم تسمع بالرعاع ولا غليان الرعـاع أبداً.. غلفها بغطاء مهلهل يملكـه، ورش عليها القليل من ماء الورد.. قال في نفسـه.. هذا ينعش الحلم أكثر.والواقع أن الرزينة كانت تحلـم بالفعل لكن حلمهـا كان مختلفاً تماماً.. ليـس حلم الصغار السـذج، ولا حلـم الفقـراء القانعيـن، ولكن حلمـا آخر. كانـت الآن في قصر (الرزانة) الذي شـيد من رخام ومرمر وعلـى رقعة خضراء يخترقها نهر.. كانت سلطانة في الثياب، وسلطانة في العطور وفي كثافة الجواري والعبيد الذين كانوا يقومون ويقعـدون، وينفذون، وكانت بين يدي (رغد الرشـيد) الـذي قلدها قـلادة من ماس ومـد يده لثنايـا شـعرها الحرير.. والمخنوق بشرائط من ذهـب.فجأة شحبت شموع المكان.. ارتعد الضوء في الفوانيس ودخلت عاصفة كان وراءها (جبروتي) ولد الحُور على دابة بشـعة المنظر، هي أخيها (آدم نظر).. اسـتل جبروتـي خنجرا، أغمده في صدر عاشـقها (رغد الرشـيد)، الذي تناثر دمه على الأبسطة كلها، وعلى الجدران كلها، وحتى في الحدائق المحيطة بالقصر.. ثم شدها إلى صدره

بقـوة، وحقن فـي فمها بصاقا مـرا.. كانت ثمـة وحوش بحوافـر وأنياب ترعى في المـكان، وامرأة بقرون مـن نحاس تضحك بجنون.استيقظت مرتبكة وغارقة في العـرق، وتحس بوخز غريب بيـن ضلوعها، وألم في أسفل البطن.. جلسـت تستعيد الحلم.. تحاول تجميله بالخيال الواعي.. أرادت أن توقف الهلوسـة عنـد عقد الماس ويد السـلطان التي تتنزه بين ثنايا شعرها.. أرادت أن تحذف الخنجر والدم، والدابة الأخوية، وبصاق ولـد الحُور المـر لم يكن الأمر سـهلاً.. ولم تسـتطع أبـداً أن تتغاضى عما فعله جبروتي، حتى لو كان ذلك داخل هلوسـة.اعتدلت في جلستها ونادت على (نجَّام) الذي كان متوفرا بقربها وسـاهرا، وهاضما لنعاسـها منذ كانت تبتسم وحتى لهثت وتشنجت، وقامت تسبح في العرق.

- نعم يا رائعة.

ناداهـا بلقـب طالما تمنـت أن تمتلكـه، وكأنـه كان يقـرأ أمنياتها.. يـا رائعة.. يـا رائعة.. تمنت أن يولـد ذلك اللقب فـي صغرها، حين كان الصغـر رائعا بالفعل. تمنت أن يولد في ميعة الصبا.. والتي لم تكن أبداً غير ميعة فقيرة.. وتمنت أن يولد حين صاحت في الجمع، وحين بكت.. وحين حملها التعاطف الكبير في الأيدي.. يا رائعة.. يا رائعة..

جئني بجبروتي ولد الحُور فوراً.

- لماذا؟

لقد انتهيت من التفكير.

قالتهـا وألقـت برأسـها إلـى الـوراء فـي حركـة غامضـة.. إذن فقد دخل جبروتـي إلى عالم الرزينة الحقيقي بقـوة، أو خرج من ذلك العالم بقوة.. كان الليل في أشـد سـاعاته ظلاما، وفـي أكثر أيام الشـهر انعداما للرؤيـة، التفاصيل غير المكتملـة.. الظلال.. كلاب الفقـر تنبح بعصبية.. قططه تمـوء بتخاذل.. ولابد من ثعابين وعقـارب.. ومصائب لا تعد ولا تحصـى.. كان جبروتي في الحي نفسـه.و لكن الحي موحـش، والرزينة

تريد جبروتي، ولن تسكت حتى يجئ..

الصباح رباح يا رائعة

لا

الناس نائمون يا رائعة..

لا

لا يوجد قمر يضيئ.. لا توجد رؤية.

لا

استعان (نجَّام) بفانوس شاحب وناضب الوقود تقريباً.. كان يمشي ويلتفت، ويقف ويلتفت، يشم عواء في الظلال، ويرى بعيني الخوف المفتوحتين شجرة تتحرك، أو كلبا يسعى إلى العض.. تجربة أمومة الرزينة.. لماذا تجربته هو دون سائر خصيان السلطنة؟ ولماذا تجيء تلك التجربة بالذات وفي هذه الظروف؟ نصيب.. لابد أنه نصيب.. وصل إلى جحر جبروتي والمشقة ليست حوله ولكنها ترتديه.. كان الباب مواربا وكان الدخول ملاذاً، وكان جبروتي ساهراً وعلى ضوء فانوس هزيل.. لعله يبكي أو لعله يصنع عطراً مسمماً.. ولأول مرة لاحظ (نجَّام) أن ولد الحُور كان نحيلاً جداً.. وجهه فكّان بلا كساء.. وهيكله مجرد هيكل عظمي.. وكان متأنقا في ثوب رمادي، وسروال أبيض، وعمامة أولاد العاصمة غالية الثمن. لم تكن هيئة رجل نام واستيقظ، ولا هيئة رجل نعس، ولكنها هيئة رجل لن ينام ولن ينعس. لم يكن متفاجئا بزيارة الخصي، بل على العكس كأنه كان ينتظرها. ثمة بن يعد في موقد.. وثمة أكواب مزركشة، وترحيب أنيق هب من وسط الدمع..

اجلس يا نجَّام.. اجلس.

جلس على الأريكة الخشبية الوحيدة في وسط جحر لم تكن فيه سوى طاولة ومقعدين وأريكة خشبية.. كان في حاجة إلى وخز البن،

فلم يرفضه.. وفي حاجة إلى التقاط الأنفاس، فالتقط أنفاسه:

الرزينة تريدك يا جبروتي.

لم يكن متفاجئا أيضاً.. وحاول أن يشم أي رائحة ربما تنبعث من زيارة الخصي نجّام.. رائحة الفرح يتوقعها، ورائحة الحزن يتوقعها أيضاً، وأن يكون صرصورا واجب الدهس تحت قدمي الرزينة، يتوقعه أيضاً.. بالأمس كان أولاد الحُور الاكتئابيون عنده.. سألوه عن أخبار مهلة التفكير التي طال أمدها وحولته إلى شجرة (سيسبان) مهلهلة، وحاولوا أن يجروه إلى النهاية التي كانوا يتوقعونها، وربما هو أيضاً كان يتوقعها لكنه.. أراد توقعا أفضل.. هل تظنها تقبل؟ انساها يا حبيبنا.. انساها.. ثلاث سنوات تكاد أن تكون قد انقضت منذ أن اهتز ولم يثبت بعد ذلك أبداً، يوم وداع الوفد العزائي كان يوماً تافهاً.. أدخله إلى سجن الرزينة دون عطف.. ليته ركب ناقته وانصرف.. ليته اهتز ثم سافر كما فعل الآخرون.. في قرية (أم حراب) كانت النزوات عادية وقابلة للزوال.. توعك الأعصاب يأتي ثم يرحم، لكن نزوته في الرزينة هي النزوة الخالدة.وتوعك الأعصاب فيها هو التوعك الذي بلا شفاء.

هل قالت لماذا؟

لا

إذن هيا.

دخلا في الليل.. في الخوف.. في الظلال.. في السعر الذي قد يجئ، وفي الثعابين التي قد تهجر الشقوق.. لم تكن ثمة كلمة متبادلة.. نجّام بالثوب حتى مستوى السرة، والهم حتى مستوى القلب.. وولد الحُور حزيناً.. وخائفاً.. وخطط لمستقبل غامض في ريفه البعيد.. قد أفتح متجري في (أم حراب).. قد تعفو عني أمي الغالية حين ألثم رأسها.. قد يقبلوني مزارعاً أو حطّابا أو غاسلا للموتى.. قد أتزوج.. قد أنجب.. وعندما وصلا إلى بيت نجّام.. كانت (قد أموت) هي الفكرة

الأخيرة التي تولدت في ذهن ولد الحُور.. قد أموت.. نعم.. قد أموت.. كانت المرة الثانية التي يدخل فيها بيت (نجَّام) برغم لقاءات المغص بينهما والتي كانت تتم غالبا في الطريق.. يكرهه لأنه سلب الرزينة من عينه.. ومن نطاق مراقبته، ويحبه لأنه أبقاها في صدر أم لا في صدر رجل يشتهي.. تناقشا كثيراً بالألسن.. وتطاولا على بعضهما، وسبا قبائل البيقو والتنجر والمساليط والبراقيد سبابا بلا حصر.. لكن المحصلة واحدة.. الرزينة عند نجَّام.. والرزينة في قلب ولد الحُور.. ولابد من تفاهم.. فكرته عن الخصيان كانت مشوشة، وكانت هي نفسها فكرة الخصيان عن أولاد الحُور.. الشياطين التي تتبع.. الخبث والوسواس.. ولعنة الدنيا والآخرة.

كان بيت نجَّام مرتبا.. المقعد يبدو مقعداً، والسرير سريراً، وأدوات الطبخ لا تقل اكتمالا عن أي أدوات طبخ في مطبخ نسائي.. يقول أنه تخصص في حساء الطيور الجارحة، ويقول مطبخه أن تخصص في كل شيء.

جئت به يا رائعة..

مجددا يا رائعة.. ومجددا ارتعاش الغرور في الجسد الهائم.. أين كنت في طفولتي.. نجَّام.. أين كنت في صباي، ولماذا يا رائعة بعد أن تمزقت الرائعة.

نعم يا رزينة..

لم يقل يا رائعة.. جبروتي ليس أنيقاً في الكلام.. ولا بارعا في المواساة كالخصي نجَّام، ولا تهمه من كل تلك الدراما المتشابكة منذ أن اختفى أخوها، إلا رعشة الحب.. حسنا أحببتني.. وصنعت العطور من أجلي.. وهجرت الريف لتظل قربي.. وتقدمت للزواج مني.. ووضعتك في مهلة قاسية.. وأنت تنتظر.. وأنا لا أحبك.. وأنا لم أفكر وأنت مسكين.. دمعتي ستنحدر..

- جبروتي هل ما زلت تنتظر ردي؟

- نعم أنتظر.

بالمسكنة نفسها.. بالإذلال الذي ما استرد أبداً كرامة.. شماعة الظروف.. شماعة الفتاة الجريحة.. اليتيمة والتائهة والتي تنتظر أخا في ذمة الرعاع..

- أنا آسفة يا جبروتي لن أتزوجك ولن أتزوج أي رجل آخر.

- لماذا؟ لماذا يا رزينة؟ لماذا يا رائعة؟

يا رائعة دون قصد.. في لحظة الصدمة يتكسر اللسان.. وينشف الريق.. وبرغم توقعه للنهاية، وبرغم أنه حزم أغراضه الهزيلة بالفعل وصفى تجارة العطر، وراسل أهله في الريف يبشرهم باقتراب العودة، وبرغم أنه باع سراويل غالية كانت مدخرة للعرس، واعتذر لمدعوين يعرفهم ووضعهم داخل مهلة التفكير نفسها، وبرغم أن الرد جاءه، وأن الريف هو الريف وما يزال فاتحا ذراعيه.. إلا أنه صدم.. تراجع إلى الوراء.. تقدم للأمام.. بكى بأبيض العين وأسوده والرموش كلها.. ولم ينصرف لأن قدميه كانتا مشلولتين.. ولم يبق لأن البقاء ذل.. والتصق بباب الخروج ولم يخرج..

سامحني أرجوك.. سامحني..

يأتيه صوتها التائه ولا يأتيه، ويشاهد دموعها، ولا يبصرها.. وتسنده يد خصية.. لا تبك يا أخي.. والصباح يصبح، وفقراء الرديم يتوافدون.. لا تبك يا أخي.. وأولاد الحُور الاكتئابيون عادوا.. حملوا السم والمشنقة، ولوازم الخصي كلها من سكاكين وخيوط، وزيت حار لكي العورة وإيقاف النزف.. لا تبك يا أخي.. وأم الرزينة معتلة، وتنهدت بارتياح، لا تبك يا أخي، وناقة محملة بالخزي والجروح، وعابرة للتخوم.. وجبروتي إلى الريف بلا ذكريات تروى في أمسيات قاحلة تتشوق إلى الذكريات.. لا تبك يا أخي..

وفي مستنقع الرعاع.. وصلت رسالة لم يقرأها أحد، لأن لا أحداً كان معنيا بالأمر، ولا أحداً كان يملك عيناً لقراءة المشاعر، أو مسامير الحب الناخرة في العظم.. تكفي قراءة الظلام والكابوس، وتكفي قراءة الطالع البذيئة لأمير يتغير طالعه إلى الأفضل، أو يبقى كما هو..

(أنا جبروتي إدريس جبروتي.. مواطن أنسابي عريق، وتنجري من قبيلة راسخة وذات جذور.. لم يكن ذنبي أن ولدت بلا صبغة وأنني ولد حور.. أنا حيوي وحيوي حتى النخاع لا ينقصني شيء ولا أشكو من شيء.. أنا فنان وشممت عطري بنفسك.. هل تذكر عطر السطوة الذي حرك مشاعرك؟ وصنعت عطورا للنضارة لم يصنعها أحد.. أتحدى.. هل تدري لقد كنت أبلها للغاية.. أبلها حين بقيت والناس يستعدون للسفر وحين أحببت ورضيت بالعذاب في مهلة ظالمة.. وحين تركت أمي.. وإخوتي وبنات الريف اللائي لم يعشقنني لكنهن لم يقذفنني بالحصى. هل تدري أنت أيضاً كنت أبلها.. أبلها حين استضفتني وحين أكرمتني وحين ذهبت إلى الهلاك بقدميك.. وحين لم تغط وجه أختك وهي بهذا الجمال، وحين لم تسكت صوتها وهي بهذه الرقة.. وحين قبلت أنت بي وهي لم تقبل.. الرزينة أيضاً بلهاء.. وتافهة وتستحق أن تجلد بمائة عصا خيزران.. هل تعلم لماذا؟ لأنها تبكي والسلطانات لا يبكين.. لأنها تخلت عن مجلس الطاهرات.. وهي تعلم بأنك لن تعود.. ولأنها تنام في صدر خصي، ولأن فرصتها الآن في أي شيء. هي بالضبط فرصتي أنا في شيء.. أنا الآن في قرية (أم حراب) الصدر الدافئ الذي لن يلقي بي للصقيع.. قد أعاود تجارتي.. وقد أصنع عطوري.. وقد أعمل في الزراعة أو الرعي.. وقد أموت.. قد أموت..).وكانت الجملة الأخيرة معضوضا عليها بشدة، كأنها خيار أول، ولكن رحلته الظروف إلى آخر الرسالة.

وصلت الرسالة، وتمزقت.. وانقطع توافد الرسائل.. لكن الأمر

لم ينته، ففي تلك القريـة النائية في بلاد (التنجر)، كانت ثمة مهلة أخرى وضع ولـد الحُور نفسـه داخلها.. إنها مهلـة تفكيره هـو.. تفكيره في أن يوماً ما ستشرق الشمس.. من أي منحنى.. لا يدري.. ولكنه يفكر

ظهرت (السـحابة) جدة السـلطان مجددا في حيـاة (الرزينة) وبعد غيبة قاحلة ظنت فيها الأخيرة أن لا سـحابة سـتمطر في عمرها أبداً.. لم تظهر في هيئة الجارية التي سـتكلف بتبييض الجلد من فقره، ولا سبائك مـن الذهب مـن نقش اليهـودي (عاميـر) تتدلى مـن عنـق أو أذنين، ولا عطور مسك سلطانية ترسل في الخفاء إلى حي الرديم، ولكن في هيئتها المبجلة.. السـحابة جدة السلطان رغد، ورئيسة مجلس الجدات صاحب الـرأي والحكمـة، كان دخولها إلى حـي (الرديم) ترفاً لم يسـتطع الحي احتمالـه، اضطروا إلى نحر شـاة عجفاء، وردم برك العفونة في الشـوارع العرجاء، وتزيين مدخل ومخرج لابد سيقعان في نطاق رؤيتها.. السحابة ليسـت كالرعـاع الذين لا يحبون أصلاً أن يُسـتقبلوا أو يُودعوا، وليسـت كالسـلطان في يوم الاحتفال بجلوسه على العرش، حيث يخترق الأحياء واعيـاً لقذارتهـا وواعـداً بالتنظيف، ولكنهـا الرمز الذي يجـب أن تنظف له حتى الأسـنان إن دخل حيّـاً كهذا. قادها العبيـد والخصيان المرافقون مباشـرة إلى بيت الخصي (نجّام) حيث كانت (الرزينة) تحاول الاعتدال مجدداً بعد أن تقوست مشاعرها من جراء الظروف والتصاق ولد الحُور، ثم ذلـك المجهود الـذي بذلته حتى اسـتطاعت نزعه مـن حياتها.تأملت الجـدة (نجّام) بطـرف عين وعرفت فيه ذلك المتكبر الذي سـمى نفسـه كبير الطهاة، حين كان يقيم في قصر (المسـك)، طلبت أن تقابل الرزينة، وقابلتها، وارتجت المقابلة، وارتفعت الأصوات، وأسفر كل شيء عن لا شيء..

لـن أعود إلـى زمـرة الطاهرات لأطفـئ الحرائـق أبداً.. لـن أحمل فانوسـاً في موكـب أبداً.. أذناي تعجباني هكذا بلا أقـراط، وعنقي أحلى

كثيراً بلا ذهب يهودي.. لن أعود حتى لو عاد (آدم).. اتركيني يا جدتي..

خرجت السحابة من حي الرديم متكدرة، كان بإمكانها أن تضرب الرزينة، وأن تقتلها، وأن تمحوها، وأن تحولها إلى جارية أو فتاة ليل.. لكن شرف الجدات كان أقوى، وما لم يحدث اليوم قد يحدث غداً، وهي أيضاً معذورة، أخوها في خطر، ورأس السلطنة لا يستجيب.. تذكر حين كنت تأوي إلى صدري يا رغد.. حين أحكي لك الخرافات.. أدحرجك للنعاس.. وتنعس بالفعل.. هل تذكر يوم باركتك سلطاناً وأبوك لم يمت ولم يدفن في تربة بعد.. هل تذكر؟ لا أستطيع جدتي.. بذاءة الألسنة أشد الخيانات والسلطنة لا تستقيم إلا بالقانون ولو عفونا ما ترك لنا الخائنون جنبا نرقد عليه. خرجت كبيرة في نظر الكثيرين، ولم تصغر في أيّة عين أبداً.. وفيما أتى بعد ذلك من أيام كانت تلميحات عديدة تأتي، ووعود عديدة تأتي.. والعناد الضال هو نفسه العناد الضال لكن الأمر لم ينته بعد.

-10-

مرحلتك الأخيرة أبي الشيخ..

الأخيرة التافهة التي قد تصبح بعدها دومة أو دمامة أو الخصي (دمدوم) في قصر المسك.. عند السلطانة الأثيرة، أو طاهي الحساء الجارح لرجل المهام الجليلة، أو المضفر في وسط الأغاني الحماسية والنواحات، ولكن ليس (آدم نظر).. ليس (آدم نظر) أبداً..

بدأت بالهمس، ثم بالصوت الضخم، بالفحيح، باللقاءات المباشرة وغير المباشرة التي كانت تتم في الأكواخ.. في الجحور الرطبة لمستنقع الرعاع وتحت نيران العطش والاكتئاب.. مرحلتك الأخيرة أبي الشيخ.. بالأمس طلب الأمير رؤيتهم كلهم.. الحمير والأحصنة والنوق، والجراد، وفئران البؤس، وأولئك الذين تحوروا إلى الضد، رجال وضدهم.. طلب رؤيتهم في جحره الخاص، وأمام خرائطه اللعينة التي كانت تضيف وتحذف.. وتختلق البدع. لم يكن ملثَّماً.. وما اهتم بإزالة المخاط من أنفه، وأثر اللعاب الصلد حول شفتيه.. جبته هي الجبة الشوارعية المعتادة.. وحذاءه هو الحذاء الذي عند الحاجب إبراهيم في فوهة مجلس (الكوراك).. حذاء جلد الحية المرقطة.كان ثمة رمل تناثر عليه الحصى.. وكان ثمة صوت آمر..

اجلسوا..

جلسوا حول بركة الرمل لا يعرفون ألم الضرس من ألم الكلى، ولا غروب الشمس من طلوعها، ولا يستطيعون التكهن.. هل ما زال الحظ ثابتاً كما هو أم تغير إلى الأفضل.. بالنسبة ل(آدم نظر).. كان ثابتاً.. وبالنسبة لآخر، كان متحركاً.. وبالنسبة للفرس (شبرق).. كان..

ولكن أين الفرس شبرق؟.. تذكره الأصدقاء فجأة.. تذكروا أياما عديدة لم يشاهدوا حوافره ترعى في المكان.. ولا سمعوا شخيره المنتظم، ينتظم في الكوخ.لم يشاهدوا الأمير على ظهره، ولا جاءت سيرته في التقارير التي ترفع عقب كل غارة ناجحة.. الفرس كان مؤدبا.. كان مطيعا.. لم يفرز سائل الدمامل في هذه المرة.. نوصي بإطعامه وجبة إضافية.. الفرس آدم كان يتساءل وما دام لم يكن هو من يحمل الأمير، ولا حمله (شبرق) في تلك الأيام الماضية.. فما الذي يحدث في مستنقع الرعاع؟ طافوا على الجحور كلها.. المبخرة والمعطرة والتي فيها رائحة ثعبان يختبئ.. طافوا على القدور كلها.. التي تطبخ الدخن والتي تطبخ الحميض والتي فيها رائحة رميات جارحة.. ضفائر الضد وضده.. وحتى في عنابر الذين أعفوا من الخدمة وينتظرون إنهاء أحزانهم.. أين ذهب الفرس (شبرق).. الرعاعيون طيبو القلب، الذين يحملون الرسائل، وما قصروا أيام غليان (جبروتي) في حمل رسائل الاكتئاب إلى (آدم نظر).. لم يحملوا رسالة من شبرق.. الأخبار التي ترد من قصر المسك، وإخوانه القصور الأخرى التي تضم المجد الحريمي.. ما تحدثت عن طاه جديد أو حارس جديد.. أو منسق للحدائق له وجه شبرق، وجسد أخواته البنات.. إذن ليس فرساً.. ليس واحدة من النوق المتمركزات في المستنقع.. ليس الطهاة اللينين والمنكسرين، وليس أي حجر أو طوبة أو شجرة للهجليج.. فنانو علم الرعاع لا يفسرون.. الأمير لا يمكن سؤاله وأفكار الأصدقاء لا تهمد.. خلصوا إلى النتيجة التي لاحت لهم وحدها.. شبرق الفرس.. وشبرق الصديق وشبرق الذي كان من المقرر أن يتحور إلى الضد بين ساعة وأخرى بعد أن توعكت حوافره، مات.. مات..

بكى الرفاق بغزارة، وبكي (آدم نظر) بالحرقة الفعلية.. ليس على شبرق وحده، ولكن على لجة الطريق التي انفتحت أمام خطواته الآن،

وكان الفرس القديم يغطيها.. في البدء كان خوفه من التحور الهرموني.. والآن من الموت.. من الموت.. فقد مات شبرق.. من القاع نادى لعنات الفسق كلها.. وظفها في لعن الصياحات ونتيجة الصياحات.. وجليله المهاب الذي هو أيضاً في النهاية خصي.. لكن في منصب يغطي العورة حتى لا يكاد يعرفها أحد.. كان آدم يعرف.. وعرف منذ زمن.. وصاح وهو يعرف.. ولم يستطع أن يقمع جبروت الصياح.. وهو يعرف.. والآن يعرف.. فقط.. لم يكن يعرف أن في الأمر رعاعاً.. ظنها رمية من غير رام قد تصيب ويرفضها، وقد تخفق وترفضه.. ما وظيفة ذلك الأب الشيخ؟ وما موقعه من الدنيا التي غادرته حين غادرها من باب الذكورة الذي هوى.. أكيد مثل (قلب الأسد) الذي لن يعود إلى (حرّة المسلاطية) ولا غيرها.. أقاموا العزاء السري للفرس شبرق.. أبنوه بالدمع والعواطف ودفنوا قميصا مهترئا في باطن الأرض.. وقالوا.. لقد تخلصت من غازات البطن.. تخلصت من وحل الطرق.. من الحصى.. وبخار الدمامل.. ومن تلك الصفعات الأليمة التي تعقب قراءة الحظ.. كما هو تغير إلى الأفضل.. إلى رحمة الله يا شبرق.. إلى رحمة الله يا حبيبنا.. ولكن ماذا لو عاد؟ ماذا لو كان في مهمة وسيعود؟ لا لا يقول الفرس (آدم نظر).. يقول الضد (عاتق).. تقول الناقة (سرور)، وتقول العلامات البذيئة التي لا تشير أبداً إلى عودة مفتقد.. بحيرة الرمل في وسط اختبار الأعصاب.. والحصى أسماك من التفاهة، والأمير يتلثم.. والأمير يصرخ..

اقرأوا حظي ولكن عن طريق ضرب الرمل..

ضرب الرمل؟ لم يكونوا رماليين.. أبداً.. ولا كانوا في الأصل قراء كف معتمدين قبل انضمامهم إلى هذا العالم.. وما كانوا يقرأون كف الأمير إلا خوفا، وإلا ارتجالا، وإلا ترديدا لجملة، وأخرى تصدق إحداهما أو تخيب.. اقرأوا يا تافهين.. تافهون بالفعل.. وأتفهم أنا حين

تعلقت بالحلم الخصي.. وحين تخليت عن أمي.. عن الرزينة.. وعن ولد الحُور الذي كان صديقا مخلصا.. يقول آدم في سره..

مولانا الأمير.. اعطنا يدك..

ليست يدي بل حصى ورمل على الأرض اقرأوا.. تافهين.. كان ثمة بصاق مر.. ولعلها صفعة مؤلمة تلك التي تلقاها فأر.. أو حمار.. اقرأوا.. تشتتوا في بحيرة الرمل.. كل وحظه، ومجموعة الحصى التي قد تشنقه أو تخرجه من ذلك الجب.. ألقوها في بحيرة الرمل.. رددوا بالتتابع ودون أن يقرأوا لغة الحصى التي لم يعرفوها أبداً..

حظك في السماء كما هو لم يتغير

حظك تغير إلى الأفضل..

حظك كما هو.. ولكن يسير نحو الأفضل..

- حظك تغير إلى الأفضل وعاد كما هو..

وكان الفرس (آدم) شقيا حين صرخ..

- حظك اليوم ليس كالأمس ولكن مثل الغد مولاي الأمير..

استمع الأمير إلى تلك التفاهة المرتعبة بنفاد صبر.. وبآذان تخيلها الخائفون قد قفزت.. وتمشي بينهم.. تناول لثامه المتسخ.. غطى به وجهه، وارتشف رشفة جبارة من حساء حار كان بخاره يتناثر.. حساء الطيور الجارحة.. نهض واقترب من بحيرة الرمل.. شد الفرس آدم من لجامه..

كيف كان بالأمس.. وماذا سيصير في الغد؟

كان ممتازا وسيصير ممتازا..

- صدقت.

قالها رجل المهام الجليلة، وارتخت يده عن لجام الفرس.. وفطن الآخرون لأول مرة إلى جملة (آدم نظر).. إذن فقد حل ذلك الشقي تلك

الشفرة التي أرهقتهم زمانا.. ليس كاليوم ولكن مثل الغد.. ليس كاليوم ولكن مثل الغد..

بغتة دخل المساعدون الذين لم يكونوا أبداً من الرعاع الفقير المنتقى من جبال البؤس وأحياء الزبالة.. كانوا أمراء أو أبناء أمراء أو ملوكا للأرياف ولكن تبدلت مهامهم بطلب من رجل المهام الجليلة.. كانوا يجرون كلبا بحجم ثور.. يا الله. كلب بحجم ثور.. من أين جاءوا به؟.. لابد أنها خمسون كلباً حشيت في جلد ثور.. أوقفوه أمام الأمير، واضطر المذعورون أن يغرقوا في بحيرة الرمل حتى يفسحوا له المجال.. تلقاه الأمير بابتسامة كشفت عن نابين في حجم خنجرين حادين.. هل يبتسم؟

يا أهل (أنسابة) هل يبتسم رجل المهام الجليلة؟.. مؤكد يبتسم.. ومؤكد يضحك، ومؤكد له مشاعر مخزنة.. ولكن ليست للرعاع الفقراء.. لم يسمعوا أبداً إنه أحب، ولا سمعوا عن نية للزواج، وفي الوقت الذي كان الأمراء يزفون أطفالاً إلى حريمهم.. وصل مساعد إلى سن النضج الذي يبحث فيه الآخرون عن زوجات أخريات.ابتسامته ليست جميلة.. وفي أنفسهم بحقد أشد.. ابتسامته كأنها لدغة..

- هذه دابتي الجديدة..

وهو يمسك بلجام الكلب..

هذه دابتي الجديدة..

دابتك الجديدة؟ الحمد لله.. إذا فلا بناء ولا تحوير بعد هذه اللحظة.. ونحن الأحصنة والحمير والنوق.. هل ستعاد آدميتنا؟ لابد ستعاد.. فرحوا.. يقرأهم.. ويشخر.. للمناسبات الهامة فقط.. ليست للحصى والرمال والغارات والمداهمات.. الصدمة التي ما كانت ستحدث لو لم يجد الجديد ويتسرب.. حولوا أعينهم إلى الدابة التي بحجم ثور.. ما أفظع شكلها.. ما أعرض ظهرها.. ما أقوى تحملها

للمشاق وغازات البطن.. ولكن للأسف.. كانت للمناسبات الجليلة وما أندر الفرح الجليل في (أنسابة).. نهضوا بإشارة من رجل المهام، تفرقوا بإشارة منه.. ومشوا في ضغينة المستنقع بإحساس نظراته التي تكوي في الظهر..

مرحلتك الأخيرة أبي الشيخ.. وطلبات عديدة من قصر المسك، وزملائه القصور الأخرى.. وفي انتظار الرد.. يبحثون عن طهاة.. عن حرس للتمرد الناعم، وعن سقاة للورد الأحمر والأصفر والبنفسجي.. يبحثون عن مدلكين وحنَّائين، وماشطي شعر، ووصلته رسالة ملونة من (قلب الأسد - قلوب).. زميله القديم:

نتتظرك في قصر المسك.. يا دمدوم.. لا تتأخر..

إذن فدمدوم من سيعيش داخله، ودمدوم من سيعيش ليخنقه.. ودمدوم من سيسمع بحي الرديم ولا يستطيع أن يدخله إلى الأبد.

كان الآن بلا حوافر.. بلا وجبات مقوية ولا أكاسير للنشاط، وبلا إحساس الفرس الذي هو فرس وكان يحسه في السابق.. حتى غرة العنق الأصيلة أحس بها باهتة، وثمة رعشات جديدة كأنها رعشات أم، أو رعشات أخت أو جدة، أحس بها تغزو جسده.. وكمحاولة يائسة للبقاء فرساً أو الاستطالة إلى ناقة، حام حول نظرات الصقور المهووسة كثيراً، تمطى حول الأمير، وركض لساعة كاملة، دون انهيار، لكن نظرات الصقور ما عادت تلتقطه.. وأحصنة جديدة ترعى، وكل شيء يتأرجح، وكل شيء يضيع.. والنصيب.. النصيب..

جاء المصممون أخيراً.. أخذوه إلى تلك الغرف البعيدة المعزولة، والصلدة الجدران، والتي فيها روائح الدم وروائح العفونة.. ولوازم التحوير كلها.. السكاكين.. الزيوت الحارة.. خيوط التغليف وأكاسير لم الصراخ والصدمة.. لن يكون العمل سهلاً لكنه سيكون.. يصرخ.. طبعا سيصرخ.. يبكي.. طبعا سيبكي، ويموت.. ممكن.. ممكن.. في

تلك اللجة التي لا فكاك منها.. وتوابع الصيحة التافهة في الجمعة الظليلة.. لو أمسك به المهاجر (عبد الرب) وعلقه من أذنه.. لو تعلقت الرزينة بثياب الأخوة.. صرخت.. لا تصح.. لا تصح.. لو ماتت أمه في تلك الجمعة بالذات.. وذهبوا للدفن والناس يتصايحون.. لو حرك ذلك الكبير المهاب ساكنا.. وهمس في أذن السلطان.. ولد مستهتر يا مولاي.. ولد أخطأ يا مولاي.. ولدي وأعلمه الأدب يا مولاي.. ولكن بذاءة الألسنة.. وتتبع الإحساس الذي يقود في النهاية إلى العالم المخفي.. ولكن بالضفائر والكحل، واللمعة الهرمونية.. لن يكون العمل سهلاً.. لكنه سيكون.. وتستغرق بذاءة التحوير أياما فقط.. اصمد..

يا لتفاهتك يا جبروتي.. يا لسوء تفانيك وسوء تقديرك للأمور.. ومن قرية أم حراب التي تتكئ الآن على عشبها وحليبها، وصدور أمهاتها.. ما تزال تتعقبنا؟ نحن الأسرة التي تمزقت، نحن صانع الطبول الذي لم يحج.. الرزينة التي لم تحتمل حبك.. الأم التي تترمل في تفان، والصبي الذي يمشي إلى الضد دون أي خيار..

تأتي الرسالة الجبروتية الجديدة.. تأتي وبنفس المواصفات، وخط الرعشة، والرزالة، وتضيع لا يقرأها أحد.. لأن لا أحداً كان معنيّاً بالأمر، ولا أحداً كان يملك بؤراً إضافية في العين لقراءة رسالة لا تعني شيئاً لأي شيء:

(أنا مستقر في الريف.. في الصدر الدافئ الحنون.. أمي سامحتني.. إخواني سامحوني.. وزبائني القدامى عادوا إلى السؤال عن عطوري.. هل تعلم كم سائح أجنبي افتقدوني، وكم مرة سأل عني الشماس عبود أثناء مروره على أم حراب؟ حتى فتاة البادية تلك.. التي حدثتك عنها، عادت لتستقر. فقط شيء واحد افتقده.. وأتمنى لو عدت إلى مهلة التفكير التي هي أعذب من الحياة خارجها.. طلب وحيد أيها الصديق.. أؤمر الرائعة أن تفكر مرة أخرى.. لم أستطع نسيانها.. وفكرت أن أعود

ولكن بأي صفة؟ قل لها أن تفكر.. لا أريد زواجها ولكن العيش قربها كشخص تقدم ووضع داخل مهلة للتفكير.. انتظر ردك.. انتظره على أحر من الجمر).

الرائعة في الرسالة الرذيلة.. والرائعة في لغة (نجَّام).. والرائعة في أمنياتها الشخصية، ولكن أي روعة الآن؟

كان (نجَّام) وبعد جهود خارقة أمضاها برفقة السفليين، ومتعاطي طب الفقر وموقدي جمر العين الطارد للحسد، قد أفلح في علاج الرزينة.. ذهب بها إلى (ولد أعرج) اللامع أصلاً، و(شقلة) الذي بدأ يلمع، و(غندور) المنطفئ منذ عهد..

الرزينة أنا عكازك الصلد.. اتكئي علي.. أن أمك الحانية.. ابكي على صدري كما تريدين.. أنا أخوك.. أنا أختك لا تكتمي سرا..

تتكئ على العكاز الصلد، على صدر الأم، أخوَّة الأخت والأخ.

وفي حضرة أولئك الماديين والجشعين، والذين يقيسون طوله وعرضه، ونظافة ثيابه.. يطالعونه بقرف، وينادون دنانيره من داخل مخابئها.. كان يوضح ويوضح بشدة:

تحتاج فقط إلى تطييب خاطرها.. ليس أكثر من ذلك.. صدقوني يا شيوخ.

من قال تطييب خاطرها فقط؟ الفتاة التي تبكي بلا انقطاع، والتي تتوه وتنسى وتفقد الطعم، وتتغذى بالنبق والحميض المر، والسلطنة كلها خيرات؟ من قال تطييب خاطرها فقط..

كانوا يقيدون ذراعيها الرقيقين بحبال متينة.. يجلدونها بعصي الخيزران الأمية وجذوع (الهجليج) القوية.. والتي لا تفرق بين جسد وجسد.. رقة وخشونة.. يبخرونها تحت الملاءات بأوراق كلها طلاسم.. ويبصقون على وجهها في كل لحظة.. تف.. تف.. تف..

- لماذا تبصقون؟..

لنطرد شياطينها..

- ولماذا تلك القبضات القوية على العنق؟ إنها تختنق تحت القبضات..

- نطرد شياطينها.. أسكت.. أسكت..

حذفوه من حضور الجلسات أكثر من مرة، وهددوه بتحويله إلى قرد أعور لو رفع صوته أثناء طقس العلاج.. يسكت الخصي متورما.. يسكت على مضض.. أن يكون أما للرزينة هذه معضلة.. وأن يكون أما ملتاعة.. هذه معضلة أكبر وفي اليوم الذي قالت فيه الرزينة اسمها كاملاً دون تلعثم، وقامت إلى شعرها، مشطته بحنكة، ولمعت وجهها بمرطبات الوجوه.. قالوا لقد شفيت.. عاد بها إلى بيت أمها الذي طلبت أن تذهب إليه.. وراقبها لعدة أيام، وهي تكنس.. وتطبخ، وتعد الأكاسير لأمها المريضة.. ثم تنهد في ارتياح..

الآن تخلصت من أمومة الرزينة.

وكانت سعادته في أشدها حين جاءه أهل الرديم كلهم.. الكبار والصغار والمرضى والمتعكزين، كانوا يشكرونه على ذلك الواجب الكبير تجاه عائلة نهش الزمن لحمها.. لا شكر على واجب.. كنت أؤدي واجبي..

وفي أحد الأيام، انتهك الرعاع بغتة أجواء الحي الفقير.. كانوا من الكثافة بحيث غطوا الفقر، وغطوا الحفر، وغطوا رائحة التوابل في القدور، وتوزعوا في النسيج (الرديمي)، خلايا ومسامات، وقنوات هضم.ولم يكن رجل المهام الجليلة بينهم.وكان أكثر ما لفت النظر، وهيّج الفضول، ذلك الورد الذي كانوا يحملونه، والعطور التي دلقوها في الحفر، وأقمشة الكتان والحرير التي كانت مكومة على ظهور دوابهم.مروا من زقاق إلى زقاق ومن منحنى إلى منحنى، وتوقفوا عند بيت الخصي (نجّام) وحده دون سائر بيوت الحي التي كانت مشرعة

تلتهم.طرقوا على الباب طرقات زائر عادي.. انتظروا الرد بانتظار زائر عادي، وحيوا صاحب البيت بتحية الزائر العادي للغاية.. الذي ينتظر الإذن بالدخول.وأخذوه ليس مكبلا ولا ممغوصا ولكن ممجداً تخنقه الزهور، ويفوح من جسده هذيان العطر.كان الحي كله مشوشاً، ولم يعرفوا مغزى لتلك الحادثة بالذات، فلو كانوا يريدونه لوظيفته القديمة في طهي الحساء الجارح، لأخذوه صاغرا، ولو كانت ثمة تعليمات لهرسه، لهرسوه واقفاً، وحتى لو أرادوا مثانته، لاقتلعوها من أحشائه دون إبطاء.. وبلا ترف في تلك الحراير والعطور، وذلك التهذيب الذي لم يره أحد في السلوك الرعاعي من قبل.إذن لابد أن نجَّام يتألق في حظ مباغت.. مرشح لوظيفة ملك من ملوك الأرياف.. كبير حقيقي للطهاة في قصر المسك وعند السلطانة الأثيرة.. حارس عالي الرتبة لواحدة من بنات رغد المتمردات.. وهم يأخذونه كان يستخدم أسنانه في ابتسامات مزركشة، يستخدم شعره في الرمي والاستعادة والرمي والاستعادة، وعلى ظهر الحصان الذي وضعوه فيه، كان قميصه أعلى قليلاً من مستوى السرة.كانت الرزينة حاضرة واستفسرت، وكان الخصي لا يعرف ولم يرد، وكان الرعاع سريعين في المشي بحيث اختفوا والرزينة فاغرة عيونها.

وفي أحياء أخرى مشابهة أو مختلفة تكرر المشهد ذاته بجدارة.. الرعاع المقتحمون.. العطور والأحصنة ولمعة الحرير، والسلوك الراقي، وخصي أو عدة خصيان، يعاملون برفق، ويستلفون من بين السكان.فقط بلا رزينات يفغرن العيون عند استلافهم.

ماذا يحدث في سلطنة (أنسابة)؟

ماذا يحدث في (جوا جوا)؟

ومادامو يكرمونهم بهذه الأريحية، فلماذا ينتقون؟، وإذا كانوا سيلغونهم من بنية المجتمع وتقاليده، فلماذا هذه الأريحية؟

انتشـرت الشـائعات في (جوا جـوا) بأحجامها المختلفـة.. النحيلة جداً والمعتدلة، والبدينة التي لا يقوى أحد على رفعها إلى اللسان:

يرسـلونهم إلى كردمال المحـررة لتعليم نسـائها التطريـز.. والطهي.. وتنسيق الحدائق.

- يكونـون منهم جيشـاً نظامياً.. حتـى إذا حدثت أي حـرب رموهم في الواجهة.
- يكونون بهم مجلساً مبجَّلاً أشبه بمجلس الجدات، تقديراً لعطائهم في الحرب الأخيرة.
- يسخرونهم لحلب البهائم وتغذية النوق.

ينتقـون مـن بينهم أباً شـيخاً جديـداً.. خلفا (ليوسـف كـرا) الذي مل السلطان من وجوده ويسعى إلى تغييره.

تلك الشـائعة الأخيرة بالذات كانت في غايـة البدانة، ولم يكن من السهل حملها والطواف بها.. إلا لقليلين لم يكن يعنيهم أي شيء.. وإذا كان الصيـاح أمنيـة بتقلد منصبه كما حدث في شـأن الصبـي (آدم نظر)، عد بذاءة ألسـنة واسـتوجب التهذيب، فكيـف إذا انطلقت شـائعة تقصيه عن ذلـك المنصب بالفعل وتضـع مكانه خصيا مغمـورا.. كان الناس لا يدرون، ولا يستطيعون أن يدروا.. يلتهمون الشائعات، فيهضمون بعضها ويتقيأون البعض الآخر.

جمعـة (الكـوراك) التالية كاسـدة على غيـر عادة الجمـع التي كان الازدهار فيها أمرا حتميا.

كان الموسـم حصـادا للـذرة والدخن والقمـح والحميـض، وكان المزارعـون يحصدون.. قوافل جديدة من صعيد مصر والحجاز وتمبكتو واليمن تتقيأ في السـوق، والتجـار يغرفون.. خريف قاس شـوه الطرق.. ومد من أيام السفر.. وأهل القرى والجبال بعيدون وجمعيات غير مألوفة نشـأت لثقافـة المـرأة الأنسـابية وتعليمهـا المسـتقبل.. وفوائـد الرضاعة

والنساء منشغلات.

كان ((الهجليج)) ظلا للقليلين.. أشجار الفخار سقاية لعطش قليل.. صياح من هنا.. صرخة من هناك.. أغثني.. أنصفني.. أرروك.. و(حلحلوك) المجنون يصرخ:

بلا ثدي..

وليس في الأرض.

وخيول الرماد.

لم يكن ثمة متضرر أكيد في تلك الغارات الرعاعية المشذبة، لكن سلالة الضد وضده التي لم يأخذها الرعاع بعد، وتتوقع غارات جديدة.. كانت خائفة وميتة من الخوف.. وأطلقت شائعاتها الخاصة التي لم تخرج إلى الناس ولكن تحاومت فيما بينها.. سيفرموننا.. سيجعلونا متاريس.. سيلغون فقرة المساواة من دستور (أنسابة).. والصراخ في المجلس بحق.. بعمق:

(مولانا السلطان.. ماذا يحدث لخصيان سلطنتك.. مولانا يأخذهم الرعاع.. مولانا نحن خائفون.. أرروك.. أرروك).

الأصوات الرقيقة الرقراقة.. أصوات الحماس.. وأصوات النواح.. أرروك.. أرروك.. الترقب القليل.. والترقب الخائف، والرد يأتي عبر السلسلة..

- إجراءات عادية تمهيدا لتكريمكم.. لا تخافوا.

لكن السلطان كان متوترا، وما كان يدري حتى تلك اللحظة أن ورودا تبعثر، وعطورا تراق، وخصيانا يساقون من أحياء السلطنة في مواكب جمالية مبهرجة.. وفي مجلسه الاعتيادي وسط جلسائه العاديين ليوم الجمعة، أبدى نواجذ غير مبتسمة، وحك جلداً لم يكن محتاجاً إلى حك.. والتفت إلى رجل المهام الجليلة..

- ما الذي في ذهنك بخصوصهم يا مساعد؟

- اتبع إحساسي يا مولاي.

نظرات الصقور المهووسة فيها غرابة، والصوت نفسه كان غريباً، وتذوق السلطان تلك الوجبة وكان فيها طعما مرا..

ولماذا إحساسك يتبع هؤلاء.. لماذا يا مساعد؟ الطباخون.. الكناسون.. ذوو الشعور المضفرة.. لماذا هؤلاء؟

أحاول كسبهم يا مولاي.. أقربهم للسلطنة.. أمنحهم القليل وأنتظر منهم الكثير..

(رغد الرشيد).. اليقظ والمهلوس، والحاكم الذي لو طنت بعوضة حول أذنه لأوجسته.منذ أعوام طويلة اخترع رجل المهام الجليلة، اخترعه من صلبه أولا، ثم من تلك الخيوط المبعثرة التي سمح له بتضفيرها، صدَّره إلى الناس.. إلى معيشتهم، وتجوالهم، وغرف أحلامهم المجهدة، وما أحس بالخطر إلا بذلك المقدار الذي يسمح له بتلافي الخطر.. في البروتوكولات القديمة التي سمع عنها، ومن تجربته ضد أبيه أيام مرضه وزوغان عينيه الأحياني عن أمور السلطنة، يعرف أن للأبناء أهواء أيضاً، ولهم أطماع أيضاً، ولا مانع من كسب ضد كسب.. كسب السلطة.. ضد كسب الأخلاق.. وما دام (مساعد) هو القوة التي تحمي، فلماذا لا يكون القوة التي تبطش.. ليس موضوع خصيان جمعوا وأكرموا، وأحيطوا بعناقيد الورود.. ليس موضوع لكنة غريبة في موضوع غريب لم يفهمه، وما أراد فهمه، وليس موضوع خطر أكيد يتربص.. ولكن الإحساس.. الإحساس نفسه الذي صير الناس نوقا وحميرا، وأحصنة للركوب، ومضفري شعر ومكحلين، يطبخون لمسك النساء وجباتها الأثيرة.. الإحساس نفسه الذي نبع في لحظة صياح متهور من صبي متهور.. الإحساس نفسه الذي قد يتبع حتى مخادع سلطنته العديدة، ويرشقه بسهم.. اتبع إحساسك يا مساعد.. أتبعه في البعيد.. ولكن لا تقترب.. لا تقترب.. يا بني.. يا حبيبي.

التفت إلى رجل المهام الجليلة هذه المرة بتصلد السلاطين الذين لن يخسروا حرباً لأن رجالاً قد يموتون، ونساء قد يترملن، وأطفالاً قد يتمون، وسلعاً قد تشح، ومياهاً راكدة قد تظل راكدة.. عراقة السلاطين الذين يتذوقون طيب المسك.. وطراوة النساء، وهتافات الحشود، وزينتي الحياة الدنيا، ولن يسمحوا بأي حال من الأحوال لطيب المسك، وطراوة الجواري وزينتي الحياة الدنيا، بإطالة سهادهم حتى الفجر في أيام سلطنة أبيه (نفر المقدم).. وتحديدا في أيامها الأخيرة كان ثمة تصلد يتفكك، وكانت ثمة عراقة تزول، وسهاد والده امتد بالفعل حتى الفجر، وكانت المداخل كثيرة ومتعددة، وكان الليل عند (مسك النساء) تحريضيا وعامرا بالثرثرة، وكان الحراس قد بدأوا يلينون، والأمن الذي في يده.. هو (رغد الرشيد).. في يده أكثر.. ولم يكن في حاجة إلى جبة جديدة، وعمامة جديدة، وحصان جديد، ولم يكن في حاجة حتى إلى تغيير جلسته التي يجلسها.. لأنه كان في النهاية سلطان (أنسابة) في وجود مريض (أنسابة)، وعاقلها في وجود غافلها.. والمسيطر في وجود الذي طارت من يده السيطرة.. الأمر يختلف الآن.. يختلف يا مساعد.. لم أصب بعد بمرض (الهيضة) أو (الهبوب) أو حتى جيوب الأنف.. يختلف يا مساعد:

ألغ المشروع كله.. ألغه في التو والحين.. لقد أعطيناهم أكثر مما يستحقون ومما كانوا يتوقعون.. ويكفي أننا عدلنا الدستور وأثرنا السخط.. ومنحناهم منصبا حساسا.. هو منصب رجلنا الكبير وأبينا الشيخ..

كان المهاب الجليل (يوسف كرا) حاضراً بعادة الحضور الأسبوعي.. وكان يهز رأس الضباب مؤمنا على قول السلطان.. أكثر مما يستحقون.. والواقع أن رغد لم يعطهم منصبهم، ولا كان من ابتكاره.. هو المنصب الرسمي والمعتمد.. منذ (يوسف ضو) مؤسس (أنسابة)

الحديثة.. ولو كان قد أعطى فعلاً.. فهي تلك الفقرة التي ساوتهم بالرجال ومنحتهم حق الشهادة..

- صدقت يا مولاي.. صدقت يا مولاي..

صوت الهيبة الرقراق.. والذي يأتي من الشفافية، وكأنه الصوت البديل.. الصوت المستعار.. الصوت الذي ما من المفترض أن يكون..

تلك الجمعة وقبل أن يلتم ليلها، وترتع كلابها، وقططها وأشباحها.. عاد الأضداد كلهم إلى مخادعهم.. عادوا بوجوه لم يمسها الضر، وأزياء أشد لمعة من أزيائهم، وعادوا بالكحل وزيوت الضفائر ولكن بألسنة كسولة وفيها شهية للصمت.. عاد (نجَّام) إلى حي الرديم.. نجَّاما أجل مسكه يعبق، وقميصه في مستوى السرة، وكان ثمة خاتم من ذهب العيارات قد أضيف إلى إصبع الإبهام في يده اليمنى.. التف الرديم حوله.. كانوا يسألون ويلحون، ويعاودون ويلحون، ولا نشاط يظهر في اللسان.. حتى رقة (الرزينة) لم تحركه، كانت رقة محببة وعلى العين والرأس لكن لا شيء.. لا شيء يا رائعة لا شيء..

كيف لا شيء.. والجمعة ارتبكت، والسلطان حائر والجليل المهاب تحدث.. والأمير احتد.. وأنت عدت؟ كيف.. كيف يا نجَّام؟ لا شيء يا رائعة.. مجرد أحداث في مجرى الحياة.. نعم.. مجرد أحداث.

الآن في غرف التحوير البعيد، وبين مضخات عطر الألم، ومضخات ماء الجفاف، يتم كل شيء، ووفقا لذلك النصيب.. الذي صاح في الجمعة الظليلة، الذي كان بذئ اللسان، والذي حور إلى فرس يحمل الغازات.. والذي تطلبه القصور المعطرة في إلحاح..

مرحلتك (القصورية) أبي الشيخ..

مرحلتك الطاهية، والمنسقة للحدائق، والكانسة للأبسطة، والحارسة للتمرد الناعم.. والمدحرجة نحو غوامض قد لا تستطيع حلها..

اندس المصممون في منبع هرمونـات الذكورة، أزالوه بحنكة.. في مصب الهرمونات.. أحالوه إلى رماد يسبح في لبخات نبات (القرض) المطهرة، والزيت المسخن، والحمى الانتفاضية التي أعقبت، وبركوا يغسلون هذيانها..

يوم.. يومان.. شهر.. شهران.. ليالي مسهَّدة.. صباحات فيها اضطراب غدد، ورائحة توهان.. ثم في متناول اليد.. ضد جديد.. خصي واسع الحوض، ومضفر الشعر، ومقترن الحاجبين، ويملك الثوب الذي يرتفع حتى السرة، والصوت الذي ينوح أو يغني الحماس.. ويملك المؤهلات كلها.. لوظيفة لا تمت بصلة لصناعة الطبول التي تجري في دماء العائلة..

لم يكن يصرخ أبداً، لم يكن يئن أبداً، وما انحدرت من العين أي دمعة فقد على شيء عزيز أو غير عزيز، أو تحسر على مستقبل.. الذي صاح في ذلك اليوم البعيد، والذي حور الآن.. والذي يخرج أباً شيخاً مهلهلا.. ليس في الواقع من حي (الرديم) المرهق، ولكن من مستنقعات أشد قسوة ومرارة.. في الأيام الأولى خاف من عاهته كثيراً.. طالعها وانتفض وأحس بالغثيان، وحين تتابع الزمن وأصبح للعاهة موقعها العادي وسط عادية الجسد ما عاد شيء يرج أو يسبب الغثيان.

-11-

قصر (المسك) من الداخل المخفي..

داخل النرجس، والمرارة، ومصابيح الزيت الملونة، ومطابخ اللذة والتعب، والطموح الجارح.

الحريم.. الجواري.. حراس الحريم، وحراس الجواري، وامرأة الحب المزركشة والدافئة، والمسننة الأظافر، والتي تعرف من أين تؤكل أكتاف السلاطين، وفي أيّة ساعة تمسكهم رجال بيت لا رجال مجالس، وحالبي ريالة لا حالبي وعود، وجائعين بالفعل.. لا مجوعين لسلطنة بأكملها.. السلطانة (مسك النساء)..

كانت هندسة المعمار في (أنسابة) حتى وقت قريب، ضحلة للغاية، البيوت من الروث، والقش والصفيح، وجذوع الأشجار اليابسة، ومن طين أبيض فقير لا يعطي لمعة أو زركشة.. وكانت بيوت السلاطين والأمراء، وبعض التجار وملوك الأرياف، من طين أحمر محروق.. كأنه خامة البناء الأرستقراطي.. وكان في الواقع مجرد لون.. ولكن بلا معمار.

سلطنة الطين.. كان المستكشفون والعابرون، وقساوسة التبشير ذوو الطباع الغريبة يسمون سلطنة (أنسابة) هكذا، والتي كانت سلطنة طين، وقش وصفيح، وسلطنة خيام من الشعر يضفرها البدو المقيمون في العراء، وحول القرى والمدن.

كانت مشكلة (يوسف ضو) وهو يؤسس، ويرسم، ويخطط لسلطنته.. هي كيف يلم (أنسابة)؟.. يلمها أمزجة وصراعات.. وسحراً وخرافات، وخامات فتن وتناحرات.. ومدى وعكاكيز، وسيوفاً بارزة

للنحر في أية لحظة؟ وقد لمّها بالفعل.. قضى على صعلكة (آل درب) الذين كانوا حكّاماً بلا مقومات، ولا هيبة ظاهرة. وشردهم إلى كردمال المجاورة، ليحكموها بعد ذلك مستفيدين من ضعف العشائر على أرضها.. لأن يوسف ضو القادم من بلاد شمالية في التفكير وشمالية في الإرادة، وتقدير الأمور، والمغامر، والفارس والمجروح والجارح، كان ذا عقل ليس منفتحا كمصراع باب أو مصراع بابين، ولكن كمصارع خمسين بابا مجتمعة.

أيدوه كلهم.. وسلطنوه على تلك الهذيانات التي لمّها في قرى ومدن، وجبال وعاصمة، وصحراوات، حولهم من مزارعين بلا غلال إلى مزارعي غلال وغلال ناجحة.. حولهم من تجار للحم الصيد والخرز المحلي.. وأخشاب الغابات، إلى تجار لهم تجارة حقة.. تأتيهم عبر القوافل من كل صوب تتجه إليه العيون.. وحولهم من فقراء أيديهم في التهلكة، إلى فقراء أيديهم في التهلكة الأقل.

كانوا يغنون..

(يوسف ولد أبوي.. يوسف.

الصقر أبو عيون.. يوسف.

الصدر الحنون.. يوسف.

قلام المحن.. يوسف.

ما بخاف من عدو.. يوسف.

وما بنقض وضو.. يوسف).

قصر المسك من الداخل المخفي..

صرعات القلل ذات الحواف المذهبة، وأزيار الفخار ذات الأغطية التي بلون الشفق.. والأسرة المفردة والمزدوجة، والمنسوجة من حبال خضراء وبنفسجية.. صرعات النداء المنغم عند الطلب، والصفعات الأليمة عند تأخر الطلب، رحابة الصالات التي لم تصنع لتستخدم،

ولكن لتلكز الأبصار في ذلك التجوال المريع، كان للخدم زيهم المميز، للجواري خطواتهن المميزة، ولمرآة الزينة الرئيسية فروع عدة تنتشر في أرجاء القصر كلها.. مائدة الجمعة الصياحية.. هل هي مائدة؟ هل هي كنز؟.. هل هي استعراض شقي؟ هل هي؟ وحفلات الزار.. والتنقية من الحسد التي تؤمها نساء الوجهاء.. هل هي حفلات؟ هل هي استعراضات؟ هل هي؟

كانت (مسك النساء) امرأة لبائع متجول لحلوى (الدرادم) اللزجة، معشوقة الأطفال ومسيلة لعابهم، والتي تصنع محلَّياً من الفول والسكر والعسل بتقنيات فقيرة.. ومهما بيعت ومهما نفدت فهي السلعة الفقيرة.. للبائعين الفقراء.. ذات الإيراد غير المنتظم، وصانعة الحياة التعيسة التي قد تخلو حتى من ردة القمح، وعصائد الحميض وقناديل الذرة المحمصة.. .في بيت من الطين الخشن كسائر بيوت (أنسابة).. في شارع غائر في الوحل والصعوبات كسائر شوارع (أنسابة).. في داخل المعاناة.. والمسكنة.. وأنباء ارتفاع أسعار الغلال وانخفاضها.. واشتعال التحرشات وانطفائها، كانت (مسك النساء) هي الطراز القابل للغطرسة لو كانت ثمة فرصة للغطرسة.. الطراز القابل للذوبان بجنون لو رأى فارساً على حصان أو حريراً ناعماً على جسد أو لقمة من لحم الدجاج على فم.الوجه الجميل الطاعم.. الرموش المنسدلة حيناً والفارعة أحياناً.. العنق المرمري الوهاج.. والمفتقد لزينة الكمال التي ستكمّله.. الذهب المغشوش.. الفضة المغشوشة.. والعقيق المقلد من سوق الفخاريات.. ليست هي الزينة.. ليست هي الزينة.. ثمة حمى ورعشات أخرى بعيدة عن ذلك (التحت) المنسي وقريبة من ذلك (الفوق) المتألق.. ولكن لا سبيل.. لم يكن أمراء السلطنة متاحين لحب العوام، ولم يكن ملوك أريافها يعشقون جمال المدن إلا نادراً.. وما كان ثمة طريق آخر سوى البقاء زوجة، ولكن زوجة تتحسر، لبائع حلوى لزجة ورخيصة.لم تحبل

مسـك النسـاء من زيجة الفقر تلـك.. كانت من العنـف والتقلص بحيث لم تسـمح لهرمون ملقح باختراقها، وكانت تزدري سـوائل التلقيح كلها، وذلك بكنسها مباشرة بعد كل ليلة عاصفة.. الهمجي الفقير يريد أطفالاً ولن أنجبهم.. لن أنجبهـم أبداً أيها الهمجي الفقيـر.. تؤلمها الريالة التي تشـاهدها فـي نتاج الغيـر.. يؤلمهـا الصراخ الجائـع، والصـراخ العاري، وتسد أذنيها بحنق إذا سمعت عن أمير تزوج أو ملك ريفي أقام مأدبة.

الحرب.. الحرب..

كان الكردماليـون يتحرشـون.. و(أنسـابة) تـرد.. الأنسـابيون يتحرشون.. وكردمال ترد.. يتمزق الحدوديون، يلجأون إلى القرى.. إلى المدن، ويخرج منادي السـلطان إلـى الأحياء باحثا عن الأقويـاء ليقاتلوا والضعفاء ليموتوا.. ونسـاء الأصوات الرفيعة والحادة.. ليشـعلن نحاس الحماسة.. ويؤلفن المناحات..

الحرب.. الحرب..

شرك الشعوب إذا انتفخ سلاطينها.. ومقبرة ذات الشعوب إذا انهزم سلاطينها وحتى لو انتصروا..

كانت (أنسـابة) تجاور الكثير من الـدول.. دخلت معها في التجارة وفي الزراعة وفي مواثيق أخوية كثيرة كمواثيق المصاهرة، وحماية الرعاة والصيادين، وتبادل الهدايا والابتسامات.. لكن كردمال هي العدو.. العدو الذي لن ينس أبداً أن السـلاطين من (آل درب) هم في الأصل أنسابيون شردتهم المطامع وغرست على آثارهم السيوف.. الحرب الحرب.. لا أحد سـيبقى.. لا تاجـر.. ولا مزارع ولا حفـار للقبـور.. ولا بائع فقير لحلوى (الدرادم) اللزجة.. وكان أن ذهب الزوج الهمجي وطالب العيال إلى الحرب، وكان أن مات في الحـرب.. وتحولت الجميلة إلى أرملة..

ولكـن أي أرملة؟ بالطبع تلك التي سـتصبح، ويقبل صياحها، ويقيّم، وأيضاً يكافأ بقصر المسك.. مفخرة القصور وسيد معمارها.

تلك الجمعة العادية.. غير الظليلة.. ولكنها جمعتها.. جمعة الحظ، ومن ظل شجرة هجليج.. ومن حلق يابس مالح الطعم، ومن أحشاء أنثى مقروصة حقيقة بالجوع، بالجوع الحقيقي، وصامدة صمود الأحشاء نفسها.. وبعد أن ألقى (حلحلوك) المجنون صياحاته الشيخة عند ذيل السلسلة..

جارية بلا حلمتي أذن..

بيت في الفضاء بين السماء والأرض

عربة من فضة تجرها نوق صفراء

وقفت.. تشنجت:

(مولاي السلطان زوجي استشهد في الحدود.. وأنا بلا عائل.. ولا أجد لقمة للخبز.. أغيثوني.. مولاي السلطان.. أرروك.. أرروك).

عاشق الرقة في مجلسه الموقر وسط وزرائه وأعيان السلطنة، بلا سنارة في ماء عكر، ولا كلب صيد يتراكض، ولا رمح أو صقر مدرب على شم الفرائس.. ولكن الصيد يأتي.. يأتي حتى عنده..

استمع السلطان رغد إلى صياحات (مسك النساء) المأزومة بتمعن، وطول بال، لاكها، وابتلعها وهضمها، ولحس ريق القلب، وأرسل واحداً من فصيل حراسه (الظهوريين) لمطالعة منبع الصياح والعودة بأسرع فرصة.كان يشم في الصوت رائحة امرأة تشتعل.. وتخيل الوجه كما يريده هو.. وجه جارية صيغت من عسل مخلوط بماء الورد.. أو حلوى مسكّرة تلهب الإحساس.في زواجه الأول كان بلا خيال وكان صغيرا، ولماه أبوه في بيت الحلال دون استشارة. في زواجه الثاني والثالث.. كان قد بدأ يعرف الفرق.. الفرق بين الغصن والجذع، وماء المطر.. وماء البرك.. والسحابة الماطرة والتي لن تمطر.. وفي حياته السرية التي لم تكن في الواقع سرية.. كان ينتقي.. ينتقي ذوات الأصوات المنغمة.. وذوات القلوب الرطبة، وذوات الأجساد التي يكتبها الشعراء

مـن خيالهم.. وكونه ابنا لجارية تافهة من نسـاء (البرقد) تورط فيها أبوه، كان يشـعله ضغينة. لم يلتفت إلى جلسـائه إلا بمقـدار أن يلمحوا وجهه العـادي.. وجـه السـلطان.. ومـا تردد حين أرسـل الـرد عبر السلسـلة السباعية مختلفاً عن الردود كلها:

الأرملة مسـك النسـاء جعفر.. الأرملة مسـك النسـاء جعفـر.. يرجى مقابلـة مولانا السـلطان في قصـر (العزة) بعـد نهاية (الكـوراك) لهذه الجمعة.

لم يكـن ثمة قصر للمسـك فـي ذلك الحيـن، وكانـت الصياحات تـؤدى وتجاب في قصر (العـزة) الذي كان بناء موروثا وقريباً من وسـط (جوا جوا) تضـاف إلى بنيانه فـي كل عهد بصمة، كتلويـن نافذة أو فتح منفـذ، أو إضافـة حجـرة، أو ري حديقـة مهملـة. وقـد سـمي بالعزة في عهد (نفـر المقـدم) حين قال فـي إحدى الجلسـات.. أعتز بهـذا القصر جداً. لمقابلة مولانا السـلطان.. لم يرمش أحد من جلسـائه لكنهم شموا رائحة فـوران القلب قوية ووثابـة.. في الأحوال العاديـة، وفي صياحات نساء (الضهاري) البائسـات.. اللائي يرددن نفس صياح الأرملة.. رغيف الخبـز.. عصيدة الحميض.. مديدة الدخن.. يرد السـلطان بحفنة الخبز.. بكسـرة الدخن.. بعصيدة الحميض الفائضة عن حاجـة خدمه.. وقد يرد بخادم مسكين يزوجه من تلك الأرملة أو العزباء التي صاحت ولا مقابلة في قصر العزة أو غيره إلا إذا كان الصيد رطباً.. ومليئاً بالبهارات..

باغتـه جمالها المتطـور برغم فقرها، واسـتغرب حقيقـة.. كيف لم تنبت في بيوت السـلاطين هذه النبتة؟ كيف لم تنبت في تلك الحديقة.. أو ذلك البسـتان.. أو بقـرب ذلك الجـدول العذب؟ كيف يـا دوباجي؟ يـا لاليـا البرناوي؟ يا تـرزي كردمان؟.. كيـف لم تكن أمك يا مسـاعد؟ السمراء البضة، بعيدة مهوى القرط.. كيف؟ كيف؟

كان الأمير مسـاعد.. رجـل المهام الجليلـة في ذلك الوقـت حدَثاً

يتمرن على الجلوس المتغطرس في مجالس والده بناء على رغبة السلطان نفسه، لم يحس حقيقة بالحرج لأنه لم يكن يعرفه.. جالت نظرات صقوره المهووسة في المكان، توقفت لبرهة عند الوجه الساطع للفقيرة التي كانت تهتز من نشوة لا من خوف.. لم يتذوق وجهها أبداً، وبالكاد تعرف على أنفها، وفكر أنه أنف شمام.. تعرف على أذنيها.. وفكر تسمعان الهمس جيّداً.. وحين هبطت النظرات إلى قوامها اللدن، فكر أنه قوام جندي لو قاتل لكسب الحرب.. ليتها كانت أمك؟ وحقيقة كيف كانت أمه؟ إنه حتى لا يتذكر من وجهها سوى ذلك الذي هو وجه أم، ولا يعرف عن قوامها سوى ذلك الذي يتحرك في البيت جيئة وذهاباً.. ولو سئل عن صوتها لقال إنه صوت المرأة التي تأمر بإعداد الطعام في أيّة لحظة.

صرف السلطان جلساءه على عجل.. قال.. إكسير النشاط.. إكسير النشاط يا دوباجي.. إكسير حموضة المعدة.. إكسير وجع المفاصل يا كبير الحكماء، وصرفهم على عجل.. في تلك الجمعة رد على مائتي حاجة بائسة، أنصف رجلين مظلومين وذم أربعين ظالماً.. وفتح باب السجن لسبعة أهانوا السلطنة في جلسة شرب، وصاح بعض الوشاة في شأنهم.. والآن دور القلب للرد الحقيقي على ذلك الصياح الفاتن:

سأتزوجك أيتها الأرملة.. هذا أمر سلطاني..

لم يقل يا مسك النساء لأنها كانت رعية.. وكان سلطاناً.. (أيتها) اليابسة دائماً للرعية.. و(يا) الناعمة والمنغَّمة، دائماً للمقربين.. أيتها الفقيرة.. أيتها النائحة.. أيتها الصائحة.. أيتها المسودَّة الوجه، ويا.. حبيبتي.. يا.. سمر قلبي.. يا.. مليحة القد.. لكن حظوة لقاء السلطان وبذلك التجرد.. لا تحدث إلا للمقربين.. أو أولئك الذين يقتربون بالخطى الماراثونية..

- هل تقبلين؟

يقصد ستقبلين.. وما دامت قد اقتربت من عاشق الرقة بالدرجة التي تمكن فيها من عد رموشها وشعيرات أهدابها، وشم خفاياها، وحَملها في الخيال الذي ضاعف من جبروته غليان (الأكاسير) في الدم، وألقاها على سـرير الرغبة الطري، وشهق، فلا بد أن تقبل.. في عرف الرشيد.. وغيره من السـلاطين.. لم يكن ثمة رجاء في لحظة التصميم.. كل شـيء أمر.. وكل أمر منفـذ.. اقتل أخاك.. يقتلـه.. اذبح إبلك كلهـا.. يذبحها.. طلق المـرأة التي تحبها.. يطلقها على الفور.. أنت حمار ولسـت بشـراً.. نعم حمار ولست بشراً.. أنت الزرافة.. نعم أنا الزرافة. صحيح يوجد الدين.. وتوجد التقوى المبرمجة.. وقوافل الحج والعمرة.. وإرسال كسوة الكعبة الشـريفة في كل عـام.. ويوجد (لاليـا البرنـاوي) مفتي الديـار.. ويوجد شيوخ يدرِّسون الذكر.. ويكافأون، ولكن يوجد العرف السلطاني.. عرف الحكم.. أقوى الأعراف كلها.. هل تقبلين؟ ستقبلين..

أقبل ولكن بشروط يا مولاي.

الرعية تشترط؟

الرعيـة التـي تتشـرف برغبـة السـلطان فـي منـح العـز.. والترف.. والحميميـة المبجلة، وربما الأبناء الأمراء والفتيات الأميرات.. تشـترط؟ طبعـا لا يجـوز.. ولكـن الرعيـة التـي اقتربت مـن القلب بتلـك الخطى اللاهثة.. تشترط؟ يجوز.. يجوز..

- نعم.. ما هي الشروط.

انكفأ على وسـادة ريش النعـام الفاخرة يتأملها مـن جديد.. وراعه ذلـك الرنيـن القصديري الـذي ينبعث مـن قرطيها الرخيصيـن في لحظة احتكاكهما بالعنق.. أذنان غاليتان.. ولكن زينة رخيصة.. ألهته زوايا فمها عن حك أنفه.. فاستعر بلا حكاك، وألهته الأنفـاس التي ترتفع بصدرها وتهبط به عن التقاط أنفاسه هو..

- أريد قصراً باسمي لم يحدث مثله من قبل في (أنسابة).. أريده مكلفا،

ومرفهـا.. ومحاطـا بالحدائق والنوافير وفي وسـط (جوا جـوا).. هذه شروطي.

لم يقـل (رغـد الرشـيد) لا أو نعم.. صـرف أرملة الـود الجديد بإشـارة لم تكن صارمـة ولم تكن ناعمة ولكنها إشـارة (البيـن بين) التي تعني قـد وقد لا وقـد كانت مـن علامات حكم الرشـيد إذا فـار قلبه، أو ووجه بمأزق لم يحسـب حسـابه.. إشـارة البين بين في وجه الأرملة. وفيما تلى ذلك من أيام كلفوا معماريًّا وسيماً من الأتراك استقدموه على عجل.. كلفوه بإعداد خارطة الرفاهية لقصر جديد اسـمه (المسك) يزمع إنشـاءه في (جـوا جوا).. قالـوا يكلف مـا يكلف.. يصرف مـا يصرف.. يهدر من الموارد ما يهدر.. (أنسابة) ليست أقل من أي بلد آخر.. ويحق لسلطانها أن يحكم ويقضي في شئون الناس من داخل بيئة نظيفة.. كلفوا عمالاً مسـتقدمين مـن خارج السـلطنة أيضـاً.. بتنظيف وسـط العاصمة، وكنسـه من وحل البـرك، وروائـح الفضـلات.. وزرع القصـر والحدائق والنوافير، وفي يوم زفافه من مسك النساء الذي تزامن مع الانتهاء الفعلي من رفع قصر المسـك تحفة في العاصمة.. وفدت جموع الأنسـابيين من كل صـوب لمطالعتهـا، لم يتـرك (رغد الرشـيد) لعنـة إلا أرتكبهـا، وما ترك حيلـة من حيل الأزواج السـعداء إلا احتالها.. وكاد في قمة النشـوة أن يحـول ذلك اليوم إلى عيد وطني.. لكنه لـم يفعل.. وقد كرم الأتراك المصممون بتعيينهم معماريين في السلطنة، لن يصمموا أي معمار آخر.. وكوفئ العمـال المنفذون بتعيينهم عمالا لا ينفذون. الآن مسـك النسـاء هي السـيدة.. والآن قصر المسـك هو قصر الصياحـات التي تتم في كل جمعة.

وحده أمام نظرات الصقور المهووسة في جحر إدارة الرعاع، وقف (آدم نظر).. (دمدوم).. الضد وضـده الجديد الذي ما زالت نيران طبخه مشـتعلة لم تخبو.. كان الأمير مشـغولا جداً، وفي داخل المستنقع يتردد

همس كثير عن قرب تعيينه وليا رسميا لعهد السلطنة.. أخبار سخيفة.. يفكر البعض.. أخبار فيها بلاء.. يفكر البعض الآخر، ورجل المهام الجليلة لا يبدو مهتما بزيه ولا بحذائه، ولا بإزالة المخاط المتجلط قرب أنفه ربما منذ وقت طويل.. طالعه الخصي الجديد بتمعن، واكتشف أن في عينه حول، وفي كتفه الأيمن ميلان طفيف ولا تبدو أسنانه أكثر من أنياب ذئب.. ماذا يريد؟ حساء الطيور الجارحة أجدت طبخه وتذوقه وأثنى عليه.. ضفائري طالت كضفائر الآخرين الذين حوروا قبلي، وفي عيني كحل المشاق نفسه الذي كان يتكحل به (قلب الأسد) قبل أن يرحل..

لو قال اقرأ طالعي.. سأقرأه..

لو قال عد فرساً كما كنت، سأعود..

لو أمسك بتلك العصا الخيزرانية وأدمى ظهري بها لن أبكي.. ولو قتلني الآن، تكون المشكلة كلها قد حلت.. ماذا يريد؟

رفع الأمير نظراته عن طاولة التخطيط التي يبدو أنه خطط فيها منكرا طازجا..

اقرأ طالعي أيها الخصي..

طالعك اليوم مثل الأمس وغداً يكون مثل اليوم.

جملة البله التي اخترعها، وأعجبت الأمير.. وصارت هي الشعار الحظي في ليالي انتهاك السكون.. وفي تلك الأكواخ التي كانت كلها تعاسة.. طالعي أيها الأغبياء.. طالعك مولانا الأمير.. هكذا..

اقرأ طالعك أنت.

طالعي أنا؟ هل لي طالع حقا مولاي الأمير؟ ومتى كان للذي صاح، وحوِّر ونبتت على ظهره الدمامل.. والآن دمدوم الخصي الذي لن يرى أمه أو أخته الرزينة أبداً.. طالع؟ لو كان في أيام غير هذه.. أيام عطر السطوة الذي كان يخترعه ولد الحُور (جبروتي) مثلا.. أيام

امتصاص الجليل المهاب واستعادته في الليل مثلا، لقرأ طالع نفسه وكذب وأضاف، وقال.. يخبرني طالعي بأنني الأب الشيخ القادم إلى حكم (أنسابة) آجلا أو عاجلا. الآن مسألة الطوالع بالنسبة إليه محسومة.. حسمتها (درة) المحترفة منذ زمن، وحسمها قارئ الكف (رسول الأفغاني).. وحسمها الآخرون.. وحسمتها التجربة المريرة في مستنقع الرعاع. الظهر فعلا انحنى وسودته الدمامل.. الشيء العزيز.. سقط ومات.. ولم تبق في سرة الغيب سوى تلك المرأة التي تبصق على الوجه.. ويكاد الآن أن يقسم أنه يعرفها..

طالعي يتحسن إلى الأفضل.. مولاي الأمير.

- بل يعود إلى الأسوأ أيها الغبي.

لطمه لطمة أطارت الكحل من عينيه وحولت خده الهرموني إلى خد شاة ذبيحة.. إلى الأسوأ؟.. ما هو الأسوأ من دابة وخصي؟ ما هو الأسوأ؟ لابد أن بهارات حسائه اليوم لم تكن منضبطة.. لابد أن غازات عنيفة تكركر الآن في بطنه وترفع من مستوى ركاكة المزاج.. لابد أن إجراءات تعيينه إلى ولي رسمي لعهد السلطنة لا تمشي بالخطوات الملائمة. هل أسأله عن الأسوأ؟ ولكن هل يسأل الخصيان محورهم ومدور أحواضهم وزارع الكحل في أعينهم؟ لا لا ليس ثمة خد يحتمل.

- حسنا مولاي الأمير.

قالها وانتظر.. وتشاغلت عنه الصقور المهووسة برهة.. ثم:

- سنرسلك إلى قصر المسك عند تافهة الذكر مسك النساء.. هذا هو الأسوأ الذي لا تعرفه.. الأقسى الذي لا تعرفه.. والآن اذهب وسلمهم أذنيك ليثقبوهما.. لا نعرف مزاج التافهة في لحظة استلامك.

انكفأ على طاولته ليخط منكرا جديداً.. وانصرف الجديد المتمائل من أمامه.. كان يفكر بغزارة، ويعاود التفكير بغزارة أشد.. الأسوأ الذي

لا تعرفه.. ربما.. ربما. ولا يدري لماذا قفز (شبرق)، الرفيق الذي اختفى إلى ذهنه في تلك اللحظة.. كانت قد مرت أشهر طويلة على اختفائه، وحمل الرعاع طيبو القلب إلى المستنقع في أحد الأيام رسالة من واحدة من بنات (الشباريق)، أهله الذين انتزع من وسطهم.. سلموها ل(آدم نظر) باعتباره رفيقه.. الحماز الذي تحول إلى فرس.. وباعتبارهما اثنين كانا أكثر الأحصنة تحمُلاً لنزوات الأمير. كانت الرسالة باكية وكتبت بقلم من الفحم وطعمت ببقع من دم وريدي.. وقالت الفتاة إن حبيبها شبرق هو أعظم حبيب في الدنيا.. برغم كل شيء وأنها ستنتظر لفتاته ونظراته وهمس شفتيه إلى الأبد.

-12-

وصـل آدم نظـر (دمـدوم).. الرجـل وضـده الجديد الـذي ما زال رماد تحويره في مستنقع الرعاع.. موجوداً لم يُكنس، إلى قصر المسـك في يـوم خريفي نازف.. كان السـحاب مجروحا بعمـق، الهواء الرطب.. رطب بعنـف، حشـرات (أم دبابيك)الكثيفـة ترعى، وأسـراب طيور (أبو السـعن) تملأ الأرض والسـماء، ويتراكض من أعماقها الصخب.. وصل برفقـة حارسـين رعاعيين طالمـا كُلِّفا بنقـل العورات وترحيـل المخازي من منابعها إلى مصباتها، ووصل ملثَّماً، ومسـتور العـورة.. وكان مرتبكاً لأن قصـر الصياحات الـذي اعتاد فيما مضـى على مغازلته مـن الخارج المكشوف.. أيام تكالبه على امتصاص (يوسف كرا) واستعادته، وتقمص دمائـه، قد بدا له الآن قصر الغوامض الذي قد تدور فيه الفصول الأخيرة لاختناقه الغريب.كان مرتبكاً وحائراً.. وتصرخ هرمونات جسده الجديد.. فـي هيئة خد محمر.. أو ثدي موجع اللمـس.. أو خصر مدلوق بلا لم.. أو سـاقين نظيفين تسـاقط من كسائهما الشـعر أو ضفائر ناعمة تتضاحك مـع الريـح.. أو صوت ناعـس يضفر الآهات. ضـد حقيقـي.. تماماً مثل (يوسـف كرا).. الذي دائمـاً ما تمناه.. ولكن أين (يوسـف كـرا) المقيم فـي (الفوق) النظيف، وكـم يبعد عـن (آدم نظر) المنحدر فـي (التحت) المتسـخ.. كـم يبعد من (دمدوم) الذي سـيواجه الأسـوأ الـذي لا يعرفه كما قـال أمير الرعـاع؟ وصل في سـاعة تواطؤ التذكر الـذي بعثره في الخسـارات كلها، والاندحارات كلها، ومواد غليان الـدم كلها.. لم يكن اليوم هو جمعة الصياحات ولكن التذكر صيرها كذلك.. قادها من ماض بعيـد وصيرها كذلـك.. ولجّمهـا من لجام قـوي وصيرهـا كذلك.هاهي

خطوات الرجولة الوليدة التي تمشـي في زحام (جوا جوا).. ممسكة بيد قوية وجافة لصانع طبول كان يسـعى بضراوة إلى الحج.. ها هو الجسـد الغض يستظل ب(الهجليج).. هاهي السلسلة السباعية تنتظم.. والحاجب ينتظـم.. والجليل المهاب يهبط عن فرسـه بعمامة الضبـاب وعلى أيدي العبيد الخارقين.. ويخطو بجلد النمـر المغاربي إلى داخل القصر. الأب الشـيخ (يوسـف كرا).. يهتف الهتاف.. تزغرد المزغردة، يتناثر المسك. هاهو (حلحلـوك) المجنون يحكي.. ثعلب إفرنجـي قابلته في البراري.. قـال (جود مورننج)حلحلوك، قلت له (جـود صليبك).. لفخني برجله.. لفخته بقرني الاستشعار وهاهو بحلق الجنون يصرخ:

جارية بلا ثديين..

منزل ليس في الأرض.

عربة من الفضة تجرها خيول الرماد..

هاهـي المسـلاطية المبعثـرة، والمتورمـة وحاملـة طفـل الرضاعـة والقادمة من مسافة ستة أيام مرهقة، لتصرخ:

يسـرق فئـران غيـره.. يضربنـي بـلا انقطـاع.. يدلـق الطبيـخ علـى الأرض.. أنصفوني.. مولاي السلطان..

وحنفي الساحوري.. تاجر القوافل الذي كان.. يأتي ليودع السلطان باللهجة التي لا يعرفها الصبي ولا يفهم حروفها.

وهاهي قهقهة السـخرية مرة المذاق.. تأتي من حلق السلطان ومن حلوق السلسـلة.. وتصب في وجه عجوز (البراقيد) الذي كان يسأل عن غرة للصـلاة.. غرة واحدة يا مـولاي.. غرة واحـدة.. كل من هب ودب يحملها.. واحدة فقط يا مولاي.

راعـي الأغنـام نظر حبايـب.. وإصـرار الحاجـب على تغييـر مهنة صناعـة الطبـول.. العضلات المتشـنجة فـي الوجه.. والصـوت الذي ما سمعه أبداً من قبل حتى في أشد حالات الغضب المنزلي ركاكة..

أريد أن أحج.. وأن أطوف وأسعى وأقبل الحجر.. أرروك..
أرروك.. حجّاً مبروراً.. ارروك.. ذنباً مغفوراً.. أرروك.. عودا حميدا..
أرروك..

والفتاق السري في لحظة بهائه وفورانه العنيد.. لا يرحم..
ودوباجي الحكيم.. لا يرحم.. وطلبك مرفوض يا راعي الأغنام.. تواطؤ التذكر في لحظة التشييع.. في لحظة الدفن.. في أيام العزاء.. والتنجر القادمون من أصقاع فقرهم واختبائهم.. يلحسون.. ينمون.. يضفرون أحلام اليقظة.. يسيرون في شوارع (جوا جوا).. ويقضون على عصائد الفقر في البيت..

هل مات أبوك بالمرض الإنجليزي؟

مات من حسرته.

ماذا كان لون حسرته.. أخضر أم أحمر أم في لون خريف أم دبابيك؟ خريف الحشرات التي تأكل الأرض والأجساد.. حقيقة ماذا كان لون حسرة أبيه حين مات؟ مؤكد كان أسود.. لأن لون الموت أسود.. ولون الحداد أسود.. ولون الحياة التي تمضي بلا أب يتحمل المرارة، حالك السواد.. وماذا كان لون الحسرة عند أمه.. عند أخته الرزينة؟..

أسود.. أسود.. أسود..

حراب التذكر.. المسننة والتي تزداد حدة.. والجمعة الظليلة منصوبة ومشتعلة ومزدحمة بالأنسابيين من أدنى وأقصى وفوق وتحت ورأس وظهر.. من مسافة ساعة ويومين وعشرين يوماً والولد الحالم يصيح..

أريد أن أصبح أباً شيخاً.. أريد أن أصبح أباً شيخاً.. مولاي..
أرروك..

كان قد دخل إلى لحم حي دون أن يدري بأنه اللحم الحي..

ودخل إلى السراديب المظلمة دون أن يدري أنها السراديب المظلمة.. ومن (الفوق) الذي لن يضحك أو يقهقه لهذيان ولد.. ولن يستمع إلى استشاريين يقتنيهم بلا استشارة، أصدر الرشيد حكمه.. بذاءة الألسنة.. نعم بذاءة الألسنة.. لو كان هو السلطان رغد.. وكان السلطان هو (آدم نظر).. لكان الحكم أكثر شفافية.. ربما ضحكة، وربما عشرين سوطا من الخيزران على ظهره، وربما قرصة في الأذن لا يعود بعدها إلى الصياح أبداً.. بذاءة الألسنة.. التهمة التي لن تعود به إلى حي الرديم.. ولن تعود به إلى الحياة مرة أخرى.. التهمة التي تنتهي به الآن عند باب خشب (المهوقني) العريض.. الرزينة دخلت من هنا مرات ومرات.. سلطانة الفقيرات دخلت وخرجت ولن تدخل مرة أخرى أبداً.. يلكزه الحارسان الرعاعيان.. ادخل.. ادخل.. وتميته الرعشة.. سيدخل..

وصل في لحظة انقسام الشمس الخجولة بين السحب إلى ظل رجراج، وبقايا أشعة.. إلى نهار يتأزم وليل يرتسم.. إلى وضوح يتلاشى وغوامض تمتد.. ليست اللحظة التي تصلح لمحاورة العذاب بداخله وليست اللحظة التي تصلح لدفنه أيضاً.. وجريرة التذكر تحتال أكثر مرة أما منتفخة بالدموع.. مرة أختا نبت على وجهها النمش.. مرة دابة تحمل الغليان في غارات المداهمة.. ومرة ولدا للحور.. اخترع عطراً للنضارة.. وعطراً لسطوة زالت قبل أن تكون.. يلكزه الحارسان.. ادخل.. ادخل.. لم يكونا ضده، ولا كانا في صفه.. ولا كانا أصلاً غير حارسين يؤديان واجباً عادياً.. ولو أُرسل بلا حراسة هل سيهرب؟ في حالة الخزي تلك.. ليس ثمة هروب إلى حي.. إلى عشيرة.. إلى ناس.. ولكن هروبا إلى بئر.. إلى خور ضحل.. إلى صحراء.. إلى مأتم.

هل توجد في داخل القصر فوضى.. ليتفوضج بها؟

هل يوجد نظام لينظمه؟ وهل توجد ليال صالحة لاجترار العذابات ليجتر عذاباته.. يكره الصياحات جداً.. يكره الأمير مساعد..

ويكره ذلك الحوض الواسع الذي يمسك الآن بأسفل جسده.لم يكن يحمل في ذهنه معنى محدداً للترف.. ليتخيل الحياة بالداخل. ولم يكن قد رأى (مسك النساء) أبداً. ليتخيل عطفها أو قسوتها.. قياسات خصرها أو قياسات رجليها.. إشراقها أو انطفاءها.. نومها الضحى أو صحيانها المبكر.. لو سألوه عن (أم الرديم) النسيم التي ماتت في الحرب، وهو في المستنقع، لقال طيبة.. وصالحة.. وتستيقظ باكرا.. وتصنع عصائد الدخن للفقراء.. لو سألوه عن الزينة.. لقال.. عنيدة ومتهورة وتحب وجهها.. وحرير القوافل.. ولن تتزوج من ولد الحُور أبداً.. ولو سألوه عن أمه.. لقال.. هي أم في كل لحظة حتى وهي نائمة، ولو سأله الحارسان الآن عن سلطانة القصر كيف تبدو؟ لارتعد.. تلك الرعدة (البين بين).. رعدة الخوف ربما.. رعدة اللاخوف.. ربما..

ألقى بالبصر كله في صالات العرض المرتبة.. تلك التي تلكز البصر ليرتاع، ليندهش، ليحس بانحساره.. كان كل شيء مختلفاً.. وكل شيء جهنمياً.. إذن هذا هو الداخل المخفي لقصر الصياحات.. يلحسونه من الخارج ولكن طعمه ليس هناك.. إنه هنا.. طعم البرتقال.. طعم المانجو طعم الحميض حين ينضج.. طعم تمر المدينة القادم في قوافل الحجاز. تمر الجواري محملات وسرابيات وعاليات الأجساد.. وفيهن لمعة.. يمر الخصيان واسعي الأحواض ومضفري الشعر وحتى أثوابهم التي في مستوى السرة لا تشبه الأثواب.. يمر الأطفال طاعمين.. ومدللين.. وفي حلوقهم حلوى وتمر الصالات واحدة بعد أخرى لتنتهي عند صالات أخرى تمر أيضاً.. وتختفي.. النرجس كله.. العطر كله.. الصور التي تزين والتي تحاول أن تزين.. الأسرة من خشب الورد.. المقاعد من خشب الزان والمهوقني.. القدور اللامعة وفواكه غريبة الشكل.. ليست هي النبق ولا الحميض، ولا البطيخ.. ولا الشمام، ولا أيّة تحلية أخرى من تحليات الفقراء.. كان (قلب الأسد) موجوداً.. رفيقه

المسلاطي الذي حورته زوجته دون أن تدري أنها تحور حياة.. تحور مستقبلا.. أسرع إلى استقباله واحتضانه، وضمه بقوة.. ليس هذا (قلوب) الذي كان في المستنقع.. إنه الآن أكثر لمعة، وأغزر لحما، في مقدمته بطن يتأرجح وفي مؤخرته مصائب تتأرجح.. آخرون جاءوا لاستقباله.. نفس الفرحة التي تغمر المصابين بالسل عند اكتشاف (مسلول) جديد.. نفس الحماس الذين يغمر الأرواح حين تهيم روح جديدة.. نفس الشبق الذي تقتاده الرغبة حين تلتحم بالرغبة.ما وظائفكم هنا يا رفاق؟ خدم وطهاة وحراس للتمرد.. منسقون للحدائق.. جليسون للأطفال.. مضفرون للشعر.. عاجنو حناء لزينة الملكات.. أبناء كلب.. ملاعين.. مصفوعون على الخدود.. عالمون بالأسرار.. مشاهدون للعورات.. كل شيء.. نحن كل شيء.. ونحن جاريات فاخرات إذا اقتضى الأمر..

ما لون عالمكم؟

الذي تختاره هو لون عالمك.. تختاره أسود.. هو كذلك.. تختاره أحمر.. هو كذلك.. تختاره ورديا.. هو كذلك..

توقفوا عن الهذيان بغتة والتموا في وقفة الذل أو وقفة المسكنة أو الوقفة التي يعرفون مغزاها.. صف من الجاريات أقبل.. زهور متفتحة ووردات زنبق بنفسجية.. عليهن الثياب التي ليست من سوق الفخاريات.. فيهن رائحة العطر الذي لن يخترعه (جبروتي) وكانت خلاخيل الفضة تنغم مشيهن.. السلطانة.. السلطانة.. لم تكن أصوات همس ولكنها أصوات إحساس.. إحساسه بأنه يستقبل من رب عمل أراد توظيفه.. السلطانة السلطانة يا الله.. ما هذا الجمال الغزير الجمال الذي مثل الخريف الأخضر الخالي من حشرات (أم دبابيك).. الجمال البدوي والحضري والإفرنجي والخارج من سير الممالك البعيدة التي سمع عنها ولم يسمع.. ترنمت في المشي حتى كان أمامها ويواجه عينيها.. لم تقل شيئاً.. ولم تنتظر حتى تخف الرعشة قليلاً في

الأطراف.. لكنها كورت شفتيها.. بصقت على وجهه.. وبصقت بعنف.. لا نعرف مزاج التافهة عند استقبالك.. قال رجل المهام الجليلة.. وأظنه كان يعرف.. المرأة التي تبصق.. وقد كان آدم يعرف.. سارت بترانيم الخطوات مبتعدة، ووسط جيش الجاريات الذي كان يرفع ذيل ثوبها الحريري بفن وأياد مدربة..

لمّه (قلوب) من فوضى استقباله بسرعة، مضى به إلى الجناح الأخف وطأة، والذي لا تطرقه قدما السلطانة إلانادراً وحيث اعتاد خصيان القصر وعماله أن يتسامروا، ويحلموا ويستعيدوا سنوات الخصب البعيدة أيام أن كانوا جديرين بالخصب.كان (قلوب) مسكيناً جداً، وكونه أب لطفل تركه زهرة، والآن لابد قد امتلأ بالندوب، كان يشعره بالمرارة، لم يسع إلى ذلك الدرب لكن الدرب سعى إليه، ولم ينغرس لكن زوجته الصائحة غرسته، وقال لدمدوم.. إنها شوهدت في (جوا جوا) منذ عدة أيام.. كانت تتمايل وتضحك، وتمسك بيد الميوعة ذراعاً ممتلئاً لواحد من تجار المساليط. قال إنه لم يندهش، لأن لا شيء يدهش ولم يغضب، لأن فوران الغضب انتهى يوم حوروه.. ولن يقتلها لأن أولى به أن يقتل نفسه.. أنت أخف وزراً.. لأنك لم تترك صبيّاً يبحث عن صوتك ولا يعثر عليه.. كان يقول وقد تشنجت حبال صوته الهرمونية.. أجلسه على كرسي من خشب (الزان) لا يرتفع عن الأرض إلا قليلاً.. الكرسي الوحيد في القاعة، والذي جلست عليه آلاف الخطايا من قبل.. صب له فنجانًا من بن أحمر.. أعاده إلى تذكر طعم القهوة ببطء.. أنت الآن داخل أعصاب سيدة القصر ولست خارجها.أنت في داخل المزاج.. وتعوم فيه.. ننفلت كلنا حين تنفلت الأعصاب.. نهدأ.. حين تهدأ.. نتعكر حين يتعكر المزاج، نصفو حين يصفو.. هل تجيد صناعة الرغي في الفاضي والممتلئ؟

- لا

إذن تعلمهـا.. .وتدليك العضلات؟ خاصة تلـك التي تتعب من صفع الوجوه، ومن التنزه في الحدائق؟

- لا

- إذن تعلمـه.. هل تطبـخ (القاورمـة)، و(الكول) ولحـم الصيد بروائح الورد؟.. هل تعلم كيف يرضع السلاطين، ومتى تشرق الشمس، ومن أي ركن تهب الرياح المبعثرة للشعر؟ هل تعرف معنى أن تفر جارية وأنت تحرسها؟ ومعنى ألا تفر وأنت أيضاً تحرسها؟ هل؟

لا لا

- إذن تعلم.. تعلم.. تعلم..

انقلب عليـه بغتة بوجه لم يشـاهده عليه من قبل.. دلق على سـاقه البـن، وشـده من يـده ليلقيه وسـط خصيان آخريـن، كانـوا غارقين حتى الآذان فـي مآزق عـدة.. وانصرف.. كان(دمـدوم) الجديد مندهشـا، فلو كان نزقـاً من ذلك (الفوق) لتقبله دون دهشـة، ولكن من قلب الأسـد.. عشـنا معاً.. قرأنا طالع المهـام الجليلة معاً، ونلنـا الصفعات على وجهنا معاً.. والآن جنباً إلى جنب داخل (الأسوأ).. ماذا به قلب الأسد؟

السـلطانة تروح وتجيء.. تبصق وتتأرجح، وتتوقـف عند كل أفرع مرايـا الزينة المنتشـرة في القصر.. تتـذوق الطعام بطرف حاسـتها، تدلقه على الأرض حينـاً، وعلى الوجوه حيناً، وفي أحيان كثيرة تمسـك برأس طباخه لتغمره في الطبق..

السـلطانة لا تحـب التجاعيـد على الوجـه.. وجيـش مـن الضـد والجـواري يدلكـون الوجه ليفردوه، تحـب أن تتعطر بكثـرة، ويعطرونها بكثـرة.. المسـك. عطـر العـود.. عطـر حبـوب اللقـاح.. وعطـر عراقة الـورد الذي يرسـل عبـر القوافل مـن بـلاد فارس.تحب بخـور الصندل لدرجة الجنون، ويبخرونها.. وتحـب أن تلدغ أحياناً برجلها، فيطير وجه مخضـب بالدم.وفي أيـام محددة حيـن يباغتها مغص النسـاء العادي، لا

تتحمل، تتراكض في صالات القصر وبين أثاثه.. لتعثر على ضد مسكين تستفرغ على وجهه..

السلطانة تكره الجاريات الجميلات جداً.. أولئك اللائي تربين في القصر أو وردن من حرب أو قافلة تجارية.. وثمة ماء للنار مخصص لكي الوجوه، وتشويهها، وطردها إلى شارع التشرد بعد ذلك.هي تكره الشعر الغزير والمفرود إلا شعرها، وتكره أن يغرد طائر الكناري على نافذة إلا نافذتها.. تريد زوجها سلطاناً، وتريده عبداً.. وتساهم في إمالة شقه باستمرار بمنعه عن نسائه الأخريات.. تلقي بأي جارية ألقى عليها نظرة إلى الطريق.. وبالطبع كانت تعلم بالحياة السرية ل(رغد الرشيد)، ولم يكن ذلك يهم في أغلب الأحيان.. ما دامت سرية وبعيدة عن قصرها.

مر آدم نظر - دمدوم بتلك الشقوق كلها، الواسعة والضيقة، والضيقة جداً..

الطباخ المحروق في وجهه.. الممزقة ثيابه.. المغمور في نار الحساءات.. المبصوق على وجهه.. المقصوص الشعر، حامل البخور.. مدلك العضلات.. ومنسق زهور البنفسج الذي لا يعرف التنسيق.. الأسوأ من السيئ.. الأثقل من الثقيل.. الأقسى من القاسي.. في مستنقع الرعاع كان دابة، لكن لقمته لم تمس.. وحور إلى خصي بجدارة لكن أحداً لم يبصق على وجهه.. أو يركله في حوضه المتسع.. صحيح كانت ثمة دمامل، وكانت ثمة صفعات أثناء قراءة الحظ الجليل.. لكن ليس مثل تلك الشقوق التي مهما اتسعت فهي ضيقة.. كان ينام مستيقظاً لأن عمال القصر كلهم ينامون مستيقظين.. وإذا غفا لثوان فقط، يهب فزعا لأنهم جميعا يهبون فزعين، وكانت دائماً توجد طلبات ليلية.. من مسك النساء أو من عيالها الذين كانوا أفاع.. وكانوا عقارب شديدة اللدغ.وشيئاً فشيئاً وبعد مرور أشهر طويلة، ابتدأت السلطانة تتذوقه.. خف الأسوأ

إلى سيئ، والأثقل إلى ثقيل.. والأقسى إلى قاس.. كلفوه بري الحدائق الملحقة بقصر المسك.. ثم بصناعة قهوة السلطان رغد الليلية وتجهيز ماء الورد الدافئ الذي يحبه، وفي النهاية تم ترفيعه إلى رتبة خادم مناوب في الجناح السلطاني. لم تكن وظيفة سهلة ولكنها هامة للغاية.. وظيفة مطالعة الحقائق عارية أو مستورة بورقة التوت.. ووظيفة ملء العين بعيداً عن أي رمد مشوش. كانت تساعده جارية اسمها (سلافة) وكانت رقيقة للغاية اشتراها الرشيد من قافلة كانت تتاجر بالجواري ومرت على (أنسابة)، وقيل له.. لو وضعتها على جرح سيبرأ.ولو أمرتها بالمستحيل لصار ممكناً. في البداية أدخلها في الحياة السرية بعيداً عن لوائح القصر، تعذب بها وتعذبت به، وطلبت إلحاقها بقصر المسك حتى تكون تحت خدمته في أيّة لحظة. لم تكن فكرة جيدة ومسك النساء تسمع وتتقصى، وتعرف، لكنه نفذها في النهاية.. عسى ولعل. التزمت (سلافة) بالخدمة الراقية، ولم تحس السلطانة بنبضات قلبها أبداً.. ولا بذلك الذوبان الخاطف الذي يحدث لها حين رؤية السلطان. كانت متوفرة في المكان، وتقوم باللازم، وتنادي مسك النساء بسلطانة المسك.أحس دمدوم نحوها بانجذاب، وانفجرت في أحضانه كثيراً.. وعلمته الرقي من ألفه إلى يائه.. أخدم مسك النساء فيرتاح مولانا.. أطعها.. فينام مولانا.. كانت تحدثه عن التوابل، عظيمة هذه التوابل يا دمدوم، ولا يصلح المرق إلا بها.. تحدثه عن النرجس.. كنت نرجسة غالية تشد الحواس والآن احترقت.. عن القوافل والسفر.. كيف اشتروها، وكيف باعوها، وكيف وصلت إلى (رغد الرشيد) وفي ساقها جرح، في عينيها رمد، وفي مخابئ عفتها مائة خدش أرادت أن تنال.. تحدثه عن صناعة الرغي.. تحدث.. تذكر، قل أي شيء.. لابد توجد لقمة طاعمة أكلتها، لابد هناك عيدٌ ابتهجت به.. لابد من ناس أحبوك وأحببتهم..

- والجناح السلطاني؟

- ليس سيئا.. السلطان لا يسأل، والسلطانة.. لا بأس.. لا بأس.

كانت (لا بأس) التي نطقتها فيها تردد وخوف وانخطاف لون، ولاحظ دمدوم أن الجارية أشرقت حين نطقت (لا يسأل) وانطفأت حين رددت (لا بأس.. لا بأس).الخصي الجديد والملحق بجناح فقه الأسرار.. لا يريد أن يتفقه، لكن الفقه يسعى إليه.

تلك العشية كان السلطان موجوداً، وكان متخففاً من أعباء السلطنة كلها.. لا جبة خضراء أو حمراء أو ذات حواف مذهبة.. لا عمامة من عمائم الضباب على الرأس.. لا عضلة متورمة، ولا حتى تلك العيون الحادة البصر التي تحكم وتحاكم. كان رغداً آخر غير الذي شاهده في المواكب.. وفي ذكرى أعياد الجلوس، رشيداً آخر غير الذي خرج إلى الحرب وانتصر في الحرب وعاد مبجَّلاً.وبصوت رقيق كأنه ينبع من زهرة..

- أرى شيطاناً جديداً عندك يا مسك.

- ألا تعرفه؟

من أين يعرفه وخصيان السلطنة في ازدياد.. ومكسورو الأجنحة في ازدياد والفقراء في ازدياد.. والمشكلة متفاقمة.. وللأمير مساعد وجهة نظره.. من أين يعرفه؟ في الماضي كان الخصيّ عملة نادرة، والآن حصى أو تراباً.أحياناً يتراجع إلى الدين مذعورا.. يفكر في أخطاء حكمه كلها.. لو عثرت دابة في قرية (هبوب)، لو جاع طفل في جبل (الكراديس).. تحوير الرجال من أخطاء الحكم. وتدوير خصورهم أخطاء لا تغتفر.. لكن شهوة العيش سلطاناً كانت تجيء.. تنقض على صوفية التفكير وتدحرها.. لأن تحكم لابد من ذلك. لأن يهابك الناس لابد من ذلك.

تأمل الخصي من مكانه ولم يعثر على سحنة مميزة تنسبه إلى هذه القبيلة أو تلك.. هذا الحي أو ذلك..

لا تقولي هو من أهلي البراقيد.. أهل أمي؟

لا

صحيح أن اهتمامه بأهله البراقيد كان صفرا، وتلبيته لحاجاتهم ومطالبهم التي يصرخون بها في مجلس (الكوراك)، كانت هي نفس التلبية التي تخضع لتوتر المزاج أو صفائه، إمكانية الرد أو عدمها.. لكن الرعاع لم يدخلوا منطقة البراقيد أبداً، ولا حوّروا فيها (براقيديا) إلى خصي أو حتى دابة فقيرة.كانوا يسيرون بالعرف.. ليس العرف المفتل العضلات الذي يخيف ولكن ذلك الذي يجب اتباعه.. أخوال السلطان.. أبناء خاله.. أبناء خالته.. هكذا.

إذن..

إنه الصبي الذي أراد أن يصبح أباً شيخاً.. ذلك الذي صاح في جمعتك الظليلة وعطلها.

ابن صانع الطبول؟ الحاج نظر؟

نهض السلطان من اتكاءته الواسعة على وسادة ريش النعام اللينة، نهض من تأمله لمسك النساء في عطرها وملاحتها وثياب بهجتها البنفسجية، ومن شراب زهر الورد الذي كان سخيّاً على كوب أحمر. ومن عضلة واجمة في الوجه، خيل ل(آدم نظر) أنه سيفترسه، ويفترس مسك النساء أيضاً لإدخالها عدوا بذئ اللسان إلى مخدعه.لكن ذلك لم يحدث أبداً، والذي حدث كان قهقهة عالية ومرعبة ارتج لها المكان.. نفس القهقهة التي تخيلوها في السابق حين صاح الصبي.. أريد أن أصبح أباً شيخاً.. أرروك.. التي من المفترض أنها سرت عبر السلسلة من رأسها إلى ذيلها.. إلى أذني المتصايح وانتهى الأمر.القهقهة المتأخرة جداً، والتي ناداها الحلق الآن بعد أربعة أعوام من استثارته.. الأب الشيخ.. الأب الشيخ.. ذاك؟ القهقهة في الأسرة.. في أصص الورد، في الثياب المعلقة والمرتبة في الخزائن.. وفي قلب (آدم نظر).. ليست

قهقهة.. ولكنها وخز سكين.

تعال إلى قربي.. تعال أيها الأب.

اقترب بالدرجة التي لامست أنفاس السلطان فيها وجهه.. كان مستغرباً، وأحس فجأة بالسلطان والده الرحيم الذي من المفترض أن ينبغي، ذلك حين امتدت يده المرصعة بالخواتم لتلامس جبهته.. ثم صدغه، وتستقر على شعره المضفر بالأشرطة.. الآن (رغد الرشيد) يبكي.. نعم يبكي، وبعينين مستغربتين، شاهد دمدوم دموعا كالخرز تتساقط من ورم عينيه.. وباحتراق الصوت حين يحترق، ردد:

ذنوبنا على الأرض يا مسك.. ذنوبنا أستغفر الله العظيم.

كانت السلطانة غارقة في ذلك الموقف الآدمي، لكنها لم تسع إلى إفشاله أو تصعيده إلى الذروة، اكتفت بنظرات مبهمة، وصوت مجروش يخرج ولا يقول شيئاً.

جرة الأسرار الممتلئة حتى الحلق، ودمدوم يغرف، والجارية (سلافة) تغرف.. والمغرفة تمشي في القصر والقصور الأخرى.. وعشية أخرى لا تقل انكساراً عن تلك العشية الأولى، كان السلطان متعباً، وقد عاد من رحلة بعيدة تفقد فيها الزراعة وثروة الحيوان، واطمأن إلى غنى الموسم بالغلال وإلى امتلاء الضروع باللبن. هي واحدة من جولات تجديد الدم التي يقوم بها من حين لآخر.. والسلطانة تريد السفر.. السفر إلى صعيد مصر لأنها سمعت عن صائغ عبقري يحول أعناق ربات البيوت إلى أعناق سلطانات وأعناق السلطانات إلى أعناق حوريات لا يوجد مثلهن في الأرض، وقد فشلت في استجلابه إلى (جوا جوا) عبر القوافل لأنه لا يستطيع السفر.. كانت تريد قافلة لها وحدها.. تحملها وبرفقة الخدم والوصيفات والخصيان، وجنود الحراسة السلطانيين إلى حيث ذلك الصائغ.كان السلطان مترددا.. ثم رافضا بشدة للأمر.وبالرغم من أن السلطانة خضعت في النهاية، لكن العشية كانت سوداء قاتمة:

هيا اقتلني بخنجرك.. يا رغد.. ماذا تنتظر؟ هيا ارسلني إلى مستنقعات ولدك الضال والتافه، لأتحول إلى فتاة ليل.. ماذا تنتظر؟ ألا يحولون الرجال إلى نساء؟ ما المانع من تحويل النساء إلى فتيات ليل.

كانت تزمجر بكيانها كله، بالرأس والعينين والشفتين، والمفاصل، وقدمي اللعنة اللتين دلقتا شراب الورد وقناني أخرى مرصوصة على الطاولة.. دلقتاها على الأرض.لكن السلطان لم يتحرك كثيراً، هي نصف قومة قامها، ونصف تكشيرة كشرها، ورقدة كاملة شرع فيها، وبدا كأنه سينام، لكن العشية سوداء.. سوداء قاتمة:

سأجلب (حليمة) دقاقة الزار حتى بيتك.سأغني وأرقص وأريهم عوراتي كلها حتى يملوا.. عورات السلطانة في متناول اليد.. يا رغد.. يا ظالم.

نعم ظالم.. وظالم جداً.. الذي كانت في حلقه القهقهة كاملة، ولم يطلقها، الذي استل بندا متكاسلا من لائحة (الكوراك) اسمه بند بذاءة الألسنة.. ونشّطه في حق طفل.. الذي صاحت في مجلسه الرزينة.. مهرجان (جوا جوا)، وردها إلى بيتها مكسورة، الذي تزوج من أرملة فيها رائحة أزمة ورائحة حامض متخثر.. والذي رقد الآن لينام.. لكن لا نوم ممكن..

- هل تذكر الجارية (عوفة) التي كنت تعاشرها في الريف يا رغد.. أنا شوهت وجهها.. وأشوه أي وجه يعجبك.. وأي جسد أشم فيه رائحة أنفاسك.

جرة الأسرار تندفق، ودمدوم يلعق.. الجارية سلافة تتحسس وجهها وترتعد.. (أنسابة) كلها تعرف (عوفة) جارية الحرير والرقة، والوجه الصبوح.. وجارية الأسمال والخشونة والوجه المحروق بعد ذلك.. يعرفون حياتها السرية.. وحياتها العلنية.. ويكادون أن يقسموا وبرغم

إنكار الجارية الكثيف، أن السلطانة هي التي شوهت تلك الرقة وذلك الوجه.. كان رغد يحبها.. ليس حب القلب ولكن حبا غريباً لا يستطيع تفسيره.. اشتراها من ملك ريفي برضائه عن الملك.. حين مر بمنطقته فوجد ترفا وجارية مليحة.. أسكنها في الريف في واحد من بيوت الحياة السرية، وكان يغشاها كلما أحس بأنه يريد خبزا حارا أو شرابا مسكنا.. لكن (مسك النساء) تعرف.. وتستطيع أن تعرف.وحين اشترى (سلافة) كان يخشى، ورضي بإلحاقها بخدمة القصر لا لأنه ملها، ولكن لأنه خاف على وجهها.. في الحياة العلنية لا توجد قبل.. لا توجد صدور تتأجج، ولا عناقات تحتلب اللعاب.. هُنا أفضل.. هنا أفضل.

-13-

في أحد الأيام الباردة من شتاء (أمشير)، شتاء العواصف واهتزاز الإحساس، عرفت الرزينة نظر بأمر أخيها المحور إلى ضد يقوم بالخدمة في قصر(المسك).عرفت من جارية تنظيف الجلد التي كانت تأتيها أيام ودّها السخي مع (السحابة) جدة السلطان، ورئيسة مجلس الجدات، وذلك لتحك جلدها وتلمعه وتظهره نظيفا في المهرجانات. كانت الآن عاقلة جداً، بلا هذيان في السلوك، ولا أحلام يقظة عالية المستوى تسكنها في قصور المرمر وبين وسائد الحرير وبرفقة سلطان كسّرها بعنف.. ولا تشرد غريب الأطوار ينزح بها إلى بيت نجّام الخصي لتستعير أمومته.كانت تطبخ العصائد والحساءات كبنات البيوت، تكنس كبنات البيوت، وتلبي حاجات أمها المريضة كأي بنت (أنسابية) موجودة في أي بيت.حتى وجهها المتألق الذي كانت تعشقه فيما مضى، لم تعد تحبه كثيراً، ونجّام لم يعد أمها المستعارة أو أختها الكبرى إلا في حالات نادرة حين تفاجئ أمها الغيبوبة، وتبدو هي مبعثرة، وفي حاجة إلى أم أو أخت كبيرة لتلم التبعثر.وشيئاً فشيئاً عادت مهرجان (جوا جوا) القديمة إلى فقرة في مهرجان مستقبلي، ثم إلى عطر حيوي، عادت ابتسامتها، لتلطف كآبات الفقراء.. ابتدأت تخيط الثياب، وتتاجر في اللحم المقدد، وساعدها (نجّام) في إلغاء صناعة الطبول من تاريخ العائلة، وتحويل مقرها إلى منسج لصناعة أسرة الحبال، وبإشراف (بيقيين) من أقربائه جاء بهم من بعيد.الآن مكتملة جداً، ومطيعة جداً وتصلح للزواج جداً، وربما لو جاء جبروتي ولد الحُور مرة أخرى، وتقدم إلى خطبتها، لقالت نعم دون غطرسة، ودون مهلة قاسية للتفكير تستغرق زهرة العمر.لم يعد

أخوها القديم هاجساً مُرَّاً، وما عادت مسألة تحويره إلى ضد تطير نعاسها وتقلبها في حلكة الليل يائسة مؤرقة.

لو جاء أعرج ستستقبله..

لو جاء أبكم وأصما.. ستستقبله، ولو جاء بلا ذكورة وملوَّثاً بالهرمونات.. ستستقبله بشفافية الأخت التي تؤمن بالقدر والنصيب ولن يصيبنا إلا ما انكتب.في كل مرة يلح خاطر جديد، ويندحر خاطر قديم، والظفر لا يخرج من اللحم أبداً، ومثلما كان يوماً أخاها، فهو دائماً أخوها.. صاحب الصوت الضخم والعضلات هو صاحب الصوت الرقيق والميلان.. الرسالة التي كتبتها من قبل، ومزقتها.. وقالت فيها: لا تعد بلا ذكورة.. لا تعد أرجوك.. الآن ليست رسالتها هي الرزينة العاقلة الراسخة في جينات العائلة، والحريصة على بر الأم، والذائبة شوقا للقاء فرد غائب.كانت تلك رسالة تافهة وبلا ضمير ومن رزينة أخرى لم تكن تفهم في الدنيا سوى شيء واحد.. كيف ترسم سلطانة منعمة في خيال اليقظة، وترتديها في شوارع الفقر رزينة هائمة ومريضة بالفصام وفيها مستعمرات مكر هائلة.

جاءتها الجارية من باب الثرثرة، ونشر غسيل القصور الذي كانت الجواري يعشقن فتحه بشدة.. دلقت على سمعها أملاح حرق الدم..

أخوك في قصر المسك.. عند السلطانة مسك النساء.. هو نفسه.

أخي (آدم نظر)؟

قالتها بمشقة وصوت مبحوح، وكأنها تعني.. أخي القديم؟

لكن جملة (عند السلطانة) كانت كافية جداً لمسح القديم عن تذكرها، وحقن الجديد المتخيَّل في ذلك التذكر.الذي عند مسك النساء لا يمكن أن يكون إلا جديداً، ومحوَّراً.. ضدَّاً وضده.. مادام عند أنثى فهو أنثى أو يقترب. لم تقل شكراً ولم تقل متى، ولم تقل كيف، وصرفت جارية تنظيف الجلد بعد أن منحتها ثوباً حريريّاً، وبضع دنانير صدئة،

وانهمكت في دعاء صامت، لكن صمته يتحدث، وبصوت جهوري:

لا نسألك رد القضاء ولكن اللطف فيه.

ما حدث لأخيها.. كان هو القضاء.. واللطف فيه.. أن تستطيع تذوقه وهو في ثياب القضاء التي ألبسها له.

ودون موعد أو التفكير في موعد، أسرعت إلى الجدة السحابة في قصر (روح الأصيل) الذي انتقلت إليه مؤخرا بعد أن تصدعت بعض الجدران في قصرها القديم، وحول السلطان تسميته من قصر إلى مستودع قد يستغل فيما بعد في أعمال الرعاع الجليلة.كان (روح الأصيل) قريباً جداً من قصر المسك.. قريباً من النبض والشهوة والتحكم، ولكن بعيداً جداً عن معمار قصر المسك.. الغرف العادية. المرتبة عاديّاً.. الجدران البنية الطلاء وفيها رائحة إرث.. الأثاث الكلاسيكي المصنع في جوا جوا، بعيداً عن خشب الورد، والخدم القليلون مقارنة بجيوش قصر المسك.في أيام عزها وحين كانت سلطانة في عهد زوجها، لم تكن السحابة أكثر من (أنسابية) وربة بيت فقط بلقب سلطانة، وفي أيام شيخوختها هذه، لم تكن تريد أكثر من حجرة وخادمة، ووعاء به (تمباك) كثير لتعديل المزاج.. لكن مجلس الجدات يحتاج أكثر يحتاج شيئاً من الترفه، شيئاً من الغطرسة.. شيئاً من اتساع المقر.

كان حبل الود بين الجدة والرزينة الآن مقطوعاً تماماً.. قطعته مأساة عائلة (نظر) الفخمة والمزمنة، والبعيدة الحل.. قطعه العناد الضال لفتاة لم تستطع أن تحتفظ بأي معنى جليل لجدة جليلة، وقطعه احتداد مزاج الجدة حين ذهبت محملة ومكملة لتطأ بقدميها الفقر وعادت دون أن يستسلم لها الفقر كما أرادت.في سنوات إدارتها لمجلس الجدات، وإشرافها الفعلي على نشاط طاهرات (أنسابة)، لم تكن الجدة ترد بسهولة، ولم يردها أحد من قبل أبداً.. وما كان رفض السلطان لتلبية بعض طلباتها المطبات يكدرها، لأن السلطان سلطان. والرعية رعية..

وهـي مهما كبرت أو تمكنت ليسـت سـوى موظفـة عند (رغد الرشـيد) سلطان (أنسابة).

وقفـت الرزينة هـذه المرة أمام الجـدة وقفة مختلفة.. ليسـت وقفة الجسـد المعتـز ببنيانـه، ولا وقفـة العنـاد الـذي كان ضالا، ولكـن وقفة المخطئة التي جاءت لترتيق حبل الود:

جدتي أتأسف بشدة.. أتأسف على كل شيء.. صدقيني..

لا يهم.. لا يهم يا بنية.

غمرتهـا (السـحابة) باندفـاع المطـر الـذي بـدأ رذاذاً وانهمـر بعـد ذلـك.. ضمتها إلى الصـدر العجوز والخشـن، وقبلتها بشـفتي (التمباك) المحتقنتين.وبكت معها بكاء جـدة وحفيدة في مصاب واحد.. لا يهم يا بنية.. لا يهم.

أريـد رؤيـة أخـي.. رؤيتـه فقـط.. وفـي أي وضع هـو فيـه.. أرجوك جدتي.

لـن تنكر الجـدة معرفتها بمكان الضـد الجديد (دمـدوم).. والخبر الذي تسـرب من قصر المسـك، خاض الأوحال كلهـا، وتعثر في الحفر كلهـا حتى وصل حـي الرديم، لابـد قد تسـرب بتفاصيله كلهـا.. بغليانه كلـه.. لم يكن أمراً مهمـا أن يرد إلى أحد قصور السـلطنة خصيان جدد، ومنذ تكونت السـلطنة، وتعددت المهام، وتكاثـرت الحريم في الدواخل المخفيـة، والخصيان يرسـلون.. ومنذ تأسسـت كتيبة الرعـاع، والضعفاء يحـورون، ويرسـلون.. ولكن دمـدوم الجديـد كان حدثا آخـر، الحدث الذي عطـل الجمعة الظليلـة لأول مرة منذ أن اعتبـرت جمعة، واعتبرت ظليلـة.. والأهم أنـه الأخ البكر لطاهرتها التي تقـف الآن مذلولة أمامها. مرت على قصر المسـك في أحـد الأيام، كانت في حاجـة إلى لبخة من لبخـات وجع المفاصل لتسـكت أنين ركبتيهـا الذي جردهـا نعمة النوم، شـاهدتهم يلتفون حول خصي جديد، كانوا يعلمونه الفطنة وانتقاء الوجه

الذي ستبصق عليه سلطانة القصر عند مرورها.. أو الفطنة الأخرى في التسكع بحساب، والعثور على ذرات الغبار مهما صغرت في الحوائط، وأثاث خشب الورد.. والفطنة الثالثة ألا يستغرق حتى لو نام بالفعل.. لا نستطيع التكهن.. دمدوم.. لا أحد يستطيع.

سألت الجدة بفضول ليس من طبعها ولكن قد يكون من طبع مركزها كرئيسة لمجلس حيوي:

من هذا؟

دمدوم الذي كان (آدم نظر).. الصبي الذي أراد الأبوّة الشيخة.. الذي حوكم ببذاءة اللسان.

لم تسأل أكثر لأنها لم ترد أن تعرف أكثر ولم تتذكر الرزينة حتى، لأن تذكرها لتلك الفتاة الهائمة والجريحة كان سيفسد نعاسها أكثر من أنين المفاصل. انصرفت إلى البحث عن لبخة الأنين التي جاءت من أجلها والخصي الجديد يحاول تعلم الفطنة، والفطنة الأخرى والثالثة، وقد تخضب بالعرق.

سأعود إلى نشاط الطاهرات كله من جديد.. سأطفئ الحرائق المشتعلة، وأعلم الأميرات آداب السلوك، سأرتدي ذهب اليهود كلهم من (عامير) حتى (آريل).. وأحك جلدي حتى ينزف الدم.. أرجوك جدتي..

احتدت الرزينة، وتخلخلت.خرج منها الصوت البعيد جداً.. صوت المفزوعين في الحرب.. الذين تطاردهم ذئاب جائعة، والذين هم محبوسون في بئر.. وبدا أكيدا أنها ستسقط على الأرض.

غير ضروري يا بنية.. حقا غير ضروري.

انهمر المطر أكثر.. ليخضر قلبها الرقيق بشدة.. وتمتد الخضرة إلى كيانها المفزوع كله.وعدتها السحابة بتلبية رغبتها دون شروط، وفي اليوم المتفق عليه أقامت الجدّة مائدتها السنوية التي كانت تجمع فيها

حطام جدات مجلسها تكريماً لهن بعد موسم قد يكون جافاً وقد يكون حافلاً بالمشاغل.أقامتها بفارق ثلاثة أشهر كاملة عن الموعد الرسمي. قالت.. بعضهن مريضات، بعضهن يمر بأزمات عاطفية، وبعضهن قد يموت فجأة دون تكريم.وقالت: ثمة ملاحظات عاجلة على عمل المجلس في الموسم الماضي ولابد من أيضاحها.كانت تلك المائدة السنوية امتيازاً تقدمه السلطنة للسحابة، وتستنفر فيه الخصيان والخدم من كل قصر، حتى يخرج رأسها مرفوعاً.. كانت ثمة تعقيدات بسيطة في استنفار خدم قصر المسك، لكنها في النهاية دائماً ما تزول.

لم تكن ثمة معضلة في إدخال الرزينة إلى قصر (روح الأصيل).. فقد كانت من طاهرات (أنسابة) العريقات.. شاركت في المواكب وحمل الفوانيس وترديد قصائد العز والرفعة ودخلت إلى القصور مرفوعة الرأس، أطفأت حرائق، علمت البنات رقي السلوك، أخذت حكمة من هنا وغزلا من هناك، وما عادت تشكها رعشتها القديمة حين تتكئ على أحد أعمدة الرخام. لكن المعضلة كانت في تلقي الصدمة. صدمة الأخت الهائمة حين تلتقي ضدّاً كان في يوم من الأيام يزجرها، يكلفها بالمشاق، يمرغها في التراب، يشد شعرها في لحظات الغضب، ويحبها حب الفتونة للضعف.. صدمة الضد نفسه حين يلتقي أختا كان يعتبرها عورة واجبة الستر، والآن ينازعها في دقة الخصر واتساع الحوض، وبؤر النتوءات التي كانت في موضعها تماماً في الجسد.السحابة العاقلة والمبصرة بتسعة وثمانين عاماً أبصرت فيها الحياة عماراً وخراباً، وأياماً منها الحلو والمُر، خففت من غليان الأمر.. خففت جداً:

تخفي يا بنية.. كوني جارية، كوني وصيفة للأميرات.. كوني خصيا.. كوني أي شيء حين تلتقين أخاك، لكن لا تبكي في قصري أبداً.. لا تبكي أرجوك.

- قد لا أستطيع جدتي..

- بل تستطيعين.

مائدة الجدات المبكرة عن موعدها بكل صخبها وحكمها، وأدوات تخريفها أيضاً.. الوجيهات المنتقيات من عطر القبائل وبيوتها المؤسسة، لا يحملن الجمال الآن، لكنهن يحملن مسحات منه.. ولا يحملن أسنان المضغ كلها ولكـن يحملن بعضا منها، وقد لا يسـعفهن ضعف الهضم، واضطراب التنفس، وخلل في الغدد، لكنهن لا يأبهن.

مـن هـذا المجلـس الكبيـر، انطلقت رايـات (نفـر المقـدم) خفاقة لتنبسـط علـى حكـم (أنسـابة).. انطلقت عـواءات موتـه، وتأبينـه ونعيه للأمة حتـى ووري التراب.من هنا مكر (رغد الرشـيد) علـى وعكة أبيه، واسـتخرج المباركة والتأييد.. أيضاً من هنا دائمـاً ما تبدأ بدايات الحرب ودائماً مـا تنتهي النهايات.وكانـت ثمة صلاحية قاتلت الجـدة من أجلها ولم تنلها.. تلك التي تختص بزواج السـلاطين والأمراء.. كانت (مسـك النسـاء) وبالا على (آل ضو) ولم ترد أن يتكرر نموذجها في سلطانة بعد ذلك.

رصت المائدة بواسـطة الخدم المسـتنفرين من كافـة القصور، كان (قلوب) مستنفرا، و(دمدوم) أيضاً مستنفرا، والجارية (سلافة) مستنفرة.. وكان دمـدوم مجتهدا، نظـف المكان، سـاهم في طبخ القـدور، وانحنى بـأدب متمايل على كل جدة يسـألها عن طلباتها.دخلـت الرزينة في تلك اللحظة، كانت جارية في الثياب المزركشـة، وعلـى وجهها ذلك الخمار الذهبي الذي يسمح بالرؤية لكنه يدس الملامح.. التقطت أخاها كاملاً.. التقطـت وجهـه الهرمونـي، وجسـده الهرمونـي، وعينيـه الهرمونيتيـن، وانحناءة الهرمونـات التي كان ينحني بها على الجدات.حيته في السـر.. تذكرته في السـر، وسـعت إلـى كتفين قوييـن متخيلين أو مسـتعادين من الماضي، غرقت فيهما في السـر أيضـاً.. لا تبكي في قصـري.. لا تبكي أرجوك.. كانت تحس ببـوادر التوهان.. ببوادر تصدع الذهن.. بالمغص،

وانصرفت لتدلق بكاء الأعوام كله على الطريق.

نجَّام الذي رافقها في هذه المصيبة، وفي لحظة من لحظات الأمومة التي باتت الآن نادرة، لم يبد متأثرا، لم يقل وجهه، ولم تقل عيناه، ولا صوته الهرموني.. ربما لأنه ابتكر فلسفته منذ عهد.. ويتفلسف بها الآن.. وربما لأنه لم يحظ أبداً بأخت هائمة تبكي تأسفا على تحويره.. حين أخذوه من منطقة قبائل (البيقو) كان في الواقع يتيماً.. ووحيداً.. وما كان في القبيلة قلب يتأسف على يتيم ووحيد.. دخل المستنقع دابة وتحور إلى ضد، وخرج إلى قصر (المسك)، وطرد من قصر المسك، وطبخ حساء الطيور الجارحة، وأعفي من الخدمة، وسكن في حي لا يعرفه.. وسار في الطرقات الجارحة والمؤلمة، في رحلة عمرها أربعة عشر عاماً، ولم يجد أبداً من يبكي على حياته.. وحين يصادف (بيقيين) من أهله.. يسألونه.. كيف حالك يا نجَّام؟، دون أن يسألوا لماذا أنت هكذا يا نجَّام؟.. أحاط الرزينة بروتين الإحاطة الذي مارسه طويلاً في حقها، أسندها بروتين الإسناد، وذهب بها إلى بيتها بروتين الطرق التي تؤدي إلى البيت.. كان يحس بها حزينة لكنها متماسكة، وباكية لكنها لم تنس شارعا أو زقاقا أو طعما أو رائحة عطر.. خلافا لما حدث لها حين صاحت في مجلس (الكوراك) وانكسرت.

- هل شاهدت أخاك آدم؟ كيف حاله؟ هل تعشى؟ هل غسل ثيابه؟ هل أحضر إكسير مرارة الكبد الذي طلبته منه؟

تسألها أمها من تحت ألحفة المرض.. لم تكن على يقين من أي شيء.. وبدت غير مصدقة حين أخبرتها الرزينة أنها شاهدته بالفعل.. لم تقل كيف شاهدته.. لكن الأم كانت تعرف.. والرديم يعرف.. و(أنسابة) كلها تعرف..

كيف كانت ردة فعله حين دخلت؟

يسألها الرديم كله.. الرديم الذي كان متعطشا لمأساة جديدة،

والـذي نسـج أهلـه سـيناريو اللقـاء والدمـوع، وردة الفعل كاملـة، قالوا سـيموت واقفـاً.. وقالوا سـتموت هي واقفـة.. لـم يفقد الرديـم تعاطفه حقيقـة، لكنـه كأي حي منسـي، فيـه توافه لابد مـن طبخهـا حتى يخف القليل من طعم الفقر.

في الحلق طعم مالح، في النهايـات العصبية خدر مكثف.. في لغة هـواء التنفس أحرف صعبـة الهجاء.. وفـي داخل رئة التـذوق جرح. لم يكن توهانا ما سـيحدث هذه المـرة، ولكنها الحقيقة المشـعة في الذهن المشـع، الدرب الذي انحرف ولابد أن يسـتقيم، الزرع الذي يبس ولابد أن يروى.. النسيان.. والنسيان إلى أبعد مداه.

لو هامت في الطرق كلها.. والأحياء كلها.. والمدن كلها.. سـتهيم بلا نتيجة.

لو بكت لدرجة أن حلبت الدم من شـعيراته.. سـتبكي، وسـتحلب الدم من شعيراته ولكن بلا نتيجة.

لو عادت إلى أمومة (نجّام) الكاملة، وأمومة مئات الخصيان غيره، ستعود ولكن بلا نتيجة.

لو وصلت إلى رجل المهام الجليلة في عقر جبروته، جرعته السـم وأبصرته جثة تتحلل.. قد تصل، تجرعه، وتبصره جثة.. ولكن بلا نتيجة. ولو بقيت في (جوا جـوا).. العاصمة حيث ولدت وحيث تربت وفقدت وهامـت.. سـتبقى ولكـن قريبة مـن عـورة العائلـة.. والتي هـي النتيجة الوحيدة.. إذن:

نجّام أيها الصديق.. هل ترافقني أنا وأمي إلى قرية أم حراب؟

قرية أم حراب؟

نعم حيث أهلي التنجر كلهم.. وحيث قررت أن أعيش.

وحياتك هنا.. وماضيك ومستقبلك؟

- حياتي هناك. صدقني.. حياتي هناك.

وجبروتي الذي يعيش هناك؟ ألا تخشين من التصاقه بك مرة أخرى بعد أن تخلصت منه؟

لا لا أخشى ذلك.. لأنني سأتزوجه لو تقدم إلي مرة أخرى.

كان وجهها ملائكياً نضراً.. حبالها الصوتية في غاية النقاء، أطرافها متماسكة بلا رعشة، وقد بدأت بالفعل في رص الحقائب، وتعبئة القفاف، واستعادة ولد الحُور إلى ذاكرة الحاضر مجددا.استعادته ولكن بلا عيوب.جلده غير المصبوغ كأنه كان أسمر وتساقطت صبغته.. حموضة لهاثه قد تحسنها المعاشرة، هيكله العظمي قد يمتلئ.. عطور نضارته ليست سيئة.. والأهم من ذلك إنه يحبني.. نعم يحبني.

تلك الليلة بالذات وتحت الشعور بشبع القلب، وراحة الضمير، التهمت الرزينة عشاءها كاملاً، استغفرت استغفاراتها كاملة، وحدثت أمها بقرار النزوح الذي كان أخيراً وبلا تراجع.

كانت الأم ساكنة ومريضة، وعندها تواطؤ للنسيان أيضاً لكنه لا يصمد كثيراً أمام غليان التذكر، استسلمت وبكت، ورددت.. على بركة الله.. على بركة الله يا بنية.ولكن ماذا نقول لأهلنا في أم حراب حين يسألون؟

لا تقولي شيئاً.. فهم يعرفون.

صباح متكدس بالحزن ذلك الذي أشرق على حي (الرديم) أفقر أحياء (جوا جوا) قاطبة، وأكثرها تلوينا بريشات فناني صياغة الرعاع.. نهضت الرزينة من النوم، فنهض الحي كله، تمطت في فراشها، فتمطى الحي كله، شربت شاياً (منعنعاً) فشرب الحي كله، ومضت إلى حزم الحقائب في قافلة السفر، فتردد الحي كله..

لا ترحلي يا رائعة..

لا تذهبي يا ساحرة..

تمهلي يا مهرجان..

نريدك بيننا إلى الأبد.

رائعة، ومهرجان، وساحرة، ويريدونها إلى الأبد.. لكن هل قاموا بتجربة طعم الخسارة مثلها؟ هل امتلكوا قوائم للانكسارات مثلما امتلكت؟.. أب مات في سيرة الحج ولم يحج.. أخ ممرغ في الهرمونات وعند سلطانة تافهة.. أم تموت وتستيقظ في كل يوم.. وقلب ليس مجروحا فقط.. ولكنه متآكل.. نريدك يا رائعة.. في الماضي كانت للكلمة حلاوتها.. لسير المهرجانات وقعها.. والآن لا توجد غير قرية (أم حراب) ما أحلى سيرتك يا قرية أم حراب..

جاء (نجَّام) من بيته يسعى راكضا، كان لاهثاً، ومضعضعاً، ومرفوع الثوب في انفعال واضح، لم يكن في عينيه كحل، ولم تكن في يده حقيبة للسفر.. أو قفة لحمل زاد.. زاد السفر.. اقترب من الرزينة التي كان السفر كله مرسوما في وجهها:

- آسف يا رائعة.. لا أستطيع مرافقتكم.
- لماذا نجَّام؟ لماذا أيها الصديق؟

جدت ظروف في الأمر.. صدقيني.. كنت أود السفر معكم ولكن..

لم يضف كلمة أخرى، وضغط على (ولكن) الأخيرة في جملته حتى كاد يدميها.. إنها (ولكن) المبهمة التي تحتمل مائة معنى.. ومائة ظرف.. والتي لا تصدر إلا في الخطوب الجليلة والتي فيها كتمانٌ أجل. ليس نجَّام من يتركني.. ليس الذي تضطره الظروف أبداً.. وكما كان سندا مستقرا، فلابد سيكون سندا مترحلا.. نجَّام ماذا جرى؟ تقترب منه بعينيها.. بيديها، بكيانها المستعد للسفر وفي لحظة الاستفسار المحرجة.. يسندها إلى أمومة طارئة.. يهمس.

- استدعوني إلى الكتيبة مجددا.. لا أعرف ما ينتظرني، لكنهم استدعوني..

لا تقل من أجل حساء الرميات البذيء ذلك.. لا تقل من أجل

قصر سيكنس أو حديقة ستنسق.. أو أميرة بلا حياء تحاول الفكاك من سور الحريم.. أتركهم نجَّام.. هيا.. أتركهم.. لا يستطيع، بالطبع لا يستطيع، وما داموا قد استدعوه فقد استدعي.. وما دام قد استدعي.. فقد لبى.. وداعاً.. وداعاً أيها الصديق.. اقتربت أكثر وضعت على خده قبلة البنت التي كان يوماً أمها.واستلمت من فمه قبلة الأم التي تودع وقلبها ينفطر.

-14-

عشـية آدم نظـر - دمدوم. عشـيته وحده فـي جناح رائـق ومزدهر، وعامر بالمعقول وغيره ومادامت كذلك فلينفض القلب.

كان السـلطان في يوم قنصه الشهري في تلك الأحراش المتشابكة، والمبعثرة في ضواحي العاصمة (جوا جوا)، تمدها بحطب الوقود وفراء الثعالـب، ومتعـة الصيد خاصـة حين يصفـو الجـو، ويتربـع الربيع على كرسي المناخ.

كانوا يصيدون الأرانب والظباء وطيـور القطا وحمير الوحش، وقد يعثـرون على نمـر جريح، يجرونـه من جرحـه مهللين أو يفاجئهم أسـد ضاري، فيلغـون من ضراوته الصيـد ويرجعون.في مثل هذا اليوم ينشـط فصيـل (الظهوريين) حراس السـلطان، ويسـد الرعـاع منافـذ الأحراش تاركيـن المتعـة كاملة للحـراب السـلطانية، والصقـور المدربـة، وكلاب الصيد ذات الشـم القوي، والتي كان الرشيد يسـتوردها من أماكن بعيدة. كان السـلطان يأتـي متأخرا في العادة، يتعشـى من صيده، وتظل (مسـك النسـاء) أسـيرة لنباتاتها وأزهارها الحمراء في الحديقة الملحقة بالقصر، تنسقها بلا كلل، وقد تكل، تحل شعرها إلى أمواج، وتضفره إلى جدائل، وقد يعتل مزاجها فجأة، فتطوف راكضة بصالات القصر، وغرفه، ومخابئه البعيدة باحثة عن خادم يتثاءب لتسد حنكه أو جارية تحاول التأنق، فتفسد أناقتهـا.. وكان من جـراء ذلك أن تحول يوم القنص الشـهري للسـلطان رغـد، إلى يوم معروف لعدم التثاؤب.. أدخلـه الخدم في دروس الفطنة، وكانوا يدرسونه لكل قادم جديد.

الجارية (سلافة) كانت موجودة لكن أمعاءها تقلصت فجأة، وتذكراً

بليدا سرى في كيانها، كانت قد هيجتها قافلة تتاجر في الجواري والعبيد، وصلت إلى (جوا جوا) مؤخراً، وكانت بها جارية تمت لها بصلة الدم، اشترتها السلطانة، وألحقت بقصر المسك.. أعذرني يا دمدوم.. كانت تتقلص.. أعذرني سأستفرغ..

عشيته وحده في كرسي خشب الورد.. وأزهار نرجس أصيلة تتفتح في أصيص وردي، لوحات (جيوفاني) العالمي التي رسم فيها السلطانة في يوم زفافها إلى الرشيد ويوم ولادتها بابنها البكر، ويوم اشترت أقراطا جديدة، موزعة في كل ركن من المكان، وعذابات طائر الكناري المحبوس في القفص المخملي.. تأتي.. تأتي مغردة.. ولا مانع أبداً من مكنسة التأمل، لتكنس قليلاً من غبار القلب.

في قناني متراصة أمامه، عثر على عطور متنوعة، تشبه عطور (جبروتي) التي كان يخترعها للنضارة، والتوهان، وشفافية القلب، لكن أزهارها تختلف، وملمسها بين الأصابع يختلف. شمها كلها، وتعطر منها واحداً واحداً، وأحس بالدفء يسري.

حين جاءت أخته الرزينة إلى قصر (روح الأصيل) في يوم مأدبة الجدات الكبيرة تلك، لم يعرفها من الوهلة الأولى وكاد يعرفها في الوهلات التي تلت، التقطت عيناه جارية وردية الثياب، ومذهبة الخمار، وفي أصابعها حناء باهتة.. أحس بها غريبة في وسط ذلك الكم الهائل من الجواري اللائي يعرفهن ويعرفنه.. لكن العمال مستنفرون، الخصيان مستنفرون، والجاريات مقيمات، وقادمات من قصور أخرى لرفع رقبة الجدة في يوم مائدتها العامرة.وحين استدارت وذهبت، التقط ذهابها، أحس به ذهاب روح يعرفها، يحبها، وعاش برفقتها سنيناً قبل ذلك.نفسه الذهاب الشفاف.. الهائم، والمكسر الخطى.. لم تكن الخلاخيل في الرجل أليفة، ولا حناء اليدين أليفة، ولكن كل شيء آخر يضج إلفة.. لن تكون الرزينة لأن الرزينة ليست جارية، ولن تكون جارية مستنفرة،

لأن يديها كانتا بعيدتين عن أيّة خدمة.. احتار لكنه هش احتياره.. احتمل صخب المائدة الكبيرة والعامرة كله حتى تلاشى، انحنى، وسأل، وتمايل، وقدم الشراب المرطب، وحتى ابتدأت الجدات يتعكزن على عصيهن ويمضين.وفي أثناء خدمته لاحظ شيئاً غريباً.. كانت (السحابة) تلتقطه بين لحظة وأخرى، لم تكن نظرات ازدراء، ولا نظرات عطف، ولكن نظرات واسعة.. شديدة الاتساع من ثقبين ضيقين مثبتين في وجه يابس. في البداية ظنها تريد شيئاً محددا.. شيئاً غير متوفر في مائدتها العامرة، اقترب بأذنه من صوتها الكليل، وفوجئ بها تصرفه بإشارة من يدها، ودون أن تخسر جملة صوتية في حقه.تطالعه بالنظرات نفسها، ويقترب، تصرفه بالإشارة نفسها ويبتعد.وحين دخلت تلك الجارية الوردية والمذهبة، والتي في قدميها خلاخيل فضة منغمة، كانت نظرات الجدة في اتساع بذئ غطاه كله.هو لا يعرف السحابة أبداً.. وما التقاها إلا لقاء خصي يخدم بجدة سلطانة، ولو فتحت كهفها وقالت شيئاً لعرف.لكن الكهف مغلق.. وهو لا يعرف.. يود أن يعرف.

الأخبار لا تندس أبداً.. في القصور المرفهة أو أحياء الفقر أو السوق والطرقات، النصوص المكتوبة قد تعاد كما هي أو قد تكتب بأحبار أخرى، وتروى من جديد.. والجواري يعشقن فتح الباب الذي تأتي من خلفه الجروح، الخصيان بفداحة التحور الهرموني، يعشقون فتح الباب نفسه، والذين أعادوا كتابة النص، كانوا حساداً، وغيورين، ويتمنون أن يسقط في نظر (مسك النساء) وفي نظر الدنيا كلها.. تكالبوا والمائدة قد رفعت، والجدات قد بدأن الشخير، وقصر المسك نائم أو يتثاءب:

هل رأيت أختك الرزينة يا دمدوم.. كانت في ثياب الجواري، وكانت تتأملك وتستفرغ، وسمعناها تردد.. ليس أخي.. ليس أخي..

يريدونه أن يشهق أو يموت أو ترى السلطانة مخاط عينيه، فتكنسه.

في الدواخل المخفية للترف، توجد ضمائر ملوثة، وهياكل بلا قلوب، ونزعات لامتصاص الدم حتى آخر قطراته.. والذي يقترب من قمة الترف.. المخدع السلطاني، تبتدئ إجراءات إسقاطه، والذي يسقط يكنس إلى الطريق.. فضلة.. وباء.. قطا أجرب.

خصي، ومنبوذ، وتائه، وفي الطريق العام؟

ما أسوأ النصيب لو كان كذلك.. تلك هي الساعة التي يتحتم على المرء فيها أن يختار، وغالبا ما يختار لسعة السم.

لم يسقط لأنه لم يفاجأ.. ذلك المجيء الرزين بالخطوات المكسرة.. ذلك الذهاب الشفاف تحت ثياب الجارية، ونغمة الخلاخيل، اليوم بالذات أحس بأنه الفرع الذي انقطع تماماً من شجرة آل (نظر حبايب).. تركته الرزينة، ولابد تركته أمه أيضاً..

كان (قلوب) موجوداً، وكان ما يزال قلوب الذي لم يكن أبداً في مستنقع الرعاع.. ذلك الصديق.. قارئ طالع الأمير، والذي أحب (آدم نظر)، وأحب الفرس (شبرق) وزفوه إلى قصر المسك بالدموع يوم نادوه إلى الخدمة.. كان شرسا ونافرا، ويأبى حتى أن يمد يدا للمصافحة.. وقد سمع دمدوم أنه كان في قمة الخدمة.. في المخدع السلطاني.. وسقط.. وعين الآن حارساً لأحد المخادع الحريرية حيث تقيم الأميرة (رغت الرشيدة) شقيقة السلطان، وذلك بعد أن شم السلطان رائحة رجل تنبعث من كل شبر في المخدع.وقيل أن (قلوب) بالغ في تفانيه في تلك الوظيفة، اقتنص ظهوريّاً مسكيناً من حرس السلطان وقدمه إلى المقصلة باعتباره صاحب تلك الرائحة التي كانت تنز في المخدع.. كان دمدوم مستغرباً بشدة.. لم أرفعك إلى فوق حين ارتفعت، ولم أسقطك إلى تحت حين سقطت.. ما ذنبي؟ نحن كلنا تحت قدمين لا ترحمان وفي نعمة هي نقمة..

من طرف شفتيه وبضحكة هرمونية عنيفة ردد قلوب:

- زوجتي حرّة الآن في أحضان تاجر من المساليط.. ولابد أن أختك الرزينة قد عثرت على تاجر من (التنجر) وتنام في أحضانه.. لا تحزن يا دمدوم.. ما دمت قد خصيت فلابد أن تخصي كل العائلة.. ها.. ها..

لو كان هذا في الماضي، لمات خصي اسمه (قلب الأسد - قلوب) متأثرا بطعنة خنجر نفذت إلى القلب.. لو كان في الماضي، ربما لن يعثروا حتى على رأس صالح لإيوائه مع الجسد..

الماضي والحاضر.. ما الفرق بينهما؟

أكيد ثمة فرق.. صوت فتونة الحبال الصوتية، وصوت هرموناتها، القدرة على رد الأذى والقدرة على احتماله، الفرق بين (حلحلوك) المجنون الذي يريد، وبين (مسك النساء) المجنونة التي تريد، بين رغد السلطان ورغد الذي قد يصبح متسولاً في سوق الفخاريات، وقلوب نفسه حين كان شديداً وتافهاً، وسارقاً لفئران (الكدكاي) من حلوق الغير، والشديد التافه الآن والسارق لبصيص الفتونة من ضعف الغير.. قد يتخيل السماء مثقوبة وتفرز الدم، وحي الرديم المسكين، قصوراً للمسك والنرجس، ووالده يعود من قبره ليحج، ويسعى، ويقبل الحجر، ولكن الرزينة.. لن تكون إلا أخته.. مهرجان (جوا جوا)، وسيدة طاهرات (أنسابة).قد تتركه كما فعلت.. قد تنساه كما ستفعل، وقد تكون الآن زوجة لولد الحُور بكل عيوبه وحموضة لهاثه، ولكن ليس في أحضان تاجر (تنجري) يسلقها.

يريدونه أن يسقط لكن الجارية (سلافة) كانت قد قالت الحكمة كلها.. تذكر لقمة طاعمة أكلتها.. تذكر عيدا صاخبا عيدته.. تذكر ناساً أحببتهم ذات يوم وأحبوك.

لم يقل لقلوب شيئاً.. ولا للآخرين شيئاً.. وانصرف.

عشية دمدوم وحده.. السلطان في القنص.. السلطانة في تنسيق

نباتاتهـا.. الجارية في المغـص والتقلص والتذكر البليـد، والقلب يكنس من غباره بشدة..

عـادة الدخـول إلى حمـام صاحبة العز بـدأت فجـأة وتحولت إلى عادة..

عادة دلق الماء على جسـدها، وتدليك أجزائهـا، وتجفيفها بالحرير بدأت فجأة وتحولت إلى عادة.

وعـادة ضمهـا إلـى الصـدر وتمزيـق قسـوتها فـي تلـك المحصلة الكثيفـة.. غليـان الأنفاس، العرق من مسـام الوجه حتى مسـام القدمين، والمواء كالقطط، بدأت فجأة، وتحولت إلى عادة..

يوم عادي من أيام خدمته التي لا يسمح فيها بالتثاؤب أبداً.. الأيام كلها بذيئة، والتواريـخ تبدو عرجاء وهي تأتي، ومكسـورة القدمين وهي تمضـي.. حين تكـون الجارية (سـلافة) بقربه، يحس بالدفـء، يقتسـمان البهجة لـو كانت ثمة بهجة، ويقتسـمان الإيـذاء المؤكد أنـه إيذاء.وحين يجئ السلطان متسربا من مشـاغله، يتجرع الورد الدافئ، يمد يد الخواتم المرصعـة إلى جبهته أو ثنايا ضفائره، ويردد: ذنوبنا على الأرض.. ذنوبنا يا مسـك.. يحس بالدفـء أيضاً، بأبوة السلطان غير المحسوسة، والتي لا يعرفهـا أحد.ليس (رغد الرشـيد) الـذي يأتي مبعثرا ومتخففـا، هو (رغد الرشـيد) الـذي يحكم، وليـس الذي يمـد اليـد لتربت على كتـف خادم خصي، هو الذي يمد الحبل طويلاً ومتيناً لابنه الأمير مساعد ليصنع هذا الخادم الخصي.. التناقض حتى في الوقت، في اللغة، في التصرفات، في الأبوة الغاشـمة التي هي أبوة لشـعب، والأبوة الناعمة السلسة، التي هي أبـوة لخصي، وعيال لم يبلغوا الحلم بعد.أحيانـاً يأتي أطفاله الصغار من منابـت رعايتهم في صدور المربيات.. يحيلون مخدع نعاسـه إلى مخدع فوضاهـم، يضربونه بكرة الخرق، ويوسـخون على ثيابـه، وينادونه برغد حافية حتى من صبغة الأب.. كان يبتسـم.. أحياناً يقتنص اللحظة الدقيقة

في المخدع الواسع العيون، يمد يده إلى خصر جاريته سلافة، ويهزه.. وقد قرقرت في بطنه غازات.. أحياناً ينام.. وينام.. ويخشى دمدوم أنها النومة التي ما بعدها استيقاظ.

السلطانة تريد أن تستحم، تريد ماء الورد المعطر، والجارية في مهام أخرى داخل أحد الأجنحة البعيدة.ودمدوم مرهق، ويدس التثاؤب في حلقه بتغطيته براحة اليد، ومن غرفة استحمامها الملحقة بالمخدع الوردي.. تزمجر.. ماء الورد يا سلافة.. يا جارية.. يا دمدوم.. يا غبي.. حمله إليها دون أن يفكر أنه يحمل مهمة لم تفصل له، دون أن يدري أن السلطانة في إناء الاستحمام جليّة حتى من ورقة التوت اليابسة.. وضع إناء ماء الورد أمامها، وانصرف بالتفاصيل كلها إلى الخارج.ليس الجسد المرمري الذي طالما تخيله.. ليس الثديين الذين تخيلهما وتدين من ذهب لا يتزحزحان.. وليس شعر الإبطين الذي تخيله جدائل من فضة تترقرق. كانت في واقع الأمر مجرد امرأة.. امرأة في حي الرديم.. في سوق الفخاريات.. في الحدود وفي قرية أم حراب البعيدة.. هي (النعيمة) التي عرفها في الصغر وعرفها مراهقو (جوا جوا) كلهم.. النعيمة التي غدرت بالمهاجر (عبد الرب) وخفَّضت منازله كلها لدى السلطان دون حتى أن يكون شاهدها من قبل.. يتصورون الدواخل المخفية لقصور الترف، تصوراً غريباً.. ولو حكى للرديم فلن يصدقه الرديم.

التفاصيل المكبوتة في صدره والخائفة من الخروج حتى إلى ذهنه هو.. سيمتلك الفطنة الجديدة، يريد أن ينسى، أن يفكر في لون مشبك للشعر أو رداء معد لحفلة زار، أو سبائك يهودية الصنع تترنح على جيد. يريد أن ينسى لكن سلطانته لا تريد.

حمل ماء الورد إلى غرفة الاستحمام الآن عادي.. وجدت الجارية في المكان أو لم توجد.. ضعه على الأرض يا دمدوم.. هل أعددته جيّداً؟..

الجلية دون ورق توت يابس.. ودون رنة حياء تظهر.. هل أضفت إكسير الإنعاش؟

التطورات.. التطورات التي لابد منها، والتي لا تصنع حناءها، لكن حناؤها تصنع لها..

والعقارب التي تحت الجلد لكن الجلد يخفيها، والتلف الذي تطحنه القسوة، لكنه حتماً سيبزغ..

لا تضع الماء على الأرض ثم تذهب يا دمدوم.

لن أضعه على الأرض ثم أذهب لكن ما هي الخطوة التالية يا ترى؟ تنظيف جلدها؟ يا.. كيف؟ تنظيف جلد متجعد لكنه نظيف، ودلق ماء الورد على ورد يكاد يذبل لكنه لم يفعل.. أصابع الرديم الفقيرة في مجابهة العز.. ضحية رجل المهام الجليلة في مهمة.. هي في الواقع جليلة، وجليلة جداً بالنسبة لخصي.حدثه الأمير في آخر لقاء، عن الأسوأ، وجربه.. حدثه عن الأقسى، وجربه، لكنه لم يقل شيئاً عن الأحسن والأخف.. هو الآن في بوتقة الأخف.. الأحسن.. الأكثر اعتدالاً هو خائف وخائف جداً.. يريد أن يفر، أن يصبح حارساً لحرير أقل شأنا، أن يعجن الخبز، يقلب عصائد الحميض، يكنس صالات لكز النظر المريعة، لكن التطورات لا تصنع نفسها بل تصنع.

حممت، ونظفت، وغسلت مواضع البهاق كلها.. ماذا بعد؟

تكسير قسوتها في تلك المحصلة الغزيرة.. ما أسوأ تكسير قسوة السلطانات.

عشية (دمدوم) وحده على أريكة المخمل، السلال الممتلئة بالفواكه، وحلوى ثمار (القضيم) تطل بأحمرها من داخل إحدى السلال.. السلطان متأخر جدا في رحلة القنص.. السلطانة منهمكة في إذلال عبد، والجارية سلافة ما زالت في أحضان مغص الذكرى..

في أحد الصباحات التقى (بقلب الأسد)، كان اللقاء العادي دون

مصافحـة، ودون كلمـة ود.. يلتقيان في اليوم الواحد عشـرات المرات.. كلاهما في سجن وكلاهما في محنة، لكن قلب الأسد ليس هو القديم.. أمسكه من ثيابه بغتة.. جرَّه إلى أحد الأركان:

إلى أي مرحلة وصلت.. أبي الشيخ؟

- ماذا تقصد؟

ما تفعله بماء الورد..

أي ماء ورد.

لا تبدو ذكياً أبي الشيخ.. كلنا فعلنا.. كلنا حدث لنا أبي الشيخ.

يردد (أبي الشيخ) التي كانت تردد فيما مضى داخل مستنقع الرعاع ومن قبل المصممين والمحورين، سـخرية وشـماتة وربمـا مزاحاً.. لكنه ليـس الرعاعي القديم.. عيناه رديئتان.. نظراته تحرق ولسـانه يقطر بسـم أرعـن.. كلهـم فعلـوا.. وكلهـم حدث لهـم ما يحـدث لـه الآن.. ولابد أنهـم كانوا جميعهـم في (الفوق)الـذي يعيش فيه واندلقـوا جميعهم إلى (التحـت) الذي قد يندلـق هو إليه.. إذن لايزال الأسـوأ قائماً.. الأقسـى قائماً.. والأثقل كله متربعاً على المستقبل.

يـوم الغنـاء كان يومـاً آخـر وما يـزال محفـوراً، وبعد أن تكسـرت قسـوتها في تلك المحصلـة الغزيرة، قرصـت خده، اتجهـت إلى إحدى الخزائـن المغلقـة فـي المخدع فتحتهـا، وجاءت بآلـة (منديلـن) مذهبة، ومطرزة بالعقيق.وضعتها على يده وقالت.. غن يا دمدوم.. أطربني..

يغني ويطربها؟ كيف ولم ير المندلين من قبل إلا سـراباً بين أيدي المغنيـن، وإلا آلات غامضة المحتـوى تترنح داخل جرابـات من الجلد في سوق الفخاريات.. ولا يحفظ من الغناء المتداول في طرب (أنسابة) سوى بعض المقاطع الشـوارعية التي كانوا يرددونها وهم مراهقون.. .لا أعرف الغناء.. لا أعرف العزف، أرجوك سامحيني..

اختطفت آلة الطرب من بين يديه، أعادتها إلى مكمنها في الخزانة،

وعادت: بلا منديلين.. بلا عزف أيها الغبي.. كانت أغنية (جواهر) الشعبية التي تصف رحلة واحدة اسمها جواهر هاجرت من (أنسابة) إلى مكان بعيد راكبة إحدى القوافل، وتاركة قلب العاشق ينز حزنا، هي أول ما خطر بباله.. رددها بصوت الهرمونات النقي، وفوجئ بأن السلطانة طربت حتى تساقط من حلقها الريق.. ما أغرب الدواخل المخفية في القصور المبهرجة؟

عاد السلطان من رحلة قنصه مستبشرا، كانوا قد بعثروا الحراب والصقور وكلاب الصيد المدربة، اصطادوا المئات من طيور الحباري، والغزلان، ودجاج الوادي، وأسروا ثعالب غزيرة الفراء وتصلح لجلب العملة الصعبة.. عادت الجارية سلافة من تقلص الذكرى، والسلطانة فرغت من تنسيق الملل.. وتوبيخ عبد الخدمة، وعادت. الآن ليست عشيته وحده.. إنها العشية العادية، والمزدحمة.. عشية الروتين.

يوم وصول الإيطالي (جيوفاني) رسام مسك النساء بعد غيبة طويلة إلى أرض (أنسابة)، كان عيدا يشبه أعيادا عديدة بلا حصر.وكانت السلطانة قد عرفت بنيته الأكيدة في القدوم قبل عدة أسابيع من ذلك، تحدث بأمره إلى السلطان عدد من تجار القوافل الشبان كانوا قد قدموا حديثاً يحملون دماء التجارة الجديدة.قالوا شاهدناه على ضفة النيل في (أسوان) يرسم العشب ويمزق، ويرسم مراكب الصعيد ويمزق، ويرسم النوبة بالصدور العارية، ويمزق، وقال أنا ذاهب إلى (أنسابة) لأرسم السلطانة مسك النساء في العمر الخصب.

والواقع أن السلطانة كانت قد غادرت العمر الخصب منذ سنوات ليست بالقليلة، لكن شراسة في استخدام الأكاسير المرطبة، وماء الورد، وتسخير جيش الخدم لفرد الوجه بعد كل تكشيرة غاضبة، أبقاها في العمر الخصب الذي يبدو أنها لن تبرحه أبداً.كانت مفاجأة لها حين ردد الرشيد، وهو يتخفف من أعباء سلطنته، ويتدثر بأعبائها الزوجية

في المخدع السلطاني، ويمد يده إلى الشراب الدافئ الذي قدمه له (دمدوم):

- رسّامك المفضل يا مسك.. إنه قادم في إحدى القوافل.

اندفعت إلى الرشيد لتضمه إلى صدرها، وتقبله في ورم شفتيه، وكانت المرة الأولى لدمدوم التي يرى فيها السلطان جسداً يُضم، وشفتين تُقبلان، فقد كان عمله يتقلص في المخدع السلطاني بمجرد أن تبدأ قشعريرة أو حمى في الظهور.

شكراً يا رغد.. شكراً..

شكراً على ماذا؟، والسلطان نفسه لا يعرف أي قيمة محددة، تمثلها لوحة لمتغطرسة كزوجته، تعلق على حائط، أو ترمى في قبو.. بالرغم من استجلابه للرسامين من كل صوب ليرسموا مواكبه في ذكرى أعياد الجلوس أو الجمعات الظليلة المزدحمة. يبررها بالتوثيق، ولذاكرة التاريخ، ولدواعي التطوير في بنية السلطنة.مد بصره إلى اللوحات القديمة المعلقة، وبنفس تلك الريشة الإيطالية. السلطانة في يوم عرسها، يوم ولادتها لابنها البكر، فاردة شعرها، ضامة شعرها، متحزمة بزي (أنسابة) التقليدي.. من (رحط) و(سكسك)، محشوة في موضات جيل جديد، واقفة وجالسة، ويدفع (رغد الرشيد) تكلفة كل ذلك من موارد السلطنة.. ما أسخف رئاسة الترف.. ما أسخف أن تقتني واحدة كان زوجها بائعاً لحلوى لزجة.يتذكر اليوم الذي جاءت فيه كسيرة، لتصيح في جمعته.. ذلك اليوم البعيد..

(وحيدة وأرملة، ولا أجد لقمة العيش.. أرروك).

يتذكر انغماسه فيها لدرجة التوهان.. وتركه للشرع يميل بشقه حتى الأرض.. يطالعها في لجة الفرح بقدوم رسام التكلفة، يحسها الآن معنى آخر.. غبارا.. صدمة.. مأزقا ما كان يجب أن يسمى مسكا، وأن يعامل كمسك. حين أخبروه بتكاليف قصر المسك، قالوا ثلث ضرائب

الزراعة، نصف إيراد الماشية، وربما ثلثي فوائد الغابات كلها، لم يفزع، ولم يحتقن وجهه، كان في قلب معمعة عاشقة، وأحب أن ينتصر والآن لو جاءوا بتكلفة كوخ حقير.. قالوا إردب من القمح.. خروف واحد.. نصف ناقة.. لتردد مئات المرات...

(ذنوبنا على الأرض.. ذنوبنا..).

يمد يد الخواتم المرصعة، يدحرجها على جبهة الخصي دمدوم.

وفيما تلى ذلك من أيام، انقلب قصر المسك الكابوسي أصلاً، إلى كابوس أشد، عدل توزيع أثاث خشب الورد، ليناسب انعكاسات أضواء الفوانيس، جددت أصص الورد وروائحه، وافترضت أكثر من ستة عشر جلسة مختلفة للرسم، قد تجلسها السلطانة أمام رسام التكلفة حين يحضر.وفي المخدع السلطاني وتحديداً في غرفة الحمام الملحقة، كان (دمدوم) يؤدي واجبا مرا، وحامضا، وأشد تعاسة من قراءة حظ رجل المهام الجليلة.. الأسوأ.. الأقسى.. الأثقل على القلب.أغسل هنا.. حك هذه الكوع جيّداً.. مرر الماء على مهل.. تافه.. محوّر تعود به إلى جريرة التحوير هابطة به درجات.. مكسر القسوة في تلك المحصلة الغزيرة.. والآن.. تافه.. حقير.. محور.. هل ترى بقعة النمش هذه؟ حكها.. حكها.. تلقي على وجهه إناء ماء الورد.. على ثيابه بقايا غسل. لم تكن هنالك جارية اسمها (سلافة) الآن لتقاسمه التعب، تحكي عن صناعة الرغي، عيد صاخب عيدته.. لقمة طاعمة أكلتها.. ناس يحبونك وتحبهم، فقد ألغت السلطانة وجودها فجأة بعد أن تأكدت من انغماسها في الحياة السرية للسلطان رغد. باعتها إلى رب قافلة تجارية متجهة إلى تمبكتو ودون حتى أن تجادل في السعر. وفي يوم رحيلها المباغت لحق بها حتى باب المهوقني العريض، سلمها خاتمًا من فضة كان يملكه قائلاً للذكرى، وسلمته خصلة من شعرها المضفر قائلة.. ليست للذكرى ولكن للنسيان.. حين تمتلك خصلة من شعري فإنك تنسى وجهي سريعاً..

وكان دمدوم يلمح في عيني كبير (أنسـابة)، أسى بالغاً كلما جاء متخففاً، يرى يده تقتنـص اللحظة الدقيقة كما كان في السـابق، وتهـز خصراً غير موجود.وأحياناً يصيح يا (سـلا)، ثم يقبض علـى الحرفين الأخيرين قبل أن يخرجا ويكملان الاسم.

أخيـراً وصـل الرسـام (جيوفانـي) إلـى (جـوا جـوا).. وإلـى قصر المسـك، وأرسـل دمدوم، وقلب الأسـد، وآخـرون لاسـتقباله عند باب خشـب (المهوقني) العريض.كان شـيخاً محني الظهر، يرتدي ثياب أهل (أنسـابة) التقليدية.. الثـوب والعمامة، وحذاء جلـد الأصلة.. وقد نفرت من ذقنه لحية مهووسـة وبيضاء.التقته السلطانة بكثير من الترف، والتقاها بشيء من التحديق كأنه من كلل في البصر..

- ما زلت في العمر الخصب.. ردد الإيطالي.. ما زلت موديلي المفضل (يور إكسلانس)..

مهمة جيوفاني ليست عسيرة جداً، وراقبه دمدوم في مزجه للألوان، وتخطيطه على القماش.. وأحس به يرسـم وجه مسك النساء الذي كان، وليـس الذي أمامـه، وبذاكرة غريبة الأطـوار لم تنس حتـى جرحاً ضئيلاً كان فيما مضى موجوداً، والآن أزالته قسوة التدليك والأكاسير المرطبة.

ما أحلى قصر المسك والإيطالي يرسم.

مـا أحلـى اختـزال الصرخـات فـي صرخـة، والنتـوءات فـي نتوء، والطوافات على الغرف والأجنحة في طواف، وأوامر الكبت الحارقة في أمر.. ما أحلى صوت الإيطالي حين يصرخ:

لا تحركي عينيك.. أعطي للون حقه..

والأحلـى من ذلك، حين اختـار دمدوم، وقلب الأسـد وجارية من الزنج، كموديلات للوحة استثنائية كان اسمها (ضائعون)، أنجزها بسرعة فائقـة، وقال.. قد أضيـف إليها ضائعين آخرين في بـلاد أخرى، وأعلقها في جاليري (موليزو) في (فينيس)، وسيصلكم نصيبكم من الضجة.

كان السلطان يأتي أحياناً.. يجلس على كرسي مذهب، ويطالع الرسم دون اهتمام كبير.. لم يكن بادي الحماسة، واعتذر للرسام بجلافة حين حاول إدخاله ضمن لوحة عائلية كان يرسمها.

يوم سفر الرسام كان كارثة تشبه كوارث عديدة بلا حصر.. عاد قصر المسك إلى قديمه.. العذاب المختزل، إلى عذاب مفكك.. عاد دمدوم إلى خدمته التي هي الآن خدمته وحده.. يلهث.. يدس التثاؤب في الحلق.. يدلق ماء الورد.. يكسر القسوة، وينتظر.. ينتظر ذلك اليوم الذي قد يكنس فيه إلى أي مستنقع.

ما الذي أتى برجل المهام الجليلة إلى قصر المسك؟

السؤال المحير، وذلك الصباح المبكر حين أتى بعض الخدم إلى المخدع السلطاني يصرخون.. الأمير في القصر.. الأمير في الغرف.. في الأجنحة.. في الحديقة.. في أوعية الطعام.. كان السلطان نائماً والسلطانة نائمة، ودمدوم مستيقظاً كالنائم، ونائماً كالمستيقظ.. واستيقظ السلطان، استيقظت السلطانة، ارتدى الجميع تسارع الخطى.. ما الذي أتى بولدك يا رغد؟ يزور أخوته.. يزور عماته.. يزورني.. يردد السلطان ولا أحد في الحقيقة يعرف.. كان الأمير قد جاء بالفعل.. كان يركب على دابته الجديدة.. فرس محور من قبيلة (الكيادين)، أولئك البدو الذين كانوا يعيشون قريباً من (جوا جوا) على خلاف مع السلطنة ثم هدأوا بعد أن زودهم الرشيد بعدد من الوعود، وسمح لكبيرهم بحضور مجالس (الكوراك) عضواً، وبقي ثمة متمردون قلائل.. اصطادهم الرعاع، وكان الفرس الجديد منهم.كان الأمير قد انتشر في الغرف، وكان يحمل حبلاً هائلاً لقياس المساحات، يحمل ألواناً ترابية قد تصلح لإعادة الصبغ، وكانت نظراته المهووسة هائجة لا تستقر. واجهه الرشيد ببقايا نعاس الوجه، وحدة لا تلائم كيانه البيتي والبعيد عن الحكم..

- ماذا تفعل يا مساعد؟

أفكر يا مولاي.. أفكر؟

تفكـر؟ وفي قصري، وبهذه الطريقة.. هـذا الحبل.. ألوان التراب.. أنفاسك.. نظراتك المهووسة؟

لم أفهم يا مساعد؟

ستفهم يا مولاي.. ستفهم.. ويغادر القصر، لكن الهواجس لا تغادر سكان القصر.. بالطبع يستطيع الرشيد أن يعرف.. ولا يتعجل المعرفة، وتستطيع السلطانة أيضاً أن تعرف.. لكنها تتعجل المعرفة، وهمس في القصر.. يريد أن ينقلب.. يريد سلطنة أبيه.. يحاول إفساد أمن القصر لأنه لا يحب سلطانته.. كان دمدوم موجوداً، واستمع جيّداً، وكان يزعم أنه يعرف الأمير حتى أكثر من أبيه، وكانت الفكرة التي راودته في تلك اللحظة.. هي أن الأمير كان في واحدة من لحظات فصامه العادي الذي يداهمه من حين لآخر.. مؤكد لم يكن يقصد قصر المسك ومؤكد كان يرسم أذى جديداً.. يريد الخصي أن يوضح، لكن الخصيان لا يوضحون.. لا يسمعون.. لا يرون.. ولا حتى لو بيعوا إلى أية قافلة.. سيكون في حوزتهم تاريخ سيروى.. إنهم باختصار بلا ماض.. بلا حاضر.. بلا مستقبل.

-15-

خريـف (أم دبابيـك) الوعر، خريـف طيور (أبو السـعن) الصاخبة، الكركي التي تهاجر، وتسـتقر، وتتناسـل، وتلتقط الحبوب دون وجل من شـرك، أو فخ صيد.ليس في الأرض شبر لا يرتوي أو يخضرُّ، ليست في السـماء سـحابة لا تضخ أو تفرز، وليسـت في جسـد الريف كله غدة لا تفرح أو تضخ الفرح.

هي قرية (أم حراب)، الخريفية الآن، والجافة في المواسـم الجافة، المثقوبـة السـماء والأرض، والتي فـي حاجة إلى تجـوال كثيف لتعرف، وإلـى سـكنى مؤطـرة لتهضـم، وإلى بـال طويـل جدا لتسـتمر السـكنى المؤطرة.. سكنى مؤطرة.البيوت أغلبها من صفيح، وقش وخيش، وأقلها من طين رطب ومتماسـك.. هي بيوت الريف كله، وبيوت العاصمة التي في أحياء المسـكنة، الشـوارع.. أزقـة الوحل التي تتلهـى ببلاهة الحمير، أصوات البوم، أصوات النعـاج، فحيح زواحف الأرض، زواحف اللدغ، الرجـال المحتشـمون، والثرثـارون، وناقضو وعـود، ومحافظون.النسـاء الكبيـرات في الريـف.. الصغيرات في غير الريـف.. ورقص أرجل الغيد على صـوت (نقّارة) هي طبل الأفراح المعتمد والمسـيطر.كل شـيء في ريـف قريـة (أم حراب) يوحي بشـيء.. كل ثرثـرة تقود إلـى ثرثرة.. كل مخلوق يحيا لأنه أراد أن يحيا، الرجال يريدون.. النساء يردن، والأطفال في حلمات الأثداء أيضاً يريدون.

حين كان (آدم نظـر) صغيرا، وفي كثافة إزعـاج الصغار الذي يريد أن يعـرف، وأن يتقصـى، حدثـه أبوه عن سـيرة قريـة (أم حراب) وسـير منابـع (التنجر) الأخرى التي تجاور (أم حراب) وتشـبهها في كل شـيء

إلا اتساع صدرها.هناك ولد صانع الطبول.. هناك زرع وحصد واغتنى، وافتقر، واستل تلك الهجرة البعيدة إلى العاصمة (جوا جوا)..

(في أم حراب لم نكن نحمل هما للقمة العيش، لم نبت أبداً جائعين، ولم نمس وبطوننا تقرقر.. كلهم أهلنا، وكل بيت بيتنا.. نحن أنجبنا الملك (برجاوي) الذي كان فارسا، ومهاباً.. وكانت سلاطين (جوا جوا) تخشاه.. أنجبنا (أبو العز) قائد قوافل الحج العظيم.. هل تعلم أن (تمائم شريف) المغنية.. أصلها من التنجر، لكنها أنكرتنا؟ وهل تعلم أن سوق الفخاريات هذا والذي تراه الآن أهم أسواق (جوا جوا)، أسسه التنجر حين كانوا يتاجرون في الجلود وفرو الثعالب، ولحم الخراف؟ كان سلاطين (أنسابة) يحكموننا بالفعل، لكنهم لم يكونوا أبداً أكثر من سلاطين نسمع عنهم ولا نراهم).

ويسأل إزعاج الصغار الذي لا يهدأ:

وهل عاشت أمي أيضاً في أم حراب؟

نعم.. وكانت وردة.. وردة لم تتفتح، ولكن للأسف تفتحت في غير مكانها.

تلك الأيام كون التنجري الصغير فلسفته عن قرية (أم حراب).. اعتبرها الجنة التي خرج منها (نظر حبايب) مندحرا.. لا ليحمل رسالة، أو يبدأ منه تكوين الخليقة كما تعلم عن (آدم) في مدرسة المهاجر.. ولكن ليعيش هكذا متذكراً.. وكابوسياً إلى نهاية العمر.. خروج (آدم) كانت فيه حكمة كبيرة.. ولكن لماذا خرجت؟..

وكانت الرزينة حين تسأل والدها عن قرية (أم حراب)، تسأله بتعثر اللسان البناتي حين يسأل أباً، لا يتردد.. يقول.. قد تعودين إليها ذات يوم.. ستعودين يا رزينة.

طريق العودة إلى الريف لم يكن بالطريق السهل، وقرار طرقه ليس قرار الطرق على باب جارك، أو نافذة جارتك، وليس بالقرار الذي

يتخذه الهذيان، أو ترمي به لحظة فقدان الذاكرة.وقد سألت الرزينة حاستها مراراً..

هل سأنام جائعة إذا عدت؟

ألن أحصل على قطعة صغيرة للأرض أزرعها شعيراً وقمحاً، وحميضاً؟

هل إذا تزوجت جبروتي ولد الحُور، سننام أنا وهو وبطوننا فارغة؟

ترتوي من الحاسة التي كانت تخبرها، وتجرها إلى اتخاذ قرار الرحيل.. طبعا لن تنس اخضرار الطفولة في (جوا جوا)، وضفائر البلوغ التي تضفرت فيها، وحي الرديم الذي آواها، وصيَّرها مهرجاناً خالياً من نمش الوجه، ولم يكن ذنبه أن نبت النمش في الوجه والروح بعد ذلك.. لن تنس أنها نبتت على وحله، لعبت ألعاب ثورتها وهدوئها كلها هنا، وما كانت وفاة صانع الطبول وحدها كافية للرحيل.. لكن النصل كان أكثر طعناً.

حين ولدت قالوا إن (أم الرديم) باركتها.. يأتون بالمرأة العجوز لمباركة الإناث في الحي، يريدونهن طاهرات كما كانت، ويريدونهن أمهات دافئات.. كما صارت، أمسكتها أم الرديم من وسطها، تفلت على وجهها.. قالت.. مباركة.. مباركة بإذن الله. وقد صارت كذلك.. لكن آدم صاح..

أرروك.. أرروك.

تتذكر الجد (سند) ذلك الذي جاء معزياً في وفاة أبيها، وخاطباً مفترضاً لأمها الأرملة التي كانت بحاجة إلى ظهر.. سمعت عن ذلك من أخيها، ومن النساء اللائي كذبن بالدموع، ورحلن.. من المفترض أن يأخذكم.. يربيكم في أم حراب.. يتخذكم أبناء.لكن ذلك لم يتم.. قالوا غضب من طعام كان ناقص الملح، غضب من سؤال مستهتر عن عمره،

وقالـوا كان منهكاً، وبلا مـروءة لإحياء عرس جديد.تـرى لو أكمل الجد مشروع نزوته وانزاحوا عن (جوا جوا) في تلك الأيام، هل كان سيحدث لآدم ما حدث.

سيحدث.. سيحدث.. النصيب.. النصيب.

القافلة المحملة بالتعب، الحداة المدربون على نحر وحل الخريف، ورجال الســمر، ذوو الأصوات التي كانت كأنها أصوات جن.كانت أمها مريضة وحيرت حكمـاء عديدين وفدوا لمعاينة علتهـا، وكانت تواقيعهم متفقة.. هي تشـكو من مرض (موت الأمومة) المـرض النادر الحدوث، والصعب الشـفاء، هي أمك حيناً وأم لا أحد في أغلب الأحيان.. أم ولد ضائع.. وأم لا ولد..

وتلك الغيبوبة.. فقدان الذاكرة أيها الحكماء؟

من أعراض المرض.. من أعراضه الشائعة.

وبلسـعة الأكاسـير المـرة، ولبخات اسـتعادة الـروح التـي أجادت الزينـة عجنها، كانت الأم تصحو، وبأكاسـير أخرى، ولبخـات مختلفة التراكيـب، كانـت تنام.فـي القافلة كانت متماسـكة، وفي بعـض الأحيان كانـت تضحـك.. تشـارك أصـوات السـمر غناءهـا لمواويـل (أنسـابة) القديمة..

طلع لي فوق.. نزل لي تحت.

ولد كبوي بنقلبه قرد.

مشى بهنا.. مشى بهناك.

ولد كبوي بنقلبه حمار.

دخل غابة.. مشى في بر

ولد كبوي بنقلبه شجر

قعد في البيت.. مشى للسوق

ولد كبوي بنقلبه عتود.

ينزلـون على ظل متعـرج، وعلى غديـر، يرتفعون للرحيـل، ينزلون علـى ليل مظلـم، يشـرقون للرحيل.يتفاعلون مـع الرعاة.. مـع القطعان، ونايـات قهر العزلـة.. يمضون، هذه تخـوم أرض (التنجـر).. هذه هي.. دلتهـم رائحة الخريف التي هـي أقوى، ودهانات الوجـوه التي هي داكنة ودافئة، ومشابهة لدهانات وجوههم، ووجوه وفد العزاء القديم.هذا صانع الطبول (نظر حبايب)، هو بعينه، ولكنه آخر هذه الرزينة، لكنها أخرى، مهرجاناً آخر، هذه الأم نفسـها، ولكنها أخرى، وهذه (أم الرديم) سبحان اللـه.. أم الرديم الكبيـرة المتعكزة، الواسـعة صدر الأمومـة وفي قرية أم حراب. وهذا غدير الماء المعكر الذي ورد في سيرة (أم حراب).

دخلوا في معمعة اللقاء التي كانت سـخية ومحكمة، الريف الفاتح الذراعيـن أبـداً للضم، تهجرونـه، وتغيبـون، وتعودون فـي النهاية، الأب الذي ينتظر، الجدة التي مـا فرغت حكاياتها قبل النوم، الأم جالبة اللبن، والمـاء والعصائد، معمعة اللقـاء عند الرزينة، ما قللهـا الخريف الرطب، ما دربكتها حشـرات (أم دبابيك) تلعق وجوه ساكني المدن، ما خفضتها صرخات طيور (أبو السـعن)، الكركي المهاجرة والمستقرة، تلقط الحب دون خوف من شرك أو فخ صيد:

كيف حالك يا رزينة؟

كيف أخبارك؟

الذين قدمت منهم.. كيف أحوالهم؟

وأخوك..

يلحسـون الجرح وما يزال في العمق لم يجف، يفضون عن وجهه قشـرة البرء الكاذبة التي هي مجرد قشرة. نقاب دسـه غير المتقن، من ذا الذي لا يعرف ما حدث ل(آدم نظر)؟ من ذا الذي لا يعرف.

وضع النقاط على الحـروف التي هي أصلاً منقطة منذ زمن.. صبغ

الجـدار الـذي كان مصبوغـاً ولامعـاً.. من ذا الـذي لا يعـرف ما حدث لأخي؟

حسـنا.. أخـي صـاح فـي مجلـس السـلطان الرشـيد يريـد الأبـوة الشـيخة.. تعطلت بسـببه الجمعـة الظليلـة، أمهلوه شـهرا فقـط، واقتاده الرعاع بقيادة الأمير مسـاعدكبذيء وبحاجة إلى تقويم لسـانه، أخي حور إلـى حمار فقير.. إلى فرس ذات قرة سـوداء يتبختر بها الأمير (مسـاعد) فـي الغدو والـرواح، ومواكـب الهدير، وحتى فـي الأحيـاء التافهة حيث الفقـراء، والسـحرة.هو الآن ضـد وضده.. خصـي ومقهور، وخـادم عند مسـك النسـاء سـلطانتي وسـلطانتكم.. شـعره مضفر.. عينـاه كحليتان.. وحوضه متسع.. ويمشي مكسرا.. هل من شيء آخر؟

كيف حوّر؟

الرجـال الوقـورون، العاديـون، وناقضـو وضـوء العهـد.. النسـاء الكبيـرات والصغيـرات، والعرائـس اللائي ربمـا تمنينه رجُـلاً في أحلام يقظـة عنيفة.والرزينـة لا تعـرف، وأمهـا لا تعـرف، وتحوير الفقـراء إلى خصيان مهمة جليلة، ويجيدها أجـلاء يعدون على أصابع اليد، لا يعرف إلا مـن حور، أو شـارك في مهمة تحويـر.و (نجّام) حـور ويعرف، لكن عاهته بقيت عاهة السر، ولم تعرف أبداً شكلها أو لونها أو طبيعة الإفراز فـي غددهـا.. الهرمونات.. الهرمونـات.. لا يعرف أحد فـي الريف ضدّاً هرمونيّـاً، والذيـن كانوا فيما مضـى، أيام بؤس السـلطنة وقبـل أن يلمها (يوسـف ضـو)، كانوا غرباء جاءوا عبيـداً أو توابع فـي قوافل، أم حراب بريئة من الهرمونات.. الريف كله بريء من الهرمونات.

كان جبروتـي بالطبـع في مقدمـة من كانوا فـي معمعة اللقـاء، ولد الحُور نفسـه، هيكله النحيل، قميصه الرمادي المخطط، سرواله الأبيض، وعمامة أبناء العاصمة غالية الثمن.وعطر شـديد الخفقـان، ينز من جلده غير المصبوغ.ولد الحُور يسـلم باليد النافرة العروق، ينحني ليقبل أرض

الريف التي جاءت لتطأها سلطانة الفقيرات:

كيف حالك يا رزينة؟

أخبارك يا رزينة؟

حي الرديم ما أخباره؟

نجَّام هل ما يزال هناك؟

وصديقي.. أخوك؟

رسائله إلى مستنقع الرعاع كانت فجة ومتواصلة، والرعاع طيبو القلب يحرجون ويعودون، ويحملون وزر قلبه.حضر صياحاتها المسكينة، وانكسارها المسكين، وتوهانها، وتبع حمارها تتبع الصقر، ويعرف النهاية المؤسفة للدراما المتشابكة التي كان طرفاً فيها.. طرفاً لا يهمه من الأمر سوى رعشة الحب.. جبروتي يسأل عن (آدم نظر).. ويعرف أين (آدم نظر)، ولابد أرهقه بالرسائل التي يصف فيها جوع القلب.ما أتعس كل شيء. نظراته إلى وجهها لم تصغر أبداً، لم يصغِّرها السفر، ولا هجرها المعمد، ولا إقصاؤه الكبير الذي مارسته في بيت (نجَّام)، هي نفسها الشقية الملتفة التي تحصي عناقيد الخرز في شعرها، وتراقب الثقوب في فساتين الدانتيلا الفقيرة، تحس الآن أنه قدرها، تحس بألا فكاك من جبروته، وحبه الأعمى والأصم، وتقسم وهي تتأمله محاولة تأمل اللاعيوب فيه، أنها ستتزوجه على الفور، لو نطق كلمة أخرى.. قدري يا ولد الحُور.. نصيبي.. نصيبك في الأسرة المشرذمة، خذ نصيبك.. خذه.

الجد (سند) العجوز كان أيضاً في حمى استقبال أسرة المهاجر العائدة أخيراً إلى منابعها، وبرغم أنه الكبير والموقر، والغاضب من ملح الطعام، والسؤال عن العمر، والذي بلا مروءة خلاقة لبناء حياة جديدة، إلا أن شغفاً في تأمله للأرملة، أعادها مجدداً إلى الوجل بعد الثبات المتقن الذي ثبته أثناء الرحلة الطويلة، يريدون تزويجها لهذا؟ أرملة

وعليلـة، وأم لضد وفتاة تائهة، وليس في وجههـا تقريباً أي معنى أنثوي، ولكن ليس الجد سـند، ليس الذي على حافة القبر من يسند الظهر، ليس الظهر الذي هو لا ظهر. وكان ابنه حسيب أيضاً موجوداً، الولد الصامت، صاحب الخـرزة الخضراء، والعبد الـذي يتبع صمته، حسـيب يحيي في صمت، ينحني في صمت، ويسـوق النظر بين والده وعروسه المفترضة، ويكاد يبتسم، لكن العبد يزجر ابتسامته.

أخذوهمـا إلى البيت الـذي كان للعائلة فيما مضـى، وظل مهجوراً ومغلقاً، وشائعات بلا حصر عن سـكنى بعض أسر الجن داخله.كان في الواقع بيتاً مرتباً، من طين متماسك كبيوت الريف المرفهة، فيه مساحات شاسـعة لإراحة البدن، مساحات للبكاء والحزن، ومساحات لتقبل العزاء لو كان ثمة عزاء.وكانت ملحقة به زريبة واسـعة لابد كانت تضم في يوم ما، قطعانا غزيرة من الماشية.

كان جبروتي ملتصقـاً طوال تلك الفترة، الجد متعكزاً طوال الفترة، وحسـيب الصامـت يحـاول أن يبتسـم والعبد يزجـر ابتسـامته.وكان ثمة أجنبي بثوب أسـود وعمامة سـوداء، وحذاء أسود، ومسـبحة طويلة ذات أضواء، سـلم علـى المرأتين، وطاف بالبيـت عـدة دورات وكان يتمتم.. فـي الأرض المحبـة.. فـي الأرض المحبة.قـال جبروتي.. إنه الشـماس (عبود).. صديقي.. ويطهر البيت من الشر حتى تسكنا آمنتين.

تتضفر إلفة الغرابة بشـدة، يخترع الصباح زواراً، وسائلين، وحاملي لغة فضولية وأطفالاً أشـقياء، يخترع المساء شـهوته في البن، في الثرثرة، في عرض التفاهات.. عـن ولادة الماعز، احتضار قط، وختان لصبي في عشـة ما. يخترع الليل وصفتـه.. الظلام.. الخوف.. الصـراع.. وجبروتي ملتصق، والجد متعكـز، والرزينة تنتظر أن ينطق ولد الحُور بتلك الجملة التي تنتظرها..

– أريد الزواج منك.

كم قدحاً من بن الصباح والضحى شربت؟
كم طبقاً من عصائد الدخن والحميض أكلت؟
كم كوباً من مرطبات (الهجليج) شربت؟..

كم مرة طرقت الباب؟ كم مرة فتحنا.. كم مرة دخلت.. كم مرة تجولت بعينيك في وجهي في قميصي في مسامات جلدي.. كم مرة.. انطقها.. انطقها..

تقاوم التوهان.. تسير في وحل (أم حراب) حين تجف وطأة المطر، ويبدو في التربة تماسك يتقبل قدميها الرقيقتين، تهش الدجاج.. تهش القطط، الكلاب التي تسعى إلى الإلفة، تصادق الفتيات الصغيرات، واللائي في سنها، ترى الأمهات يهمسن، يتبسمن، يكشرن، ترى الرجال يتوقفون عن انهماك أو ثرثرة ويلعقونها، ترى الرديم الذي فارقته، موجوداً، ومتوفرا. بائعو حلوى (الدرادم) اللزجة، بائعو حمص محروق، أكواخ بيع الأسرة، أزيار الفخار، ترى ألوان قوس قزح.وولد الحُور ظل المستكشفة، دليلها في اختراق المجهول، ولكن أي مجهول في تلك المساحة المحددة؟ وصرخة الملدوغ تسمع كاملة، وآلام المخاض تعرف كلها، وسكرات الموت لا تخفى على أحد.وفي وصفه للريف كان صانع الطبول يقول..

(هو البيت المفتوح.. الذي يسكنه الجميع، ولكن كل في غرفة غيره).

تلمح برقات قول تتكون على طرف لسان ولد الحُور، لكنها لا تنمو إلى شرانق.. لا تنتهي قولا كاملاً.. تقترب الرزينة بلسانها.. تسأله:

- هل من شيء تود قوله يا جبروتي؟
نعم هناك الكثير.

يخفق قلبها بشدة.لابد أن الكثير الذي يعنيه، هو القليل الذي تريده.. فقط تلك الجملة وينتهي الأمر.. تقبل بلا شروط.

قل إذن..

قل إذن.. وتتوقع الآن أن يكون جبروتي هو الخاطب الجديد للرقة الجديدة في الريف الجديد.. أريد الزواج منك كما قلت سابقاً.

يشير إلى بيت منعزل ومتهالك، وغارق في الوحل.. في هذا البيت ولـدت، وولد إخوانـي كلهم لكننـا هجرناه مؤخـرا وبنينا واحـداً جديداً سيعجبك.

هل هي حصـة للتذكـر؟، حصة لسـرد تاريـخ عائلي قـد يهمها أن تعرفه؟ ثم تأتي الخطوة الأخيرة؟ قلها.. قلها أرجوك.. تستغرب كيف انطفأ فانوس الغطرسة القديم، واتقد مكانه فانوس أخرق، وكيف تقلصت قناعـات الدنيا كلها في قناعـة، هي في الواقع غيـر مجزية.تحثه بالعيون، بالنظرات، باهتمامها المفتعل ببيت إرثه، بسؤالها عن عدد أخوته.. عن أعمارهم، بألوانه المفضلة، باللغو.

هل هناك شيء آخر؟

نعم.. أمي تريد رؤيتك.

تسـير فـي الوحـل.. فـي الطيـن الـذي كان الآن يابسـاً ويتكسـر، الأشـجار تبـدو غارقة في البلل، عشـش الصفيـح، روائـح الزبالة، روث الأغنـام، روث الناس، روث الحيـاة كلها.في الرديـم كان ثمة منفذ على حياة.. على ضجـة.. على عاصمة، وهنـا لا منفذ.. لا منفـذ أبداً.يتبعها، وحاجتها إلى إفهامـه اللغة تتصاعد، وأمه التي لم تأت كي تسـتقبل، ولا جـاءت في الصباح، ولا المسـاء، ولا أي صباح أو مسـاء منذ نزلوا على الريف، تريد الآن أن تراها.في عرف التنجر، وعرف أهل (أنسابة) كلهم، تـرى الأم الفتاة كي تخطـب، وتخطب كي تزوج، ولابـد أن أمه تنجرية، وأمه أنسابية، وتود رؤيتها بصدق، ولكن لماذا لم تأت؟

لماذا لم تزرنا أمك يا جبروتي؟

- أمي مريضة. مريضة جداً.

- وما هو مرضها؟

- وهن العظام.

في هذه الحالة تتنازل الرقة عن موقف الضيف، تذهب حتى عندها، تقبلها في الرأس، تطبخ لها، وقد تعجن لها اللبخات، تجرعها الأكاسير.. تساعدها في النوم.. في اليقظة وقد تقيم عندها بالكامل.. يسيران.. يلمحان هيكلا ينكفئ على الأرض، يغرس شتلة، هذا (سعدان) المزارع، ولد الحُور الآخر في (أم حراب).. أليس يشبهني كثيراً؟..

يضحك.. أسنانه ليست أسنان حور، ولكن في اللثة قصدير، وفي صوت الحبال الضاحكة رنين معدن.لا تتذوق الضحكة، تحاول أن تتذوق.. لا تستطيع التذوق.. لو تزوجته فلن تُضحكه أبداً.. لن تَبكيه أبداً.. لن تترك له انفعالاً ينفعل به.. الزوجة المتعادلة للزوج المتقن العيوب، ومرة أخرى إلى نفس الجرح يفتحه:

- هل هناك أمل في عودة أخيك؟

طبعاً لا أمل، فالذي يتحور لا يعود، والذي عند مسك النساء يظل عند مسك النساء، تماماً كالذي يموت، وآدم مات.. مات في عرف العائلة.. لكن نجّام تحور.. وكان عند مسك النساء.. وعاد، ولكن لمن عاد؟ فجأة يتوقف أمام كوخ صغير معروش بالخشب أمطره الخريف بشدة لكن لم يمته:

هذا متجري.. هنا أبيع العطور.

متجرك، وتبيع العطور؟.. إذن لن أجوع.. لن تقرقر بطني، فما دام متجراً، فهو مورد، وما دام مورداً فلابد من رزق.. يفتحه بمفتاح صدئ أخرجه من جيبه، يشير إلى الأرفف المكدسة بالعطور ومزيلات العرق والتي تبدو نظيفة بلا غبار.. عطر الهذيان.. عطر طراوة القلب.. عطر الخريف.. عطر الشذى.. عطر النضارة.. يخفق قلبها بشدة، عطرها ومن أجلها، لكن جبروتي لا يخطو إلى العطر، لا يفتحه، لا يقدمه لها،

يتراجع إلى الوراء، يغلق متجره ويشدها للرحيل.ويقفز الخاطر الكسيح إلى قلبها فجأة.. هل ينتقم جبروتي؟ هل يضعها في مهلة تفكير قاسية كما وضعته من قبل؟ وبعد أن سقطت من غرور السلطانات وجاءت إلى الريف عادية، ومهلهلة، وتصطحب أما مريضة؟ يتعقبها.. يلاحقها.. يمنعها التنفس الحر، يلحس وجهها، يمد النظر تحت الجلد، ويستعرض الآن عطرها النضر دون أن يخطو الخطوة المفترضة.أسرعت في الخب، تجاوزته بمئات الأمتار، وتسمع دقات وحله من خلفها.. دخلت البيت ودخل، جلست وجلس، ووُضعت أقداح الطعام، ومد يده.وجيء بالشاي وشرب وتهيأوا للقيلولة، وتهيأ. لن تذهب إلى أمه.. لن تذهب أبداً.

الجد (سند) من جانبه كان أكثر فطنة. توقف عن التعكز في بيت العائلة منذ الأيام الأولى، وجاء من عنده رسول يحمل أجولة القمح والدخن والحميض، وصفائح الزيت، وعدة قناني من السمن، قال يقرئكم الجد السلام، ويرسل هذه الهدايا.. وسيشرفكم غداً.

في تلك الليلة لم تنم أرملة صانع الطبول أبداً، فاجأها أرق مملٌ، ولم تكن تعرف بالضبط من أي جانب في الجسد تلسع الآلام، وفي أي صدغ من الصدغين توجد هذه الحكة اللعينة، وتلك الظلال المتحركة قرب النافذة.. هل هي خيالات أم حقائق؟ وحين أصبح الصباح.. قالت للرزينة:

أنا قبلت بالجد سند.. ماذا عنك؟ هل تعترضين على زواجي؟قولي إذا كنت تعترضين.

- لا لا أبداً.

ابتسمت الرزينة بصدق، وكانت أول ابتسامة مشرقة لها منذ أن قدمت إلى ريف المنابع في أم حراب.

جاء الجد كما وعد. كان من الأعمدة فعلا لأن رجالاً بلا حصر جاءوا في ظله، وحتى ملك المنطقة جاء، وكانت ثمة نساء مزغردات

قدمن بالحلوق المنتفخة ليملأن البيت ضجة.. كان عرسا متعجلاً في كل شيء.. بلا زينة من فوانيس ملونة.. ولا طقوس مألوفة، ولا مغنين، ولا راقصين، ولا قدرة لأرملة صانع الطبول على تقبل المباركة.. الآن زوجة للجد سند.. الرابعة عشرة في سلسلة زوجات متن أو انهزمن أو تكسرت أجنحتهن، كانت الرزينة تساعد أمها على الفرح.. تجرعها الأكاسير المحركة للضحك.. وتسعى بيدها إلى يد الجد المرتعشة، أو بيد الجد إلى يدها المرتعشة.. انسي.. أفرحي.. تماسكي.. وكان ولد الحُور موجوداً أيضاً.. نفس الالتصاق.. الضحك، خدمة الضيوف.. وتجهيز مخدع الزوجية الجديد بفرشه بحصير بنفسجي من السعف.. وقد حاولت الرزينة وبعد انتهاء العرس المتعجل أن تفهمه اللغة من بعيد، ليس بالعيون أو النظرات أو الابتسام لحواره الجاف والهزيل، ولكن من بعيد..

هل تحب الأطفال يا جبروتي؟

نعم أحبهم كثيراً.

وهل تتمنى أن تلدهم أنت؟

نعم أتمنى.. أولئك اللائي تربين في القصر أو وردن أأو

وتربيهم؟

نعم.

حسنا يحب الأطفال، يحب أن يلدهم، ويحب أن يربيهم، ولكن لا خطوة أخرى.. تتمنى أن تضاعف السؤال.. من أين ستلدهم؟ لكن لسانها لا يقدر.. قلبها لا يقدر.. وبقية التسلطن الفقير في سلوكها لا يقدر.. تفارقه لتلتقيه.. وتلتقيه لتفارقه، ولا جاء بعطر النضارة أبداً، ولم تأت أمه.. تحس الرزينة بعار هجرتها.. بعيداً عن المنابع كانت أحلى، ومتقدة، وحركت في ولد الحُور لهفة غير اعتيادية.. وفي المتابع.. قربه.. قرب التصاقه ولا تحرك عضلة واحدة من قصديره الصلد.. تبكي.. تمزق

الثياب، تشد شعر الحرير تطالع تنفسها.. تبحث عن الخلاص.

تلك الليلة وفي حلم لم تسع أبداً إليه، زارها والدها صانع الطبول العظيم.. كان أخضر في الجبة والعمامة واللثام، يركب على حصان أخضر بلجام أخضر، ويسير وسط بساتين خضراء بلا نهاية.. ابتسم لها في مودة، ليست مودته القديمة التي تعرفها، ولكن مودة خضراء نبعت من أسنان خضراء أيضاً.. شدها من يدها الرقيقة، أركبها خلفه في الحصان وانطلق بها.. كانت تغني.. تضحك.. تطيش بضفائر شعرها يسارا ويمينا، وتمد يدها في الهواء، تقتنص عصفوراً أخضر.

ذلك اليوم الذي سكن فيه الخريف تماماً.. رحلت حشرات (أم دبابيك)، وضجة طيور (أبو السعن)، الكركي المهاجرة بحثا عن خريف آخر.. و(جوا جوا) العاصمة تركد في الوحل الذي تبقى، والذباب الذي تبقى، والمشاعر التي ربما فرحت أو حزنت، وصلت إلى قصر (المسك) رسالة تافهة، وبذيئة المشاعر كانت قادمة من (أم حراب) البعيدة، ومرسلة إلى دمدوم.. خادم صاحبة العز ولم تصل أبداً.. لأن الرسائل لا تدخل قصر المسك، والمشاعر السخيفة وغير السخيفة، تموت عند باب المهوقني العريض.. والخدم لا يرسلون ولا يتراسلون، ودمدوم نفسه في (فوق) يهدد بإسقاطه.. وسيسقط.. سيسقط حتماً:

(خالص العزاء والمواساة أقدمها لكم في أختكم الرزينة يا صديق.. صدقني لم أكن مسؤولا عن موتها المفاجئ، ومنذ رأيتها لأول مرة عرفت في وجهها.. وجه الموت.. كانت طموحة، وسلسة، ورقيقة، وتعاطفت معها كثيراً.. كل حبي لها كان تعاطفاً.. التصاقي بها كان تعاطفاً.. وحتى العطور النضرة التي صنعتها من أجلها، كانت تعاطفاً. قد تسألني.. لماذا تقدمت للزواج منها إذن؟ فأقول تعاطفاً مني.. وتسألني هل هكذا يكون التعاطف؟.. وتلك الرسائل التي كنت أصر على حبها فيها.. هي أيضاً تعاطف؟.. أقول نعم.. لأنني ولد للحور حر العاطفة..

طليق العاطفة.. متأجج.. ليست لي صبغة الآخرين التي تقيدهم إلى حياة لا يريدونهـا.. أنا عاطفي.. عاطفي يا (آدم نظر).. وصدقني لو رأيتك في هيئتك الجديدة بعد أن تحورت.. لن تجد من يتعاطف معك مثلي.. لقد أقمنـا للرزينة عزاء يليـق.. دفناها فـي الوقت بين الظهـر والعصر، صلينا ودعينا، وكان إمامنا صهرك الجد (سـند).. وكأنك كنت موجوداً.. لأنني قمت بمقامك.

سـأزور الرزينة باسـتمرار.. أدعو لها بالمغفرة، وقد أزورك يوماً إذا جئت إلى (جوا جوا).

-16-

القافلـة التي حطت برحالها في (جوا جـوا) في إحدى الصباحات، وفي يوم أغر من أيام (ذي الحجة)، لم تكن قافلة حج عائدة، ولا واحدة من تلك القوافل الكبيرة التي تتحرك وتسـكن بدم التجـارة الممدود بين السـلطنة والبـلاد الأخرى.كانـت قافلة غريبة الشـكل، وغريبـة التكوين، أوفدهـا مجلـس (الكاثوليـك) الأوربـي المعني بشـؤون الـدول الفقيرة، وذلـك لتحـري التوافـه المزرية التـي وردت فـي لوحة (ضائعـون) التي خططهـا الإيطالـي (جيوفانـي) كلوحة فنيـة غير مقصـودة في حـد ذاتها وتبعـت بالصدفـة البحتة تلـك اللوحات الغزيـرة التي خططها للسـلطانة (مسـك النسـاء) في أوضاعها المتعددة.وكانت معلَّقة فـي واحد من أهم المعـارض في (فينيـس) مذيلـة بالتوقيع الكبيـر، وتاريخ دعك الفرشـاة، وأسماء من شغلوها كحقيقة ناضجة ومُرَّة، وليست تخاريف رسام.

ثلاثة مضفرون ومكحلون ومكسّـرو المشيات، وواسعو الأحواض من أفريقيا السوداء.. اثنان من سلطنة (أنسابة)، واحد من جزيرة العرب، وآخر من أعمق بـلاد (فارس) إضافة إلى عدة جـواري من الزنج عليهن وشـم العذاب.كانـت اللوحـة معلَّقة في واجهـة المعرض العريـق، غزير الـزوار، وشـدت زحاماً مبرراً مـن المئات الذيـن ما صدَّقـوا ضياعاً بهذا الشـكل أبداً.. كان (دمدوم)، (قلوب) هما ضائعا (أنسـابة) المرسـومان، والملفتان بشدة للنظر، واللذان جاءا بذلك الوفد إلى البلاد برغم مخاطر السـفر كلها.. البحر.. صحاري التيه والعطش، وظهور الجمال الخشنة.. كان مـن عـادة (جيوفانـي) أن يتنقـل بين السـلاطين في قصور المسـك والياقوت والزبرجد، يحتسـي بن الضيافة، يأكل.. يشـرب، يرسم البذخ،

وفي لحظات ملل مباغتة، كان يرسم مثل هذا الضياع.

(سيصلكم نصيبكم من الضجة)..

هكذا قال، ويبدو أن النصيب قد وصل بالفعل.

كان السلطان مبهوتاً، ومستغرباً، حين أعلمته العيون المبثوثة في الوحل، في السوق، في الميادين، في المجاري.. العيون التي أصلها من الرعاع، ولكن توظف كعيون فقط.أعلموه بأمر القافلة التي كانت قد بركت في التو في ميدان مهبط القوافل، ولم تفرغ من إبلها المتاع.. قالوا.. الثياب كلها سوداء، المناديل سوداء، اللحى جهمة وعدائية السلوك، الأحذية فيها غبار كثيف، وبعض المزع، والوفد في مجمله أربعة رهبان، وراهبة واحدة.ويحملون أسماء غريبة.

(لن يطلبوا موعدا للقاء جلالتكم، مولانا الرشيد.. لأنهم دوليون، ومبعوثون ولهم حصاناتهم التي تحميهم، قد يسألون العامة في الشوارع، وقد يدخلون الأحياء الفقيرة، وقد ينصبون خيمة في السوق، تعج بالزفارة، وقد يتوجهون مباشرة إلى قصر المسك للقاء الضائعين اللذين رسما في لوحة الإيطالي).

تلقى الرشيد تلك المعضلة، وخرج من مشاغل حكمه مرتبكاً:

يا مساعد..

يا (يوسف كرا)..

يا لاليا البرناوي.. يا كردمان الترزي.. يا حكيم دوباجي.يا عمي أحمد برم..

وفي زلة اللسان التي تأتي دائماً حين لابد أن تأتي زلة لسان:

يا شيخ عبد الرب.. يا شيخ عبد الرب.

حقا هو السلطان في سلطنة من تأسيس أجداده، يقرب من يشاء، يبعد من يشاء، يخصي من يشاء، ويسمح بالضياع لمن يشاء، ولا يستطيع

أي مجلس كاثوليكي أو انكشاري أو أعرج أو ابن كلب، أن يتدخل في شئون حكمه، لكن الغرب ذو سطوة، وذو نفوذ استعماري، ويملك القلب الذي يضخ التجارة لتصل (أنسابة)، والماكينات التي تصك العملة، والبارود الذي لو سخر ضده، فلن يكون لسلطنته كلها وجود. وكانت ثمة مساعدات تصل دائماً، ومواثيق متبادلة بينه وبين زعماء تلك الدول، كلها خطوط حمراء، وقرصات في الأذن، وتكشيرات حقيقية..

حافظوا على الحقوق المدنية.. لا لتجويع الناس، لا لانتهاك الأعراض.. حرية الكلمة، حرية ممارسة الشعائر.. دور العبادة.. لا إكراه في شيء.ولا لسد الحنك المبالغ في أمره. وفي آخر اجتماع جرى في إحدى الدول المجاورة، ولم يحضره الرشيد، وأوفد إليه الأب الشيخ (يوسف كرا)، كانت ثمة قرصة حادة في أذن الأب الشيخ، حملها وعاد راجعا بها إلى (جوا جوا):

مولاي.. قد وضعوا (أنسابة) على رأس قائمة الدول الأشد قهرا للإنسان وقد يخفضون من مساعداتهم لنا.

لم ينتبه الرشيد كثيراً لتلك القرصة الحادة، وكان مشغولاً بقرص الأذن المحلي الذي هو أشبه بطنين بعوضة لا ينقطع.. تحرشات في الحدود تهدأ وتتهيج، تذمرات في الجبال من حين لآخر، سحرة وفاسقون يحاولون البلبلة. الأمن.. الأمن.. لم نمدد لمساعد الحبل إلا حرصا على أمن (أنسابة).

وكان أكثر ما يحيره هو ذلك الاهتمام المبالغ فيه في شأن فقراء إن لم يمتهم الظلم، فسيميتهم الفقر، وإن لم يخصهم الرعاع، فسيخصيهم الزمن..

(خصياننا ذهبوا إلى مكة.. حملوا كساء الكعبة الشريفة، هللوا وكبروا، وطافوا وسعوا، وعادوا عوداً حميداً، ولم يسألنا أحد.. بل كان الخصيان وما يزالون يأتوننا من الحجاز في قوافل ضخمة، ونشتريهم..

ولا يسأل أحد.ما دخل الخواجات في الأمر؟ نحن لا نزوجهم ولا نتزوج نساءهم، وما منعناهم من دخول أرضنا إلا نادراً وحين يثبت عليهم الفسق.نعم.. هناك رهبان يطوفون بالقرى، وشمامسة يباركون البسطاء ويدفنون موتاهم، ونغض الطرف، ولولا أن البرناوي الذي نثق في فتواه، أفتى في شأن أولئك الطبيبات، ما كنا سألناهن حتى اليوم).

- لوحة ضائعون التي رسمها الإيطالي هي السبب يا مولاي، وأولئك الخصيان ما كان يجب أن يظهرا فيها على الإطلاق.

(هي مصيبة من مصائب (مسك النساء) التي لا تنقطع.أرملة بائع الحلوى التي ما تركت لنا جنباً مريحاً نتقلب عليه. مساعد المسكين كان ينفذ الأمر، يؤدي واجبه، ومسك النساء تنفذ الشر.. اثنان مزعجان.. ولكن إزعاجهما يختلف. واحد يحمي والآخر يفضح).

أفتوني.. أفتوني يا كبار السلطنة.

كان المجلس السلطاني الذي عقد على عجل، والذي كان أشبه بمجالس الحرب في نسقه، وتكوينه وتجهم وجوهه، وفور السماع بأنباء القافلة التي حطت، قد ضم الكبار أنفسهم.. (يوسف كرا) المثقل بالهرمونات، لاليا البرناوي الذي يفتي حين يستطيع أن يقدر العواقب، كردمان الترزي بلا وظيفة محددة، دوباجي بوظائف الأكاسير كلها، إكسير النشاط، إكسير ضيق النفس، إكسير توتر العضلات، العم أحمد برم الصامت، المهاجر (عباد عبد الرب) بعد غيبة طويلة، ورجل المهام الجليلة الذي يعنيه الأمر هذه المرة مباشرة:

ما رأيك أنت يا مساعد؟

-لم نخطئ في حق سلطنتنا يا مولاي، ولم نرسم لوحة (ضائعون) ونعلقها في ذلك المتحف السخيف، ولا حرضنا خصياننا على الجلوس للرسم. فتش عن الخطأ في مكان آخر يا مولاي.

نظرات الصقور المهووسة واثقة، وحلق الرميات صريح إلى أقصى

حد. فتش عن الخطأ.. ويعرف السلطان أين الخطأ، ولولا الجلوس للرسم، وتحت سمعه وإبصاره، لما جاء الكاثوليك وغيرهم ينبشون..

لاليا البرناوي؟

لا مشكلة يا مولاي.. نمنحهم ما أرادوا، وينتهي الأمر.

لكن هل يعرف البرناوي ماذا يريدون بالضبط؟ هل يعرف أحد آخر ماذا يريدون؟ نطعمهم، ونسقيهم، ونسكنهم في قصر واحة (جوا جوا) الفخم، والمعد للضيافة، نريهم الأحسن، نطعمهم الألذ والأطيب، نلقن الخصيان ماذا يقولون، والجواري ماذا يقلن، ولو تمكنا فسنضع أمام كل مواطن رعاعياً يرشقه بالعيون الحمراء حتى يصمت.. ثم ماذا بعد؟ هل سيصدقوننا ويكذبون لوحة المتعجرف ذلك.. (ضائعون)؟ يستغرب الرشيد.. يستغرب كيف سمح للوحة مثل تلك أن ترسم في بيته، وكيف سمح بحملها إلى خارج السلطنة وفي قافلة هو من دفع أجر مسيريها؟ تلك ليست من لوحات تزيين القصور ولا المتاحف ولكنها من لوحات الأقبية. تدفن في الأقبية.

الوزير كردمان؟

ما تقترحونه جلالتكم، أنا خادم في تفصيل أزيائكم.. أزياء الحرب والسلم، ولا أفهم كثيراً في هذه الأشياء.

والشيخ عباد عبد الرب؟

الآن يعود المهاجر شيخاً في عرف زنقة السلطان، والرجل الذي جلد من قبل في وسط جوا نتيجة صياح كاذب، وأزيح من ألقابه كلها، وأعيد بعد كل هذه الغيبة، لابد قد أعيد لثقة أن في لسانه مخرجاً ما من تلك الأزمة الدولية. لكن الشيخ لا يزهو، لا يكذب، لا يعطي إلا مخرجاً يبدو منطقياً ولكن غير مقبول، مرفوض تماماً:

تصفية الرعاع يا مولاي.. التخلص من وصمة العار تلك التي تلطخ جبين السلطنة، إعادة الناس إلى ذويهم، إيقاف الظلم وخصي الرجال،

والاعتذار عن كل ما سلف. عفا الله عما سلف.

رجل المهام الجليلة يزمجر، يتحرك بعينيه في قاعة المجلس بلا توقف، وذهن المهام قد انشغل فعلا، انشغل بالضيف الجديد الذي سيحل على مستنقع الرعاع فور الانتهاء من هذه المعضلة. هذه المرة لن يجلد في وسط العاصمة فقط.. ولكن سيكون الدابة العجوز التي تتعثر في الحصى والوحل.. الضد العجوز بالضفائر البيضاء والحوض اليابس والكحل المغموس في ماء النار.. سترى يا عباد.. سترى.. يرفع اليد ويخفضها، ويتململ في مقعد النار بلا توقف.

السلطان أيضاً يزمجر..

لا تقل مثل هذا الكلام يا شيخ عباد.. لا تقله.. أنت رجل علم وروحانيات ولن تعرف أبداً ما يتطلبه أمن الشعوب من مشاق.

كان الوقت قد ضاق جداً، وكان الوفد قد بدأ يتحرك من مهبط القوافل دون أن يطرح أي أسئلة.. اتفقوا على أن يعالج السلطان أمر الأسئلة التي ستطرح، بدهاء السلاطين وحكمتهم.. ويعالج الرعاع أمر الألسنة التي قد تزل بطرقهم المعروفة.. وأما عن الضائعين في لوحة الإيطالي (جيوفاني)، فقد قال دوباجي:

هما ليسا من هنا.. ليسا أنسابيين، وقد وفدا من بلاد أخرى.. دعنا نقول بلاد تمبكتو.. لهما سحنة الأفارقة الجافة ولسانهم المتعثر.وقد استقرا بإرادتهما.. هذا ما يجب أن يقال يا مولاي.

رفع اجتماع الأزمة بعد تلك النصيحة الكبيرة من رجل الأكاسير، الثعلب العجوز كما يسميه السلطان، وطابخ الوصفات الخبيثة كما يهمس الناس.. خرج السلطان متبوعا بالكبار، وبالظهوريين، ورجل المهام الجليلة الذي تخلى عن أحصنته المحورة، وتبعهم على ظهر حصان حقيقي. كان السلطان متعجلا للغاية، وبعد يومين يأتي يوم (النعمة) السنوي الذي يأكل فيه الناس كلهم على حساب السلطنة، ولابد

من إعداده جيّدا.كانت خيمة (الكاثوليك) منصوبة في سوق الفخاريات، سوق الاحتكاك، والرؤيا غير الغائمة، وحيث (جوا جوا) وضواحيها، وتناقضاتها لابد أن تكون متوفرة. كانوا يستجوبون بائعاً لحلوى(الدرادم) اللزجة حين دخل السلطان:

(أنا بائع عادي للحلوى.. ولست ضائعا، أحب مهنتي.. أحب وطني، وأفدي مولاي رغد بدمائي).

لم يكن مظهره يوحي بمظهر مفتدٍ أبداً إذا ما نودي للفداء.. هكذا دون الرهبان، ولم تكن سلته التي تحوى الرزق أكثر من سلة لمتسول. هكذا دونوا، ولم يكن النموذج الذي هو تحت خط الفقر مباشرة كما كان ينبغي.. ولكن تحت خط فقر آخر، غير اعتيادي وغير مسجل.. هكذا دونوا.. والتفتوا إلى آخر يريدون استجوابه.

حياهم السلطان بتحية المسلمين التي هي السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وردوا بردود الإفرنج الموغلين في النصرانية.. بارككم الله.. أعزكم الله.. طابت أيامكم.كانوا يتقنون اللغة، ويخرجونها من الحلوق نقية دون شوائب، ودون نتوءات قد تعيق الفهم.. وخمن السلطان أنهم تدربوا في بلاد العرب.. تباً للعرب.. يدربون الشوك ليأتي ناغزاً لأجسادهم؟

(جلالتكم لا تسيئوا الظن.. لم نأت سعياً وراء وسواس قهري، ولا نريد أن نفسد تبعيتكم لبلادنا العزيزة، ونعرف مقدار ما تكنونه لنا ولشعوبنا.. ونبادلكم نفس الشعور، وقد مررنا كلنا عبر شارع (رغد) المزدان بالزهور، والذي يشق روما من وسطها، وأطلق تخليداً لاسم جلالتكم. فقط نريد أن نفهم شيئاً واحداً.. هل تدرون بكل ما يجري داخل سلطنتكم؟

نعم ندري..

رددها الرشيد بتعجل، ودون أن يلهث إلى ما وراءها، واكتشف

وهو يرددها لنفسه بعد ذلك أنها قد تكون سنارة صيد ألقيت في مياه اضطرابه.. نعلم بكل ما يدور.. تعني أننا مسؤولون تماماً عن ذلك الضياع. لا نعلم بما يجري، تعني أننا غير جديرين بالحكم.. نعلم بعض الأشياء ونجهل البعض، تعني أننا نقترب من مرحلة أبينا (نفر المقدم) في أواخر حكمه، وقد ينقض علينا الأبناء بين لحظة وأخرى.. حسنا فلتكن.. نعلم بكل ما يدور، هذه أفضل من غيرها.

- وهل سعيتم لإصلاح الأمور؟
- بالطبع نسعى باستمرار، وقد حسَّنا الزراعة، وحفرنا الآبار لمياه الشرب، ونصنع الآن الحلوى، والمرطبات.
- لم نمخر عباب البحر ونركب الإبل في الصحراء لنسأل عن الزراعة المطرية، والآبار المسطحة، وصناعة الحلوى من السمن البلدي، ولكن نعني مجال حقوق الإنسان..

(عباب البحر) جملة أعجبت رجل المهام الجليلة بشدة، أدخلها في عقل الصقور المهووسة وأخرجها آلة لتكسير الأظافر.. آلة (عباب) لتكسير الأظافر.. أعجبت الترزي كردمان أيضاً، لماذا لا يكون ثمة ثوب اسمه (عباب) ويصلح لسهرات السلطان المتنرفزة، وفيما كان المهاجر عبد الرب مغتاظا، ويغلي دمه، كان الحكيم دوباجي قد ابتكر إكسير (العباب) الذي سيستخدم قطعاً في أغراض كثيرة.

حقوق الإنسان هي هدفنا.. نحن أكثر الدول اعتزافا بهذا الشأن.. ويمكنكم أن تلقوا نظرة في أي وقت.

ارتاح الوفد لكلمة (أي وقت) التي لم تكن متعجلة من لسان السلطان، ولكنها مدروسة بشدة، فالخصي (دمدوم) والخصي (قلوب) كانا في الواقع قد هبطا إلى تحت غير معروف في قبو مظلم في قصر بعيد، محفور لتلك الأغراض.. يتشاجران بحرية، يبكيان بحرية، يضيعان بحرية، ومستنقعات الرعاع كانت قد غسلت على عجل، وتحولت في

ساعات قليلة إلى معسكرات تأهيل لإعادة الآدمية لغرباء جاءوا إلى السلطنة فرارا من بطش هنا وهناك.. الدواب المحورة يعاد ترميمها، الخصيان الذين فقدوا الذكورة، ويرزحون تحت ثقل الهرمونات في بلاد أخرى، يعاملون كضيوف من الواجب إكرامهم، و(أي وقت) ليست جملة الفرار ولكنها جملة الإصرار التي رددها السلطان مراراً.. وأخذها وفد الكاثوليك على محمل الجد.. لا نريد مشاكل.. يقول السلطان لنفسه.. لا نريد أن تنقطع المساعدات.. ويوقف صك عملتنا، ولا نريد أن نشم رائحة البارود تلوث سماء (أنسابة)..

كان الوفد يبدو مقتنعا، ويدون كل شيء، وطافوا على السوق كله، والأحياء كلها، ولاحظوا أن الفقر في تلك السلطنة كان عادة وليس أمرا مكتسباً.. البيوت مبنية بعادة الفقر، الشوارع موحلة بعادة الفقر، الناس سعداء بعادة الفقر والحمير تحمل أثقالها بظهور الفقر، وحين تغلغلوا في مستنقعات الرعاع.. أعجبتهم حركات (الهيلاهوب) واللياقة، وتذوقوا الأكل الذي كان طاعماً وفيه نكهة (زنجبيل).. عثروا على الخصي (نجّام) الذي عاد مؤخرا إلى المستنقع، وقال أنا يماني من حضرموت وأحل ضيفا هنا، وعلى خصيان آخرين قالوا إنهم من نواحي (زنجبار) و(كتم)، وجاءوا إلى (أنسابة) التماسا للرحمة بعد أن تعذبوا كثيراً.لم يطلبوا الدخول إلى قصر المسك لأن فيه عورات والرهبنة ضد كشف العورات، والتقوا بالجدة (السحابة) في قصرها (روح الأصيل)، لأنها كانت قد بلغت السن الذي تذوب فيه العورة..

هل رأيتم؟ هل اقتنعتم؟ كانوا يدونون كل شيء.. واكتشف السلطان أنهم أحصوا عمائمه في تلك الفترة التي أمضوها، وأحصوا عدد الأزيار في السوق، والابتسامات في الوجوه، وورد في تقرير منفصل أطلعوا عليه السلطان منفرداً.. تحليل مضن عن رجل الأمن في السلطنة الأمير مساعد.. صدقنا جلالتكم.. لو كان هذا الرجل في أوروبا لامتلأ

جيبه بالمال.. ما رأينا من قبل رجل أمن له مواصفات شمبانزي..

كانـت بالطبع إهانة للرشـيد.. إهانـة لنطفته التي أصبحت مسـاعد، وإهانة لتربيته التي كبرت مسـاعد، ولاختياره الذي وضعه في طريق تتبع الإحساس.. لكن الرشيد مررها حتى تنقشع تلك السحابة. وكان السؤال الذي لابد أن يأتي قد أتى بالفعل:

- أين الشابان اللذان وردا في لوحة جيوفاني؟

وكان الرد الذي لابد أن يأتي وأتى بالفعل.

سافرا.. كان ضيفين عندنا حين كان الإيطالي موجوداً والآن سافرا.

- سؤال آخر جلالة السلطان. هل لديكم منفيون في الجبال البعيدة؟

كاد الرشيد أن يضطرب بالفعل وهو يتذكر ابن عمه (الرأس) الذي كان مشـاغباً ونفاه إلـى تلك الجبال منذ أعـوام بعيدة، ولـم يكن يتصور أن الغـرب الحضـاري يدري عن معتوه فـي مكان بعيد وقـذر كهذا.. لم التماسـك بصعوبة، رمى إلى عمه أحمد برم، نظرة الوعيد التي كان لابد أن يرميهـا، والتفـت إلى محدثيـه وكان الرد الذي نبع في رأسـه سلسـلاً لدرجة أنه تذوق حلاوته:

إطلاقـاً.. لدينـا مصحـات لاستنشـاق الهـواء النقـي.. ونذهـب إليهـا أحياناً.

لم يسـألوا أكثر، ولـم يأتوا على ذكر (الرأس) المنفي، وبدوا قانعين بإجابة السلطان.

كان يـوم (النعمـة) مغايـراً هـذه المـرة، وشـاهده ضيـوف وفـد الكاثوليك، وانبهروا.. يوم نعمة حقيقي.. يوم شـبع، ويوم غازات، ويوم مغص بطن.. ويوم تجاوز خطيـر لذلك الخط غير الاعتيادي من خطوط الفقـر، وجاءت جمعة الصياحات أيضاً وحضرها الوفد، وقد كانت مرتبة ومبهـرة، وأجيبت فيها نـداءات لم تكن تجاب من قبـل.. فقط كانت بلا (حلحلـوك) المجنـون الـذي تولى الرعـاع أمر دسـه في تلـك الجمعة،

وأطلقوه بعد أن رحل الوفد.

ذهبوا لتذهب (البحبحة)، تعود الصقور المهووسة إلى التحليق في المستنقع، كذبات التأهيل إلى حقائق التحوير، المسافران في قاع القبو إلى سطح المذلة في قصر المسك، والمهاجر عبد الرب إلى إقصائه من جديد.. لم يكن ضيفاً على الرعاع كما كان يتصور أو يتمنى الأمير، ولكن بعيداً عن جلسة الكبار كما أراد السلطان.. تلك هي (أنسابة).. التي أسسها (يوسف ضو) وتبعه الأبناء والأحفاد في إدارتها.. (أنسابة) العالم المتأخر الذي حتى لو رسم الإيطاليون كلهم ضياعه، وأحدثوا مئات الضجات فلن يكون إلا ذلك العالم.

جلس السلطان في اتكاءة التخفف عن الأعباء في قصر المسك.. الأصابع المرصعة بالخواتم تمتد.. تربت على جبهة الخصي، ذنوبنا على الأرض.. ذنوبنا يا مسك.. والفم يرشف من شراب الورد الدافئ، ويحكي لسلطانته ما جرى وما كان يمكن أن يجري:

كدنا أن نحرم من مساعدات الأوروبيين التي تسندنا كثيراً.. كدنا نفقد وزن عملتنا ويتدهور اقتصادنا.. صدقيني يا مسك.. لقد شممت رائحة البارود بأنفي وأنا أتحدث إليهم بالرغم من أنني لم أشم باروداً من قبل في حياتي.. لا أريد رسامين في قصري بعد اليوم.. لا جيوفاني ولا غيره.. هؤلاء يرسمونك فعلا، ولكن يرسمون عوراتنا أيضاً.. يرسمون ذنوبنا.

كانت السلطانة رشيقة ويانعة، وقد خفضت عدة سنتمترات من خصرها في رجيم قارس اعتمدت فيه على خل القصب، كانت تضحك.. تطالع لوحات جلساتها الأخيرة وتضحك.. كل هذا من تحت رأس دمدوم وقلوب الشقيين.. صدقني يا رغد.. يوم طلبت من (جيفو) أن يرسمهما كنت أمزح، لكن المتعجرف رسمهما بالفعل.. لا تغضب يا رغد.. لا تغضب. تقترب من كيانه المهدود بأنامل شديدة اللين فيها

رائحـة حمى.. تقتـرب أكثر.. يبتعد دمـدوم عن موقعه.. يحـس باقتراب خطـر.. اليوم هنـا وغداً لا يـدري أيـن موقعه.. ثـم فجأة تخطـر الرزينة بذهنه.. ترى أين الرزينة؟.. أين أمه؟.

-17-

حيـن قال (نجّـام) للرزينة، وهـو يودعها، ويعتذر عـن مرافقتها في رحلة العودة للمنابـع، في ذلك اليوم الأكثر اكتئابا في تاريخ حي الرديم، أنه اسـتدعي للخدمـة في الكتيبة، ولابـد أن يلبي، كان صادقـا.. لكنه لم يشـأ أن يخبرها، أو لم يكن هنالك وقت للرغي، حتى يخبرها بأنه جاهد جهـاد المحاربيـن، وتفتـت تفتت الخبـز اليابـس، حتى يتم اسـتيعابه من جديـد مجنَّداً في كتيبـة الرعاع.لم يكـن رجل المهام الجليلـة يرغب في عودة طباخـه القديم، الخصي الذي تخرج من عنده، سـاح في سـوءات قصر المسـك.. وعاد إلى طبخ حسـائه، والآن في الشـارع.. لم يكن في الأمر غضب شـخصي، ولا كان الأمير سـخيا في الغضـب أو الفرح، أو المشـاعر كلها، ليسـخرها ضد واحد من قبيلة (البيقـو) عديمة الجدوى، أدى دوره وانتهـى، فـي ميثـاق الرعـاع غيـر المكتـوب أولويـات كثيرة، مطبات كثيرة.. إشـارات كلها حمـراء، وأدوار تلعب في السـر والخفاء، ومثلما جـاء نجّام وذهب، كان يمكن أن يجئ ولا يذهب.. ومثلما انتهى ضدّاً كان يمكن أن ينتهي فرسـاً مكسـر القوائم أو ناقة تحتضر أو حماراً أبلها ممتلئا بالجرب.

(لكنه أفضل من صنع الحساء الجارح.. مولانا الأمير)..

فليكن.. فليكن.. غيره يصنع الحساء..

كان نجّـام يعرف أمـراء وأبناء عديديـن لملوك الأريـاف، رعاعيين نظيفيـن جـداً، هم فـي الحقيقـة مسـاعدو رجـل المهـام الجليلـة الذين انتقاهـم.. ووظفهـم وقد لا يكسـر لهـم خاطرا.أرهقهـم نجّام بالسـعي، بالإلحاح، بالليل، بالنهار، في الضحى، في ساعات تحررهم من الخدمة،

والعودة أنقياء إلى أسرهم..

- سادتي لا أستطيع العيش.. .لا أنام.. أنا منبوذ، أنا مسكين.. أنا..

ثوبه في مستوى السرة وأعلى قليلاً ليجسد ذلك التفاعل الإنساني، كحل عينيه من صنف رخيص وباهت، حذاؤه جلد شاة مرقعة، أظافره مكسرة الحواف.. عيناه خابيتان بلا وميض:

انظروا.. ضلوعي.. أظافري، أعاني من الإمساك.. من المغص.. من رعشة الحمى.

يذهبون.. يعودون، ونجّام في إلحاحه الذي لا ينقطع:

هل رضي عني؟

هل سيعيدني؟

يذهبون.. يعودون.. لكن تلح الأسئلة.. تلح في الأذهان.. لماذا الإصرار؟ نعطيك الرزق كما تحب.. نعطيك خدمة بيوتنا من ألفها إلى يائها.. نجعلك منسق الحدائق لنا كلنا.. نجعلك طباخنا.. وإن شئت أن تحرس العورات في مخادعنا، نوظفك حارساً.. لماذا الخدمة عند الأمير؟

هنا.. مكائد الخصيان التي هي من مكائد الهرمونات، تلفيقهم للخرافة التي هي من تلفيق الهرمونات، واستحالتهم إلى رواة لأحلام لن تحدث أبداً إلا في ساعة تلفيقهم لها:

هو حلم غريب.. حلم رأيت فيه الأمير سلطاناً على (أنسابة).. تاجه من ذهب.. ولثامه من ذهب.. ورأيته يسير في الموكب المهيب، والجدات خلفه، ويباركنه بالمسك ودقات الطبول، وأصوات الخرز المنغمة. وكنت أنا برفقته.. أبخره بالصندل، وأرشه بالطيب.. وكان يبتسم في وجهي.هذا ما حدث.. ليس مرة واحدة، ولكن مرات كثيرة.. لا تقولوا لأحد.. رجاء لا تقولوا لأحد).

الرؤيا المكيدة الآن في اقتناع المساعدين.. في الطريق إلى

المستنقع، والآن موضوعة أمام رجل المهام الجليلة الحذر على نفسه، والمفترض أنه الحذر على سلطنة أبيه.. الرؤيا التي ستفرحه، وتسيل لعابه، وتجعله في ذلك اليوم متأنقا بالأخضر ملثَّماً بالذهب، معمما بالضباب، ومنتعلا لجلد نمر أسيوي مرقط.. الرؤيا التي قد تكون تافهة، ومختلقة، ولا أساس لها في عهد سلطان أقوى من جمل.. لكنها هي التي ستمنح المجندين في ذلك اليوم لقما إضافية من عصائد الدخن، وإعفاء من قراءة الحظ.. كما هو.. تغير إلى الأفضل، وحتى قد تؤجل تحوير راع مسكين إلى حمار، وحمار ناهق إلى فرس، وفرس مستهلك مكسر القوائم، إلى ضد وضده.

جلس رجل المهام الجليلة أمام رؤيا الخصي ساعات يتفحصها، ويقلبها على جوانبها المبهرة، رسم على طاولته قصر المسك كاملاً.. غرفه.. أجنحته.. صالات عرضه.. خصيانه.. جواريه.. عطوره.. أبراج الحمام الزاجل التي تحتل قمته، رسم مجلس (الكوراك) كاملاً، سلطانه، جلساءه.. صائحيه.. هجليج ظله.. (حلحلوكه) المجنون.. سلسلته السباعية.. حاجبه.. صياحاته، وبألوان التراب التي تعشق الأذى، طمس (رغد الرشيد) في الجلسة التي رسمها، وكانت الآن خالية بلا سلطان ليحكم.لكن الحذر.. الحذر..

- متى رأى ذلك الحلم آخر مرة؟

- أمس مولانا الأمير.

وهل تصدقون أنتم؟

خاطبهم (بأنتم) الكريهة اللاطمة، الكارثية، والتي ما كان يخاطب بها مساعديه إلا نادراً.

لا ندري مولانا الأمير أنت حورته.. وعمل في خدمتك من قبل وتعرف سلوكه أكثر منا.

نعم حوره، وعمل في خدمته، وحور المئات غيره، وعملوا في

خدمته، ولـو أراد أن يحصي الأعمال الجليلة التي قدمها ل(أنسـابة) منذ أن كـون كتيبـة الرعاع، لمـا اسـتطاع.. (لولاي ولـولا رعاعـي، لما كان للأمن موقع، ولكان السلطان عارياً يتناوبه المتذمرون).

- هل أخبر أحداً آخر بهذا الأمر؟

لا لا مطلقا.

وأنتم.. هل قلتم لأحد؟

- أبداً مولانا الأمير.

إذن أعيدوه إلى الخدمة.

تلك الأمسـية لم يكن ثمـة إلحاح ليلحّـه الخصـي، ولا كانت ثمة ضـرورة لرفع الثوب فـوق السـرة، وعرض الضلـوع اليابسـة أو الأظافر المكسـرة الحـواف.. جـاءوه بالعرض السـخي الـذي كان يريـده فعلا.. يريده لا ليأكل أو يشـرب أو يصنع الحسـاء الرمي، أو يقرأ طالع الأمير كما هو.. تغيـر إلى الأفضل، ولكـن لينجز المهمة التي مـا كلفته الرزينة أبـداً بها.ولا كلفتـه المدن والقـرى والجبال، ولا أيّة بقعـة في الوطن قد تصير أكثر أمناً في غيبة الأمير.ولكـن كلفه بها الحب.. حب ابنته الرزينة أولا وحـب (أنسـابة) ثانيـا.. (البيقـي) الـذي ولـد فـي القبيلـة عديمة الجـدوى، لا أب رعاه، ولا أم أرضعته، ولا جدة حكت له أسـاطير قبل النـوم، و(البيقي) الـذي لموه من الطريـق، وأعادوه إلـى الطريق، جدواه الآن جدوى كبرى، من أجلك ابنتي الهائمة.. من أجل (أنسابة) كلها.

لـم تكن ثمة خطة موضوعـة في ذهنه للقضاء علـى الأمير، القضاء علـى الحذر، لكـن الخطـط تأتي، ويتفتـح الذهن حيـن لابـد أن يتفتح، الرزينة ستمضي إلى الريف طائعة، مجبرة.. ستمضي.. وأخوها في قصر المسك.. طائع.. مجبر، هو في قصر المسك، ونجّام يعود إلى المستنقع الرهيب.. طائعاً، وبإرادة حرة.

كان بعـض زملائـه القدامـى موجوديـن حيـن عـاد، كذلـك بعض

المحورين الجدد ممن دخلوا وهو غائب.عثر على الضد (عاتق)، والحمار اللاهث الأنفاس (داري)، وعثر على الفقيه (القَرَشي) الذي كان الآن في آخر أنفاسه، ويستغفر مقاوماً هرمونات جسده.وفاجأه المصممون حين قصوا شعره، وجردوه من مشيته وكحل عينيه، ووضعوه في مخزن التغذية الذي كان بعيداً تماماً عن متطلبات تغذية رجل المهام الجليلة.لكن الذهن يتفتح حين لابد أن يحدث ذلك، وتأتي طرق الخلاص حتى لو أزالوا إبصاره كله.. من أجلك.. رزينتي.. من أجل (أنسابة) كلها.

لم يكن الأمير متشوقاً إلى رؤيته وسماع الحلم يتردد من حلقه شخصياً كما توقع، وما ناداه إلا بعد عشرة أيام أمضاها في عد الأجولة، وتعبئة الحميض في القدور، وصرف زيت التشحيم الذي كانت تحتاجه الدواب في مهماتها العسيرة، وفي كوخ إدارته للرعاع، رماه بنظرة الصقور المهووسة:

أقصص رؤياك على.. أقصصها يا نجّام.

كان فارهاً بالفعل، سلطاناً متأنقا في الجبة، في عمامة الضباب، تاج الذهب، واللثام الذي لا يُعرف إن كان من مخمل أم من حرير. وناداه بنجّام الصديقة، اللصيقة، التي لم تكن أبداً من إفرازات اللسان الرعاعي، بشرى خير.. أكيد هي كذلك. وقف نجّام ثابتا، وكما سمع في القصص البعيدة والغابرة، وأمثال (أنسابة) المتداولة.. لا تلسع الحية إلا وهي ثابتة، ولا يغدر الغادر إلا وهو ثابت، ولا يحرر البطل الأرض.. أي أرض.. ورجلاه ترتعشان.

- نعم مولاي الأمير، رأيتك مكللاً بالذهب، وتسير في موكب يهدر بالهتافات، وحولك الجدات كلهن يغنين، ويرقصن، ويباركن، رأيت المغنية (تمائم) تغني:

مساعد وين..

ولد أبوي الزين

ما بجيب الشين.

الذهب في الرأس

الفرح في الناس

يتبع الإحساس.

كانت الأغنية بالطبع من صياغته، وصاغها في التو من إيحاء الثبات، ومهتديا بأبجديات الغناء المنافقة التي ما انقطعت أبداً من تراث (أنسابة)، أو نفاقها المعاصر.يرتفعون بالسلطان حين يرتفع، ينخفضون به، حين ينخفض.. يردد الأمير الأغنية، ينتفخ بها، وبأقلام التراب التي ما قصرت في رسم الأذى، يرسمها على طاولته:

كم مرة رأيت الحلم يا نجّام؟

أكثر من خمس مرات يا مولاي.

نظرات الصقور الآن أقل هوسا، وشيء في الفم يلمع، ابتسامة، ضحكة، أو ارتخاء فك.. الرجل الجليل منبهر بالرؤيا، وحتى لو لم تكن هنالك قناعة لغرسها بعيداً في العمق.لكن لا مانع من تذوقها.. تتبعها.. اللهاث خلفها.

ومن كان معنا في الموكب يا نجّام؟

رعاياك كلهم يا مولاي، (أنسابة) كلها، الفوانيس الخضراء والحمراء، الطاهرات.. سلاطين كردمال.. وحتى الدواب.. كل شيء.. كل شيء يا مولاي.

- حسنا.. ستطبخ حسائي من جديد.. اذهب..

يفكر الخصي مبتهجا.. لعله نال الثقة، لعله الفخ الذي ينصبه الحذر، لعله.. لكن نجّام ثابت، ولن يبتلع الثقة دون تفحص.. لن يسقط في الفخ قبل أن يتحسس مواضع القدمين.

استلم فرصته في مطبخ الرميات الملحق بمستنقع الرعاع، ذلك المطبخ الذي عمل فيه من قبل سنيناً طويلة، ويعرف بالضبط ما فيه، وما ليس فيه.طيور الرخم التي لها رائحة سرة تتعفن، نسور الفلا آكلة الأفاعي واليرقات، وصقور (جرناس) التي كانت تأتي من حدود (تمبكتو) وجزيرة العرب.. ويصطادها الرعاع خصيصا لتزيين مائدة الأمير.وكانت قد شحت في إحدى السنوات، ما عادت تتحاوم في أجواء (أنسابة)، فرصد الأمير مكافأة مجزية، قدرت بعشرة دنانير أنسابية لمن يأتي بصقر من صقور (جرناس) حتى لو كان يحتضر. في تلك الأيام راجت تجارة السهام، ورماح الصيد، انغمس الناس في الركض والتحديق، ومحاولة العثور على تلك الصقور التي تأتي بالدنانير.

لو كانت ثقة هي التي عادت به إلى مطبخ الرميات.. سيجعلها كذلك حتى تصير ثقة مؤكدة، ويحدث الأمر.

لو كان فخا منصوبا لاصطياده، سيحيله إلى فخ تالف، حتى تتخلخل الشكوك، ويحدث الأمر.

كان نجّام متفانيا فعلا ولأول مرة في تاريخ مطبخ الرميات، ابتكر أطباقا مثقفة، وناعمة، ومن نفس المصدر لم تحد عنه.لحم الرخم بالزيت والفلفل الحار، نسور الفلا في طاجن الخضروات والليمون، والبرقل، صقر جرناس مشوياً، ومنقوعاً في البصل والخل.القوانص المشكلة مع سلطة الحميض. كان قد وضع تقليدا جديداً لتذوق الأمير، أغرقه في الرمة الفاخرة وبنفس الثبات.. التفاني:

مولاي ليس الحساء فقط ما يمنح النشاط، ويجعل الذهن يتوقد، جرب طواجني.. جرب المائدة التي أعدها لجنابك.

رجل المهام الجليلة منبهر، ونجّام متفان، والآن عدة مساعدين مهمين في ترتيب الرعاع، احتلوا أماكنهم ضيوفاً على مائدة الأمير.. ما أبدع الطعام الذي يعده هذا الجربان.. ما أحلى طواجنه..

فـي عهد الحسـاء فقط، توجـد صعوبة، مهمـا تأطر الثبـات، توجد صعوبـة.. قـد يدلقه فـي لحظة التعصـب المتوقعـة من عصبي مثله، قد يعصر على القدر كما هائلا من ليمون البراري الشديد الحموضة، ويفسد الوصفـة.. لكن عند نجَّام الآن مائدة فيها طبـق لن يخيب أبداً.من أجلك يا رزينتي.. من أجلي أنا.. من أجل (آدم نظر)، ومن أجل (أنسابة) كلها. وطوال سـتة أشـهر كاملة كان يراقب الأمير بدقة على مائدة غدائه، يتابع الريالة حين تحرج، حين تسـيل، وفي أي طبق تندلق.يراقب الأصابع في ترددها على الأطباق، فـي أي طبق تتمدد، وعن أي طبق تنكمش، وكوَّن فكرتـه الكبيرة والناضجـة.. طبق السـم.. طبق صقور (جرنـاس) المتبلة بالثوم، والمنقوعة في خل القصب.

السـاعات.. الأيام.. الشـهور تمضي، والرؤيا الملفقة ما زالت على طاولة رسم الأذى لا تبرحها، الفقراء يحورون إلى دواب.. الدواب تحور إلى أضداد وأضدادهم، سـحرة جدد من قبائل (البيقو) نطَّوا إلى السطح، واعتُقِلـوا، ومتذمـرون فـي قريـة (الرديـدة) رفضـوا أن يدفعـوا ضرائـب محاصيلهم، قالـوا أكلتها الرياح وأسـراب الجراد.التأنق فـي الجبة.. في العمامة.. في اللثام، في حذاء النمر الأسيوي المرقط.. ووفد أوروبي من مجلس (الكاثوليك) جاء فجأة وتلقح بالأكاذيب ورحل.ومرسـوم سـري للغايـة خرج مـن عند الأميـر وتوجه إلـى نجَّـام وحـده.. أن تعامل قائد كتيبتك كسلطان.وبالرغم من عدم ظهور أي أعراض منْ أعراض أمراض (الهيضة) و(الهبوب) واستسـقاء البطن على السـلطان ((رغد الرشيد)).. ولا بدا الجسـد العمـلاق.. الحي.. الهـادر.. المنغمس فـي المجالس.. فـي الحياة السـرية، في توافه (مسـكه)، على وشـك السـقوط.. لا بوادر لإنهاك.. لا مؤشـرات لأزمات في الدم ربما تحـدث بين لحظة وأخرى. وفي اجتماع سـري للغاية أيضاً، ضم الأمير ونجَّام وحدهما، طلب رجل المهام من طباخه أن يعطيه تصورا لما سيحدث في مستقبل السلطنة.

تصور لما سيحدث؟

في الواقع كانت لدى الخصي رؤيا ملفقة، لفقها ليدخل، وكانت عنده نية فاسقة لدس السم في الدسم بعد أن دخل، ولا كان ثمة تصور آخر يعرفه.

لا أدري مولاي السلطان.. هو حلم رأيته وتكرر مرات عديدة، ولابد أنه سيتحقق.. الرؤى عندي لا تكذب أبداً..

يحكي عن رؤى كاذبة شاهدها في شأن عدة أشياء وتحققت.. رأيت أمي تحتضر، وكانت قوية وفي عز الشباب، وماتت بالفعل.. رأيت أبناء اخوتي يضلون الطريق في الصحراء وكانوا حضراً لم يخرجوا إلى صحراء أبداً من قبل.. وبعد عدة أيام كانوا في رحلة للقنص وضلوا الطريق.. رأيت أبقار قبيلة (الداجور)كثيرة العدد تنفق كلها.. ونفقت بالفعل.. والآن أرى مولاي الأمير سلطاناً، وأظنه هو السلطان.

تعجبه الرؤيا أكثر.. تعجبه الحكايات الملفَّقة كلها، يبتسم.. يضحك.. أسنانه أنياب ذئب، وجير أسود في آخر الأضراس يوحي بالعفن.. حسناً.. حسناً.. حاول أن ترى (مسك النساء) جارية تباع إلى واحد من الأفارقة السود.. حاول أن ترى السلطان (رغد) أسيراً لدى آكلي لحوم البشر في غابات (كورت ديفوار).. حاول أن تراني في المرة القادمة متصدراً مجلس (الكوراك) أجيب على نداءات الصائحين..

الرسالة الكارثة.. الرسالة الفجَّة اللغة، والمشاعر، والقادمة من (أم حراب) البعيدة.. يحملها الرعاع الطيبون.. الرعاع الذين يخرجون ويعودون ويمتلكون امتياز حمل الرسائل، وإلى نجَّام مباشرة في مطبخ الرميات، وفي الوقت الذي كان الغداء على وشك أن يعد:

(الصديق القديم نجَّام.. علمت بانضمامك مرة أخرى إلى الكتيبة.. وأرجو أن تكون موفقاً.. وأنا يعصرني الأسى.. ويقتلني الحزن، أنعي إليك ابنتك، وصديقتك الزرينة.. نعم يا نجَّام.. يا صديق.. لقد ماتت

الرزينة.. ماتت من مرض مجهول لم يستطع أحد تشخيصه، ودفناها هنا في أم حراب وسط أهلها وعشيرتها.. وأبعث إليك بالتعزية والبكاء الحار).

البكاء.. لابد.. الولولة.. لابد.. تذكُر الرقيقة التائهة في أحضان الأمومة، العائدة من انكسار الصياح.. الممسكة باليد بقوة في لحظة الفراق.. لابد.. لكن الثبات.. الثبات.. المهمة المؤجلة لن تؤجل.. والغداء المميت على وشك أن يميت:

طبقك المفضل جاهز مولاي السلطان.. صقران من صقور (جرناس) وصلا لتوهما من حدود تمبكتو.. اصطدتهما بنفسي حين اقتربا من المعسكر، وتبلتهما بالثوم المنقوع في خل القصب كما تحب دائماً.. أتمنى أن ينال الطبق إعجابك.

يراقب اليد المتشابكة العروق تمتد نحو الطبق، يراقب الريالة التي اندلقت.. مشت.. سقطت.. الرعشة.. الثبات.. الرعشة.. الثبات.. الثبات.. الثبات.. فتحوا البلاد المحصنة بالثبات.. عبروا المحيطات هادرة الأمواج، والصحاري الوعرة واستكشفوا الأرض الغامضة بالثبات.. من أجل الرزينة.. الرقيقة.. الميتة.. المدفونة في ريف بعيد..

يعجبك يا مولاي؟

نعم يعجبني بشدة.

يراقب العينين المهووستين.. يراقب الشبع. الغازات.. التجشؤ.. يراقب ازرقاق الشفة حين ازرقت، واللسان الجاف حين تدور وأطل، والشهقة.. يحس بقطرات سائله الأصفر تبلل.. الثبات.. الثبات..

انتزع نفسه بقوة، وخرج برأس مرفوع، ليس الرأس القديم، ولكن رأساً آخر.. كان يود لو رأته الرزينة.

-18-

المساء الذي انكتب في (جوا جوا) في ذلك اليوم، هو نفسه المساء المطابق، والمنسوخ، والذي سينكتب كثيراً في أيام عديدة بعد ذلك.ومكر الهرمونات الذي حقق به (نجّام البيقي) معجزة إقصاء رجل المهام الجليلة من شبق الدنيا وصياغة الدواب والتحوير، وأحلام عرش السلطنة، هو نفسه مكر الهرمونات الذي يحاول الآن أن يفلت به من توابع الدم..

(جوا جوا) الكئيبة، الصحراوية، الوعرة المناخ، الخامدة، النائمة على جنبها في ساعات نشاط المدن، وخبها، وسعيها، هي نفسها التي سيلسعها النشاط، وتقتادها الحمى. حمى الرعاع المستندين على ركيزة طويلة مديدة، حين يفتقدون الركيزة، حمى المسيطر عليهم لسنوات طويلة، حين تتأرجح السيطرة، وحمى العناوين الغزيرة التي جاءت تتراكض في إفراز الألسنة:

الأمير مساعد.. مات.

- قتله واحد من الخصيان كان يعمل عنده.

قتلته دابة متمردة مسننة الحوافر.

- سقط في حفرة كان يعدها كقبر لواحد من الرعاع.

- احتسى حساء جارحا لصقر ميت.

- تناول السم بإرادته يأساً من تعيينه وليا لعرش (أنسابة).

العناوين الغزيرة جداً، المتنوعة المنابع، من مستنقع الرعاع الكبير في أقصى ركن من أركان (جوا جوا)، حيث العزلة والضياع، وأغاني رداءة الحظ في ليالي الشح، إلى حي (عظمة رغد) النظيف والفاخر،

إلى حي (قرن الشطة) الحار، والمبهّر، سوق الفخاريات، سوق التناقض، حـي الرديم، ميدان شبع القوافـل وجوعها، القصور.. قصـر (واحة جوا جـوا)، قصـر (روح الأصيل)، قصر العـزة، وقصر المسـك، حيث أولياء الدم، سيرتعشون، سيجنون، سيصرخون:

- ولدي مات؟ رجل أمني مات؟.. مساعد القوي مات؟

يحاول الرشيد أن يستقيم كسلطان، أن يبكي كسـلطان، أن يشـق جيب الحسـرة الكبير كحاكم لتلك البلاد التي لا تعذر القوي إن ضعف، ولا تمنح الخضوع لضعيف حتى ولو قوي..

ولدي مات؟.. اسندني.. اسندني يا خصي.. اسندني يا دمدوم..

اليـد المرصعـة بخواتم الترف، لا تحـن، لا تعطف، لا تسـرح بين الشعر المضفر، والجبهة الهرمونية، واللسان المتمركز في حلق اليباس لا ينطق سوى اليباس.. ولا (ذنوبنا على الأرض) التي كانت دائماً ما ترافق طقس التخفف من أعباء كرسي السلطنة.

مات؟ اسندني يا خصي.

مسك النساء، السـلطانة الكاملة التزين حتى حين كانت أنباء حرب (كردمال) تسـوء، وواحد من عيالها الصغار تلدغـه عقرب، وأمها تموت بسـكة الدماغ، لن تتصنع الحـزن إلا بالقدر الذي يبقيها مكشـرة بخيلاء، وباكية بدمعتين متغطرسـتين.. في داخل الرؤيـة.. هي الدامعة.. الواقفة.. المحاولة كنس الحزن من قلب زوجها. في خارج الرؤية.. تافه.. حقير.. يستحق.. ومساعد الذي مات اليوم، لم يكن أبداً قريباً من احتمال مسك النسـاء، ولـم تسـتطع تذوقه أبداً، وذلك ببساطة شـديدة، لأنها لـم تحاول تذوقـه.. ومسـاعد الذي تحمل أنبـاء مصرعه الألسـنة الغزيرة نفسـه، لم يسـتطع تذوق مسك النسـاء ولا غيرها أبداً، وذلك ببسـاطة شديدة، لأنه كان بلا تذوق..

- تصبر يا رغد.. تصبر.. يا حبيب..

يمسكه آدم نظر- دمدوم بقوة الضد التي هي أيضاً من قوة الهرمونات. يزيلون أعضاء ثورتنا وانطلاقنا، وأسباب ذنوبنا، ويمنحوننا طاقة الهرمونات. في داخله يحس بانتصار كبير لم يستطع أن ينتصره حين كان لابد أن ينتصر. يقوده عبر الغرف، عبر الأجنحة، وصالات لكز النظر المريعة.. مرايا زينة السلطانة لا تبدو قاحلة ولكن عاكسة لخيال مزين، لوحات الإيطالي مبتسمة وضاحكة، وواضعة ساقا على ساق، يسنده إلى الخارج المكشوف، حيث القاعة التي شهدت إشراقات حكمه ومخازيها، والمكان الذي رجته الصياحات وترجه، فتجاب أو تكسر، ورائحة الأمير نفسه، وهياج نظراته حين جلس وحين قام، وحين كان في صباح اليوم نفسه مهووسا ومزمجرا يحكي عن عزمه إبادة سكان جبل بعيد لأنهم بالغوا في تمردهم.. مزعجان عندي.. مزعج يحمي.. يؤدي واجبه، ويتبع الإحساس، ومزعجة تبعثر، تفضح، تستورد المستشرقين ليرسموا الذنوب.

اسندني يا خصي..

يسنده وكتفا الرشيد في ساعة البؤس كتفا ناقة أقعدها المرض.

كانت جثة الأمير مساعد، مسجاة على الأرض في وسط القاعة، وملفوفة بأعلام (أنسابة) الخضراء والوردية، الجثة التي اختطفها الرعاع على عجل من بين أنقاض مائدة الغداء الرهيبة.. صقران فاخران من صقور (جرناس) قدما لتوهما من حدود (تمبكتو)، البصل والثوم، وخل القصب، والريالة التي اندلقت، التي أغرقت. العينان المزرقتان والشهقة. أزاحوا الأعلام عنها وكشفوا الجسد كاملاً، يتأمل الرشيد.. اسندني.. يتأمل الهيئة التي ما تأملها أبداً قبل ذلك، ولا كانت ثمة ضرورة لتأملها. تماماً.. هيئة رجل أمن بمواصفات شمبانزي كما قال وفد الكاثوليك.

مهلاً.. مهلاً

يتأمل الزي الذي كان غريباً بشدة عن بصر عينيه.. مهلاً.. التاج

الذهب.. عمامة الضباب السوداء القاتمة، جبة الحرير الخضراء المطعَّمة بالعقيق النادر، اللثام الذي لا يُعرف إن كان من مخمل أم من حرير أم قماش آخر لم يفد إلى تجارة البلاد بعد.. حذاء جلد النمر الأسيوي المرقط.. أفخر الأحذية التي تمشي على الأرض قاطبة.. الخنجر المرصع بالماس الذي يطل برأسه من الجُبَّة..

ما هذا؟.. اسندني جيّداً يا دمدوم..

زي السلاطين كله، وأكثر من كله.. كان كساء غريباً للجسد المسجى على الأرض.. زي السلاطين الذي ما ارتداه أحد إلا حين جلس وتسلطن، ولبى الصياحات، وباركته الجدات، وجاء الملوك وزعماء القبائل وقادة الجند لتأكيد عزته.. زيّي أنا.. زي نفر المقدم.. زي (تيراب علي).. زي (اليتيم).. ما هذا؟

يتأمل الرشيد، وتتسارع محفات حمل المغص، تحمل غازات من هنا إلى هنا.. أعراض ضيق من رئة إلى رئة، قطرات سائل أصفر من حالب إلى مثانة، وانسداد في الأنف من فتحة إلى فتحة.. من توج مساعد سلطاناً على (أنسابة)؟

يتراجع الأب المكلوم بغتة في الداخل، ليفسح المجال للسلطان.. ولا أحد كان يعرف..

(الرؤيا الملفقة، مكر الهرمونات حين تمكر، من حفر حفرة لأخيه، أمي في عز الشباب، ماتت.. أبناء أخوتي ضلوا في رحلة القنص.. أبقار الداجور نفقت.. الجدات يرقصن، الطاهرات يطهرن.. الرعايا.. مكر الهرمونات.. يسلبون الخصائص ويمنحون الهرمونات).

يتأمل الرشيد.. يفكر كانت لي الأهواء نفسها وأبي نفر المقدم على كرسي السلطنة يعدل ويظلم.وتشابكت الأهواء حين ابتدأت أمراض (الهيضة) و(الهبوب) والاستسقاء تخب إلى جسده، وحين توقف لسانه حتى عن تقليب الطعام.ولكن أنا.. يتحسس عظامه التي قويت بشدة

وانفلتت من إسناد الخصي، يتحسس مواقع (الهيضة) في أيسر البطن، مواضع (الهبوب) في أيمنه، ومواضع الاستسقاء في البطن كله. يتذكر الليالي الطاعمة التي اندلق فيها في أحضان مسك النساء وجواري حياته السرية، بلا أكاسير، يتذكر الوقفات المستقيمة التي يقفها.. الأحراش التي طارد فيها سلطان كردمال (هاشم درب)، اللسان العربي الفصيح الذي تفاصح به أمام وفد (الكاثوليك) حتى انقشع.. ما يزال سلطاناً.. ما يزال..

الكبار الواقفون في صمت، يجمدون حين يجمد، ينفعلون حين ينفعل، الظهوريون يحمون الظهر، ولا يستطيعون حماية القلب:

احكم السلطنة يا (يوسف كرا).. احكمها كأنني مسافر.. كأنني مرضت.. كأنني في الحرب.. كأنني مت.

يتلقف الجليل المهاب صوت سلطانه المجروح، يتوزع في مقاليد الحكم كلها.. ثمة فراغ في الأمن يستدعي تدخل الجند:

عودوا بأربعة آلاف جندي من الحدود..

ثمة اشتعالات واختناقات، ومصائب بلا حصر في مستودع الرعاع.. دواب تتفكك، مشاريع تحوير تضيع، خصيان يزمجرون، وخوف كبير من انتشار الفتنة..

- ارسلوا ستة من ملوك الأرياف.. وظفوهم قادة مؤقتين.. حتى ينجلي الأمر.

وثمة احتمال كبير عن تفشي مرض الطاعون اللساني في السلطنة، كما كان يحدث دائماً عند أي بلبلة.

وزعوا الأكاسير على الناس.. وزعوها.

السلطنة الآن في حال يرثى لها. أمنها، اقتصادها، تجارتها، قوانين ظلمها، وقوانين حكمتها، ألوان فرشاة (يوسف ضو) الذي رسم ناسها طيورها، دوابها، غابات صيدها، دروب قوافلها، [illegible]،

عقلاؤها، سحنة الأنفاس في هدير أنفاسها، عزتها، كرامتها، حرها، خريفها، ومجالس (كوراكها)، والسلطان في جبتين كلاهما ضيقة. جبة الأب الذي فقد.. وجبة السلطان الذي كاد أن يضيع.. يتوزع سرحانه بين أعضاء مجلسه الكبار، ويد الهرمونات.. يد الخصي دمدوم، تعاود النشاط في إسناده، إيقافه، إظهاره (رغد الرشيد) الذي لن يكون إلا سلطاناً..

(لا يمكن أن يكون حرضه (يوسف كرا).. فهو أطوع لي من بناني.. لا يمكن أن يكون دوباجي.. فهو الحكيم المغفل.. صانع الأكاسير.. لا يمكن.. الترزي كردمان.. لا البرناوي.. لا لا يمكن أن تكون مسك النساء لأنها لن تكون مسكاً في عهده، وليست الجدة السحابة لأنها لم تحرضه هو، حين كان أبوه يفارق.. هل يمكن أن يكون العم (أحمد برم)؟ لكن العم يكرهني ويكرهه.. لا لا لو امتلك مفاتيح درء الضر، لأعاده حيَّاً، حاكمه، سأله، ونفاه بعيداً.. لكن..

- من قتله حقيقة؟

يستعيد جرأة الصوت، يمدده إلى الحاضرين والغائبين، الشوارع والناس، (جوا جوا)، و(أنسابة) كلها..

- من قتل الأمير مساعد؟

يقولون خصي اسمه نجَّام..

وهل أعرفه؟

- نعم يا مولانا.. لقد عمل في قصركم من قبل.

نجَّام.. نجَّام.. المتعجرف، كبير الطهاة الذي كنسته مسك النساء لأنه أسرف في الملح يوماً.. البيقي الذي لا تبهت حناء يده أبداً، الذي تجرأ على استخدام مرطبات القصر.. قد يبدو مغفلاً.. قواداً.. ولكن ليست في وجهه تدابير قاتل.. وقاتل لمن؟ لرجل أمنٍ كان يتبع الإحساس.

كانوا قد شرعوا في إجراءات تجهيز جثمان الأمير للدفن، صبوا أكاسير تنظيف الجلد، وأكاسير إزالة الشعر، ورشوا غبار (الهجليج) المر على كل شبر في الجسد، إخفاء لرائحة الصقور التي كانت تحلق، خرج المنادي الرسمي ليطوف بالشوارع، ناعياً إلى الأمة الأنسابية رجل المهام الجليلة الذي رحل في عز الشباب، وكاملِ العطاء، المنادي الذي طالما تمنت (الرزينة) سماع ندائه، ولم تسمعه. نُكِّست أعلام (أنسابة) الخضراء والوردية، وعلقت مجالس (الكوراك) إلى أجل لم يسم، وأعلنت حالة من حالات ذعر السلطنة عطلت فيها حتى الزواجات والطلاقات، وكامل إجراءات الحياة المدنية.

جاءوا بنجَّام البيقي ثابتاً، ومتأنقاً، وكامل الكحل وحناء الأصابع، عثروا عليه على ظهر ناقة فارهة كانت تشق الوحل في طريقها إلى قرى (التنجر) على مسافة ستة أيام من (جوا جوا)، أدخلوه على السلطان رغد الذي كان الآن في مرحلة طرد الذكرى، وإزاحة الكابوس، والتفكير العميق في تدريب خلف جامد الوجه، ليسد الفراغ العريض في لم الفوضى الذي خلفه الأمير مساعد. وقد كانت تركة الرعاع ثقيلة وكاتمة للنفس، وأولئك الستة الذين أرسلوهم وإن أفلحوا في التهدئة، إلا أنهم لم يفلحوا في إخماد النار بعد.. كانت مشكلة الرشيد تلك الأهواء.. أهواء أبناء السلاطين حين يمتلكون ما يدعم الأهواء.. ولكن كم بقي في العمر لنخاف من صبي؟ كان يقول ويجيل البصر في عياله الآخرين.. كم بقي؟.. وكان دمدوم موجوداً في كل تلك النقائص، والآن بالذات يقسم بأنه أقرب الناس في (أنسابة) كلها إلى قلب الرشيد، ولدرجة أن خيالات الأبوة الشيخة قد عادت لتلعب به من جديد.. لم لا؟، وهو الآن يملك الهرمونات، وقريب من البؤرة، وأسند السلطان في محنة لم تكن لتمضي بلا يد قوية لتسند.. وفي قراءته المتأنية لوجه الشيخ (يوسف كرا)، تلك التي قام بها أثناء انكتاب تلك الفاجعة، خيل إليه أنه

يقرأ الغيرة، يقرأ الحسد، وأحس بالفعل وفي عدة مرات خاطفة أن اليد الهرمونية الكبرى للأب الشيخ، حاولت إزاحة يده عن كتف السلطان، واحتلال مكانها.وكانت تلك اللحظة الغريبة حين نطق السلطان.. أبي الشيخ، وكانت نظراته عنده هو، وليست عند (يوسف كرا)، لكن هلوسة المخدع السلطاني بعد ذلك، كانت أجل.. والعرق الذي انفجر في أعقابها كان أعظم. قد نصلح ذنوبنا على الأرض.. قد نصلحها في التو والحين.. وكانت تلك هي جملة السلطان التي دخل بها دمدوم إلى قلبه.. ذنوبنا على الأرض.. ذنوبنا يا مسك.

ألقى السلطان بإبصاره كله على نجّام:

- هل تحبني يا بيقي؟ هل تحب (أنسابة)؟

- نعم أحبك.. وأحب وطني.

الثبات، مكر الهرمونات، وخطة الإفلات من التهلكة الآن تتبلور، أعادوه من الطريق إلى قبر الرزينة، كان يريد أن يبشرها، يخبرها في حفرة الأبد أنه حقق لها حلما طالما تمنته.. والآن أخوها واقف أمامه.. مثله تماماً.. ولا يعنيه في شيء أكثر من أنه الأخ اللدي تلف والأخ الذي أتلف العائلة كلها بعد ذلك.

إذن لماذا عرَّيتني هكذا؟.. لماذا نزعت سراويلي في وسط شعبي؟

يردد الرشيد، ويحتد، وينكمش الحاضرون، ورغبات ملحة في اللاشعور لدلق النظر إلى نصفه التحتي، والتحقق من كيانه العاري.. الأمن هو الستر، وانعدام الأمن هو العري كاملاً.

من أجلك مولاي الرشيد، من أجل (أنسابة) كلها.

تعمل الهرمونات بمشقة، والليلة ليست كالبارحة، طبق جرناس المتبل بالخل والثوم، والسم، كان أسهل لأنه أعد لاقتناص صقر، وطبق حب الرشيد الذي يحاول الآن تتبيله، بخل وثوم آخرين، يبدو شديد الصعوبة، الطبق الذي قد ينجو به.. وقد يهلك.

كيف؟

يصرخ الرشيد..

- نعم مولاي الرشيد، كان مساعد يريد افتراسك، يريد إقصاءك عن العرش، يريد أن يذبحك بخنجره، وأوشك بالفعل أن يتحرك لولا أن تصرفت في الوقت المناسب وقتلته بالسم. مولاي.. لقد أراد تعييني أباً شيخاً ولم أقبل، أنا مواطن شريف أحب وطني، وسلطاني ولا يمكن أن أخون، هل رأيت ذلك الزي الذي كان يرتديه؟ لقد استورده في غفلة عنك.. وتلك الهيئة التي مات بها، هل كانت هيئة رجل أمن يحمي؟

يقول نجّام، ويلقي بنظرة الهرمونات على الحضور كلهم، الأب الشيخ (يوسف كرا) يرتعش، الترزي كردمان يبدو مفكرا، المفتي بلا فتوى، والحكيم دوباجي يفتش في جيوبه عن المزيد من إكسير ضبط النفس لضخه في حلق السلطان عند الطلب، وذلك الضحية (دمدوم)، ما باله؟.. يده على كتف السلطان لا تتزحزح، وشيء من غرور أو انتشاء ينط إلى تعابيره حين جاء ذكر (الأبوة الشيخة).. يكون تافهاً بحق لو كان ما يزال يحلم.. ويكون أتفه لو علم بموت أخته، ويحلم.

(بالفعل لم تكن هيئة رجل أمن يحمي.. يفكر السلطان.. الذي يحمي لا يتبع الأهواء، يأتي قاحلاً.. يأتي مشرّداً، يتوزع في الثغرات، يسدها كلها، ولكن ليس أبداً بتلك المخصصات التي هي مخصصات السلطان وحده.

ألم يكن ثمة طريقة أخرى يا بيقي؟ إخباري بالمسألة مثلاً.

- أبداً يا مولاي.. كان الوقت ضيّقاً جداً.. ولم يكن ثمة مفر.

يهوي السلطان برأسه إلى الأرض، يرفعه:

هل تعرف الطريق إلى كردمال أيها الخصي؟

- نعم يا مولاي.. لقد شاركت في الحرب الأخيرة.

- إذن إلـى كردمال.. إليها عاجلاً قبل أن يخنقني أولياء الدم. أنا تنازلت عن ثـأري، ولكن لمسـاعد أخـوان وأخـوات، وعمات وخـالات. له سلالة يوسف ضو كلها وما أستطيعه الآن قد لا أستطيعه غداً.

دفنـوا الأمير مسـاعد في قبـر أصر الرعـاع علـى حفره بأنفسـهم، وتوسـيعه حتى يرتاح الجسـد جيّـداً، وكانت ثمـة جنازة فاخـرة أقيمت، وبمشـاركة الجـدات اللائي كانت مشـاركتهن هـذه المرة أيضاً اسـتثنائية وبناء على رغبة الرشـيد، لأن لا أحد سوى السلطان تشارك الجدات في مراسم دفنه.

لـم يصـدق (البيقي) أنـه نفد.. وأنـه طليـق، ويمتلك سـاقا الفرار، وقـرار السـلطان بنفيه.. كان خائفاً أن يشـي به مسـاعدو الأميـر.. أولئك النظيفـون الذين يعرفـون أمر الرؤيـا الملفقة، ونقلوها إلـى قائدهم، لكن ذلك لم يحدث، ولا أبصر واحداً منهم في مجلـس السـلطان. انفلت في طريـق كردمال لا يلـوي على شـيء، وكان أكثر ما يحز في نفسـه أنه لم يستطع أن يصل إلى أرض التنجر.. يبكي على الرزينة أولا ويبشرها ثانية بأنه حقق لهـا أمنية غالية. المنـادي الذي يصرخ في (جوا جـوا).. معلنا وفاة أمير جليل بالسم.

-19-

جلس (آدم نظر) مع السلطان (رغد الرشيد) في قاعة الحكم الوردية في قصر (المسك)، كانا بمفردهما بعد. أن صرف الرشيد (ظهوريه) وأعضاء مجلسه، وكانت قد مرت أربعون يوماً كاملة على وفاة الأمير مساعد، ونفي الخصي (نجّام البيقي) الذي سممه، إلى أصقاع (كردمال).

(أربعين الإفاقة) كما سماها الرشيد، وعمم تسميته تلك في كل مناطق السلطنة، مدنها، قراها، جبالها ووديانها، وحتى تلك المناطق التي ما كان يتردد اسمه فيها إلا نادراً.كان يسعى إلى غرس تقاليد حكم أخرى غير تلك التي كانت مغروسة من قبل، تقوم على سلطة الحب أولا، سلطة الاستمالة، إلى خلق شعب سلس كالماء يجري من حوله. لم تلغ كتيبة الرعاع كما كان متوقعاً بشدة، ولم تعاد الدواب الفقيرة إلى ذويها كما دلت الأيام الأولى من أربعين الإفاقة، وأعمال التحوير والتدوير، وزرع الكحل والضفائر، وإن كانت قد علقت قليلاً، إلا أن أدواتها لم تبرح تلك الجحور، وبقيت صامدة، ومستعدة لاستئناف العمل في أيّة لحظة.وكان قد عُين لاحقاً واحدٌ من الأمراء الصغار قائداً لكتيبة الرعاع، ولد للرشيد من أم (فولانية)، وقائد صوري يسنده أربعة ملوك ريفيون عملوا في صحبة (مساعد) سنيناً، ويعرفون الكتف ومن أين تؤكل.وكانت مهمتهم هي إمساك الخيوط، ترتيقها، وإيصالها طويلة وقوية إلى يد الأمير ليشدها.والشيء الوحيد الذي كان ملاحظا بصدق، ولعله المبهج، هو تلك العادة الرهيبة التي انتهت بانتهاء مساعد، عادة الركوب على ظهر دابة فقيرة، كانت في يوم من الأيام مواطناً أنسابياً.

في غارات مداهمة المهربين والسحرة، في زيارات الأحياء الخاطفة، في السوق، في الشهيق والزفير، القائد الجديد لكتيبة الرعاع ومساعدوه على دوابهم، والعيون تراقب، تهبط إلى مستوى الحوافر وتراقب:

ليسوا آدميين.. ليسوا آدميين.. بشرى خير، يتحدث الأنسابيون في الطرق، والأسواق، ومجالس الرغي الليلية.

كانت الإفاقة أولا في الذات، تنظيفها من غبار شفقة كثيف، فتح باب جديد، فرش ملاءة على عطف عار.والحذر من الأهواء كلها. أهواء الأبناء إن قويت عظامهم، وامتلكوا المسامير التي قد تدق في النعش. أهواء المقربين إن اقتربوا بمسافة تسمح بإحصاء العيوب، وأهواء النساء إن دخلن بفتنة الوجه، وبقين بفتنة الامتلاك.وحتى أهواء الفقراء والبعيدين إن لم يعجبهم الفقر، أو البعد.تنظيف السلطنة كلها من أقصى أقاصيها إلى أدنى أدانيها، تنظيفها من جيف الحسد، وسحر السحرة، ومن الكلام الذي يجرح كالمبراة.الأرامل اللائي قد يجئن، ويصحن طلباً للقم العيش، وأعينهن على قصر المسك في أعمق دهاليزه.

(لن تتكرر تجربة ولدي مساعد حين امتلكت الأهواء قلبه، ولا تجربتي أنا حين أرخيت شهوتي لصوت أرملة لبائع حلوى لزجة وقذرة).

الآن تم استحداث كرسي في مجلس الحكم السلطاني، هو كرسي تتبع الأهواء، وله صلاحية تتبع الرعاع أنفسهم، وتتبع أواصر الدم، ومراقبة السرطانات التي قد تنمو فجأة في أماكن السلطة الحساسة.وكان أغرب ما في ذلك المنصب أن أحداً بعينه لم يوضع فيه، وظل هكذا كرسياً شاغراً، ومسنناً، وقابلا للكثير من نسج الأقاويل، ومهاباً بإحساس المعنيين بالأمر أنه يراقبهم خلسة.

وكانت من إشراقات أربعين الإفاقة، تلك الزيجات الجماعية التي عقدت لكثير من المعسرين، وأرامل الشهداء والمطلقات، وبدعم مباشر

من السلطان، وأيضاً بمباركة من مجلس الجدات الذي كان دائماً ما يسعى إلى الطهارة.والأجل من ذلك كله أن الرشيد جمع خصيان قصر (المسك) كلهم بما فيهم آدم نظر – دمدوم، وجواريه كلهن بما فيهن اللائي قدمن للخدمة حديثاً، وبعد مشادة كبرى مع السلطانة خرج منها وقسم الطلاق على لسانه، يكاد أن يخرج. جمعهم في إحدى قاعات الفرجة الكبيرة، والتي ما كانت تطرق إلا لدواعي التنظيف أو ترتيب الوسائد:

جميعكم أحرار في اتخاذ قراركم، من أراد أن يبقى معنا، أهلاً به وسهلاً، ومن أراد أن يرحل، فطرق القوافل كثيرة.. التي إلى مصر، التي إلى تمبكتو، التي إلى اليمن، والتي إلى الحجاز. لن نبيعكم إلى أحد، وقد نشتري غيركم إذا رحلتم.. فما دامت توجد سلطنة.. فلابد من أحد ليخدم.اتخذوا قراركم.. اتخذوه والآن فوراً.

لكن الخصيان كانوا جثثا، الأنسابيون منهم، كانوا بلا شرف يعودون به إلى ذويهم في (جوا جوا) أو الضواحي، أو تجمعات القبائل البعيدة. والذين هم من خارج السلطنة، كانوا بلا خطط يذهبون بها، وبلا أهداف دنيوية، تقفز بهم من بلد إلى بلد. الجواري تغامزن، وتلامزن، وقدرن أسعار أنفسهن لو بعن تلك الأنفس إلى مشترين، وقد فضل بعضهن الرحيل، وبقي البعض الآخر لا يريد أن يذهب.

كان (قلوب المسلاطي) من بين الخصيان الذين استشيروا في اتخاذ قرارهم، كان في تلك الأيام في أشد حالات بؤسه انحطاطا، وبعد أن عينته السلطانة مسك النساء مربيا لواحدة من ورود (الكيالا) النادرة، والتي اشترتها من إحدى القوافل التجارية.كان يسقي عطشها النهم بلا توقف، يحركها للضوء كي تضيء، يعود بها إلى الظل كي تستظل، يرقدها في أحضان صدره الهرموني، ويوقظها في الصباح الباكر مغسولة الوجه، تتلقى القبل من (مسك النساء).مل رائحتها، مل طعمها، وتأذى كثيراً بأشواكها الناعمة التي كانت تنام في صدره.

في تلك القاعة الكبيرة، وحين ألقى السلطان بطوق النجاة المتآكل الحواف ليلتقطه أو لا يلتقطه أحد، تحدث قلوب باكياً:

مولاي السلطان.. لو رحلت بلا مال ولا هدف، قد أموت.ولكن لو باعني جلالتكم إلى تاجر يعرفه، ويوصيه علي، ربما أحس ببعض الجميل.. بعني يا مولاي.. أرجوك بعني.لا أستطيع البقاء هنا.. لا أستطيع العودة إلى ديار المساليط ليراني ولدي هكذا، ولا أستطيع أن أذهب دون هدف.

كان مسكيناً جداً، وفي لحظة انحدار المعنويات من أعلى شجرة (هجليج) في السلطنة، إلى أعمق هاوية من هاوياتها.ابنه لابد قد كبر والآن يتعلم الخط والقرآن، ولو بيع إلى إحدى قوافل الحجاز التي يرتبط سادتها بود مع السلطان رغد، لربما عاش طاهرا، أو مات طاهرا.

قلنا لا بيع ولا شراء يا قلب الأسد.اذهب إلى الحجازيين في مهبط القوافل ولا أظنهم يردون مستجيراً.

ألقاها السلطان هكذا نهائية بلا رجعة، رافعا يدا مزمجرة، وخافضا لأخرى أشد زمجرة.

في ذلك اليوم بالذات، غادر قلوب قصر المسك إلى الأبد، باع كيانه المسكين بدراهم مسكينة إلى تاجر حجازي كان في (جوا جوا) يشتري ويبيع. راقبه (دمدوم) وهو يمضي حاملا قفة من سعف أشجار (الدوم) فيها خرق وزاد قليل، ونبعت في عينه دمعة.. الدمعة التي كان لابد أن تنبع لفراق قلوب القديم الذي كان رفيقا ذات يوم في ذلك المستنقع الرهيب.. التفت ليقول شيئاً، ولم يقل.. ولعلها كانت وصية، أو كان اعتذاراً عن أشياء حدثت وما كان يجب عليها أن تحدث.وفي أحد الأيام وعن طريق إحدى القوافل الحجازية وصلت إلى دمدوم رسالته التي لم يكتبها لكنه حمّلها لأحد المسافرين، وكتبها المسافر على أذن جارية من جواري قصر المسك كانت موجودة في مهبط القوافل:

عزيزي دمدوم.. لا تلمني أرجوك.. لا تلم صديقا يموت في أرض بعيدة.

جملـة باكيـة ومبكيـة، تلقاها دمـدوم مـن فـم الجارية وانكفـأ على وجهه.. لن يلوم قلب الأسـد.. لن يلومه أبـداً، الذي كان يتحرش به، كان يتحرش من غم، والذي أساء إليه، أساء بضغينة ليست من صنعه ولكن من صنع النصيب. لو كان يملك دمعاً أكثر، لحلبه كله، ولو كان يستطيع إعادة الزمـن إلى نقطة البـدء.. نقطة التحويـر، لأعاده. أعاد قلوب قلبا للأسـد.. يسرق الفئران الكبيرة.. يضرب زوجته، ويحمل ولده على الظهر.

وحدهما، وقاعة الحكم تبدو مختلفة الآن، أزيلت عشرات السيوف والخناجـر مـن أماكنهـا علـى الحوائـط، وعلقت مكانهـا رسـوم مرتجلة لحمائم السـلام، تحمل بيـن مناقيرها الغصون الخضراء.استـبدلت وجوه الجاريـات التـي رسـمها المستشـرقون فيمـا مضـى، بوجـوه محلّيـة فيها مزارعـون ورعاة وحطابـون، وأطفال في سـن المهد والرضاعة.وفرشـت على الأرض في ذات البقعة التي كان مسجى عليها جثمان الأمير، أبسطة من جلد الماعـز، معالجة بفن.اليد العارية الآن من خواتم الترف، تسـرح بين الجبهة وخصلات الشعر المضفر، واللسان لا يستغفر ولكنه يتساءل:

هل تحقد علي يا (آدم نظر)؟

مـن حقه أن يحقد، ليس على (رغد الرشـيد) فقط، ولكن على كل واحد في سـلطنة (أنسابة) ينتهي اسمه بيوسـف ضو، فليس الذي حدث لأسـرة صانع الطبول أمر هين. الحـاج الذي لم يحج أبـداً.. الولد الذي هو الآن ضد وضده، وبقية الأسـرة التي لن يعرف أبـداً مصيرها حتى لو لفظ من خدمة القصر.

- أبداً يا مولاي.. إنه النصيب.

صدقت.

رددها الرشـيد وشـيء فـي لسـانه ينكرها بشـدة، النصيـب موجود

بالطبع، ولكن ما أسوأ أن تحكم بالأذى وتورط النصيب.. .اليد الآن يد أب حقيقي، تتنزه في مفردات قطعة منه، لو كانت في أربعين الإفاقة ثغرة واحدة لرد هذا المسكين إلى حياته، لأدخله، ولكن الطبق مكسور.. ومكسور إلى آلاف القطع:

أكافئك يا صبي.. أعينك ظهورياً في كتيبة حرسي...هل تقبل؟

الخطوة الملائمة في مشوار الحلم القديم.. يفكر دمدوم بصعوبة، ظهوري في كتيبة حرس السلطان، ما هذا الشرف غير المنطقي.. وهو يعرف والسلطان يعرف أن تلك الوظيفة ليست لأمثاله:

أتشرف يا مولاي.. ولكنني خصي.. ودستور (أنسابة) لا يسمح، هل نسيت جلالتكم؟

فليكن.

زمجر الرشيد بحدة.. وعضلات شبيهة بعضلات الصائحين انتشرت على رقبته..

- فليكن.. ما زلت سلطان (أنسابة) الذي يملك الاستثناءات، ومثلما صارت المغنية الفقيرة جدّة في مجلس (السحابة)، يصير الخصي ظهورياً في كتيبة السلطان.. والآن اذهب لتتدرب.. اذهب..

كنسه بإشارة مباغتة خرج على إثرها يتخبط.مؤكد أن السلطان في واحدة من لحظات انعدام الفطنة التي تحدث أحياناً تحت مساءلة الضمير.والخصي الهرموني لا يمكن أن يكون ظهورياً أبداً.. ومهما تدرب فلن تكون حمايته للظهر أكثر اتقاناً من عجنه للحميض، وطحنه لأرادب الذرة والقمح في قصور الترف، ومؤكد أن مساءلات الضمير لا تجلس عند السلاطين إلا فترة قصيرة تقوم بعدها، وتذهب دون عودة، ومؤكد أن الغد القريب يحمل في طيه تراجعاً ناضجاً عن قرار غير ناضج، تلك الترقية الغريبة لخادم إلى ظهوري.

تدرج دمدوم في مشيه حتى وصل إلى أكواخ الظهوريين التي كانت

ملحقة بقصر المسك، وتسمح لشاغليها بالوجود الوقح حتى في مخدع السلطان، متى ما نادتهم الوظيفة.يعرف (عجيب تمبولي) الظهوري الذي كان من قبيلة التنجر، قبيلته، ويحتفل تلك الأيام بمرور أربعة عشر عاماً قضاها في حراسة السلطان. في أيام أربعين الإفاقة، كان النظام في قصر المسك قد تهلهل، وكان من الممكن لخادم عادي أن يتسلل في الليل باحثا عن (جوا جوا) التي يسكنها ولا يعرف وجهها الحقيقي، ومن الممكن لجارية سيئة تغذية الجسد، أن تعثر على قليل من التغذية في شوارع مظلمة وضالة، ومن الممكن جداً لخصي مثل (آدم نظر)، أن يمضي بلا حذر ليلامس أكواخ الظهوريين التي كانت ملامستها جزءا هاما من ممنوعات قصر المسك الكثيرة والمتشعبة.

لم تكن المرة الأولى التي يزور فيها (تمبولي التنجري) في أثناء ليل عادي أو غير عادي، ولكنها الأولى وداخل الذهن حروف عبدة تتشوق إلى الحرية، ولوحات رسم باهتة الألوان، تسعى إلى إكمالها. (أنسابة) كلها تعرف حياة الظهوريين التي لم تكن أسراراً خافية، ولن تكون. أهل النعمة غير المنغمسين في الحياة الصعبة، ولا المبثوثين في أحياء الفقر، ولا ضعاف الأنفاس الذين يلتقطون الشهيق مؤلماً، ويردون الزفير أشد إيلاماً.وهم المأخوذون من أثداء أمهاتهم صغاراً، ليربوا في المحيط السلطاني، وبإشراف غريب الأطوار يشرف حتى على نوع ابتساماتهم، واختيارهم للعواطف.لا فرح إلا ذلك الذي يلح في وجه السلطان، لا حزن إلا ذلك الذي يبكيه، ولا فقد ستهتز له الدنيا بإثرها إلا فقد سلطان في أثناء سيره أو احتفاله، أو تلقيه للصياحات.وبتلك الرماح المسننة من العواطف، وتلك الإبر الحادة الأطراف، كانوا يتدربون، يتدربون على الموت.. في نار تشتعل، في مرمى سهام ترشق، في أحضان سيوف خارج أغمادها، في حفظ روائح السموم بأنواعها كلها، وحتى في التعرض للصواعق في خريف (أنسابة) الجليل.وحين يخرجون في رفقة السلطان

لا يتسمرون في الظهر فقط، فهم في الظهر، والأمام، وفي الجانبين، وحتى تحت الجلد إن دعت الضرورة.تغنى الفتيات في حب الظهوريين أغاني تذيب القلب، يتطلع الصبيان إلى عز الظهوريين منبهرين، وتفصل الثياب الرخيصة وعلى واجهاتها رسوم لظهوريين يحمون رمز (أنسابة). الظهوريون لم يكونوا رعاعا، هؤلاء ليحموا مباشرة، وأولئك ليحموا ولكن من بعيد.وطوال وجود تلك الفئة، والتي كانت المحاولات تجري باستمرار لتجريدها من غرائز الجسد، في تلك الأكواخ المحيطة بقصر المسك، كانت ثمة شكاوى، وثمة روائح غير مستحبة، وأحداث تجري حين يغمض الليل عيونه، وعشرات الحكايات عن تسللهم إلى الدواخل المخفية في قصور الحرير، وتنزههم في القلوب الغضة التي تتآكل في تلك الدواخل.

كان (تمبولي) ساهراً، وعلى نكهة البن، كان يجهز ثوبه، ولثامه، وخناجر الخدمة لارتدائها في صباح حراسة السلطان.وعلى ضوء الفانوس الهزيل الذي كان يعطي لخياله المرتسم على الحائط فخامة غير اعتيادية، بدا الفرق واضحاً لدمدوم.فرق العضلات المفتلة، والهرمونات المميعة، وجه النمش الغزير الشارب، ووجه اللمعة الذي بلا شارب، بطن الغازات الزاحف إلى الأمام، وبطن الضمور المضموم في الجسد، حوض التحور الواسع، وحوض الخفاء الذي لا يبين.جلس على حصير ملون في أرض الكوخ، وبذاءة المقارنات لا تفارق الذهن أبداً، يريد الرشيد تنقية ضمير قد تبقى شوائبه لاصقة إلى الأبد، ويكافئه بضخه ليّنا وسط تلك العظام الصلدة، الذي تدرب على الخوف، الانحناء، تنسيق الحدائق، عجن الحميض والذرة، ومرارة (الهجليج)، وتقديم ماء الورد مهيّجا، ومرطبا، وأيضاً مخدرا للحواس، لا يحمي سلطاناً يحتاج تمبولي وخياله الكبير على الحوائط، واسمه في أغنيات البنات، الظهوري الحق، لم يقرأ حظا تالفا.. كما هو إلى الأفضل، لم يصنع حساء جارحا، لم يتلق صفعة من

أحد، ولا كان صاحب الوجه الذي تشوه من البصق.يستطيع الحياة متى ما تقاعد، لأن أشياءه العزيزة لم تسقط، ولا يستطيع مائة تاجر حجازي شراءه بتلك الدراهم المسكينة التي باع بها قلوب عمره.

يسأله تمبولي وفي يده قدح بن يتصاعد منه البخار:

هل من مشكلة يا دمدوم؟

لا أبداً.

وهذه التعاسة على وجهك؟

تمبولي يقرأ التعاسة الصغيرة والتافهة والمحتملة على الوجه، ولا يستطيع أبداً أن يقرأ التعاسة الكبرى التي هي مقرها القلب.يتجرع البن في صمت، ويراقب الهيكل الظهوري في استطالته وتضخمه على الظلال، الآن يتحدثان عن قبيلة التنجر، عن العادات والتقاليد والمخازي، وأنواع الحشرات والزواحف التي ترافق الخريف دائماً، يحكون عن أسماء تنجرية لمعت وانطفأت، وعن الفخر الكبير الذي حققته القبيلة حين انفردت بمعالجة فراء الثعالب المعد للتصدير، كان تمبولي يحاول العثور على خيوط غير محرجة تقربه من ذهن ولد من قبيلته حوره النصيب، ويحاول دمدوم أن يبتعد قدر الإمكان عن الدروب التي قد تؤدي إلى إهانته وانكساره. تحور ولكن لم يمت، وما دام لم يمت، فليعش. يمضي الليل عادياً، ومثل أي ليل، والنقاط كلها، على الحروف كلها، ووظيفة المجد التي تفرض عليه الآن، ولا يستطيع رفضها، تساهم في إيقاد التعاسة. قد يستطيع ملئها، ليس كلها ولكن ربعها على الأقل، ربعها الذي قد يكنس قليلاً من شوائب الضمير التي أراد السلطان محوها بالكامل.

-20-

جمعة (الكوراك) الأولى بعد أربعين الإفاقة، والتي أمر الرشيد فيها رفيقه، وسنده الجديد (دمدوم) أن يخرج إلى ساحة الصياحات المواجهة للقصر، يختلط بالصائحين، يرج صوته ويصيح مطالبا بضمه إلى فصيل الظهوريين، حماة السلطان من كل سؤ وفي أي وقت. كان يريد أن تعرف (أنسابة) كلها أن ثمة خادماً خصياً قد تعدل وضعه، وثمة آخرين قد تُعدّل أوضاعهم، ويرتقون إلى مجد محتمل لو أحسنوا التصرف. يريد في حمى لسعات الضمير، وحمى الغسل التي انتابته أثناء أربعين الإفاقة أن يرى الجميع بساطاً كريه الرائحة يغسل أمام أعينهم، ودماً متخثِّراً بشدة، يُزال تخثره، وبغض النظر عن لوائح السلطنة التي يُكلَّف المستشارون بإحكامها باستمرار، ويملك هو الطرق التي تخترق ذلك الإحكام.

لم يكن دمدوم مقتنعاً بالفكرة. فكرة أن يخرج إلى ساحة فيها آلاف العيون والآذان وأنوف الشم، التي قطعا تعرفه، ورأته وشمته، وتميز اسمه وصوته القديم.وربما أيضاً يمت بعضها له بصلة القرابة، في هيئته المحورة تلك، يخاف ضوء الشمس، ويخاف أن يحمل الهواء المسنن إعياءه إلى أماكن لا يريد أن يصلها الإعياء، لكن أمر السلطان كان أمرا، وتنفيذه حادث لا محالة.

كانت إجراءات فصله عن قصر المسك وإسكانه في واحد من تلك الأكواخ التي تخص الظهوريين، قد بدأت بالفعل، ووسط جو كافر، وتافه اللغة، ومسنن الكلام بين السلطان رغد، والمرأة التي تحكم الداخل المخفي للقصر، حيث من المفترض أن يأتي السلطان رجل بيت فقط.

ويغادر رجل بيت فقط.كانت ما تزال تحت تأثير غسيل ماء الورد وتوابعه التي تقسم أن دمدوم كان أبرع من خاض فيها.. أبرع من ينظف، أبرع من يكسر القسوة، وأبرع الذين يلبون الحاجات وهم نائمون.ومن أجل هذا كنست الجارية (سلافة) ببيعها، وكنست جاريات أخريات إلى الطرق. وقد تكنس المزيد فقط فليبق دمدوم.أبرها الرشيد بجاريتين فارهتين وصلتا حديثاً إلى (أنسابة)، وخصي جديد أيضاً كان قادما من نواحي بلاد الزنج، وعد بتغيير أثاث خشب الورد، وقماش الستائر، وكاد أن يعدها بجلب رسام الذنوب الإيطالي لرسمها مرة أخرى، لكن وجوه وفد الكاثوليك نطت إلى ذاكرته.. من يدري، قد يرسم ضياعا أشد، وقد تأتي هذه المرة جماعات حفظ النوع والرفق بالحيوان، وربما جاءت الجيوش المحملة بالبارود لتقضي على (أنسابة) تماماً.. عندنا من الأعباء ما يكفي.

رضيت السلطانة على مضض، لكن شيئاً قفز من نظرات عينيها، وتوجه إلى الظهوري الجديد، وكأنه أمر..

تتبع عيون الليل حين تغمض، تسلل خفية.. تعال.

أظل (الهجليج) بعادة الظل التي يتقنها، امتلأت الأزيار الفخارية بعادة الامتلاء نفسها، وتلملم الأنسابيون لا ليصيحوا بحاجاتهم فقط، ولكن ليلتقطوا أي تغيير قد يكون استحدث بالفعل في جمعة (الكوراك) الأولى بعد أربعين الإفاقة.كان ثمة خصيان بلا عدد، أولئك الذين كبروا في العمر والمأساة، وما عادت تضنيهم تساؤلات الطرق، ونظرات عدم الاستحسان. ثمة أولياء أمر لدواب محجوزة في مستنقع الرعاع لم تبرحه، أطفال أوفياء يسألون عن أب، وبنات صغيرات بضفائر الخرز يسألن عن حلوى.ثمة زخم مبرر وغير مبرر، الناس من حي الرديم يتوقعون أن يروا حدثا قد يهم الحي، من بلاد التنجر والفولاني والداجور، يتوقعون قيامة قد تقوم، من المساليط، من عين صقر، وحتى من سلطنة كردمال التي تخضع الآن لسلاطين (أنسابة).العيون التي

تتقدم وتتأخر، التجشؤ، قرص الجوع، احتمال الثروة، احتمال الكساد، وكل شيء، وأربعين الإفاقة قد انتهت بعد أن أفاق الجميع على موت رجل يكرهونه، ويفيقون الآن على تمدد جمعة يعشقها الجميع.

السلسلة السباعية تنتظم.

الحاجب المجدد ينتظم.

الجليل الأسطوري يهبط من فرسه الأسطوري، ودابة من جنس الدواب تقف، ويهبط من ظهرها رجل المهام الجليلة الجديد. ليس هبوط الأمير مساعد، ليست رائحة السلوك والأخلاق، ولا نظرات الصقور المهووسة، ولا تلك الخطوات المريعة التي يفر من إيقاعها حتى الوحل.مساعد فصل للرعاع، والجديد ربما فصل لمهام أخرى، ولا يعرف أحد فلسفة الرشيد التي ألبست صبيّاً ثوباً هو في الحقيقة ثوب عائلة كاملة.

- السلطان في مجلسه ويتلقى الصياح.

كانت (حرة المسلاطية) زوجة قلب الأسد الذي تحور إلى قلوب، قد بدأت الصياح هذه المرة أيضاً.سبعة أعوام رزيلة مضت منذ أن صاحت بالطفل الأجرب، والحواجب المنتوفة، وألغت من صنف الرجال زوجا ربما كان عاديّاً جداً حين سرق وحين ضرب ودلق الطبيخ، وحين استولى على شبع الغير حتى يشبع.الآن تبدو (حرّة) أخرى، ثيابها ممزقة بصدق، حاجباها منتوفان بصدق، وحبل من التيل يرقّع حذاءها حتى لا يتبعثر في الطرق، وكان يتبعها صبيها الذي كان صغيرا فيما مضى وكبر، يسندها بيد رقيقة، وجافة، ويدفعها إلى فوهة الصياح دفعا.. أسرعي يا أمي.. اسرعي.. لكن الصغير ما كان يعلم، والمسلاطية نفسها ما كانت تعلم، أن قلب الأسد الذي يخبون في شأنه الآن، لم يعد ممكنا، الذي حوره لن يرده، الذي اشتراه من تجار الحجاز، لن يعيد بيعه، والدراهم المسكينة التي تلقاها من بيع النفس، هي أكثر الدراهم مسكنة في العالم كله.

أريد زوجي قلب الأسد.. سامحته يا مولاي.. أريده يا مولاي.. أنا مسكينة.. أنا مشرَّدة.. أنا أم.. أعده من كتيبة الرعاع.. أرروك.. أرروك..

أمهلوها من قبل عامين لتصيح إن أرادته، ولم تأت، وكان ثمة عام ثالث كان فيه قلب الأسد ناقة لم تحور بعد.. ولم تأت أيضاً.. كانت سجينة لهواها، وتحررها في بيوت تجار المساليط، سجينة للعرق الذي كانت تصبه، والكؤوس التي كانت تقدمها، مكشوفة الثديين، وسجينة أهواء العازبات اللائي لا يفقن إلا والزمن قد لسع، والأيام كبرت، والتجار بسطوة المال يعشقون التغيير، والتغيير ليس في مصلحة واحدة أبادت رجلها. يحبو الصغير في زمن الحبو.. والدي.. في زمن المشي.. والدي.. والآن في زمن التعلم وحفظ القرآن في تلك الكتاتيب البعيدة.. أريد عودة أبي..

الدقائق المعتادة للرد، والمسلاطية تقاوم دموع عين أو قلب أو دموع عمر كامل، وتشد ابنها إلى قلب ربما يريد أن يعتدل بصدق.. ثم:

- حرة المسلاطية.. زوجة قلب الأسد المسلاطي، زوجك غير موجود في السلطنة، ولا يعرف أحد مكانه، لا تصيحي في هذا الشأن مرة أخرى.

لم يتعاطف أحد، ولم تتحرك الدموع في عيني أحد، وحتى حين أغشي على المرأة، وضاع الكثير من تنفسها، لم يسع أحد إلى ماء يرشه على وجهها. كان الصغير الآن ضائعا.. يتلفت بلا هدف، ويحاول أن يفهم اللغة التي لن يفهم مفرداتها أبداً.

أولياء أمور دواب تحورت، ودواب ركبت في الطرق، وغارات المداهمة، وأضداد لن تستقيم ظهور شرفهم مرة أخرى، وشيخ طاعن في العمر يصيح بالصوت القديم واللاهث:

- مولاي السلطان.. أريد ولدي شبرق.. أعرف أنه كان فرساً للأمير،

ولا أعرف مصيره الآن.. أريد ولدي.. ارروك.. ارروك..

الدقائق القلقة نفسها، وذيل السلسلة يصرخ.

الشيخ الشباريقي.. والد شبرق.. ولدك مات منذ أعوام.. مات من حمى مجهولة، لا تصيح في هذا الشأن مرة أخرى.

وقف (حلحلوك) المجنون وقفته ذاتها، ومن حلقه الذي لم يغب عن الصياح جمعة واحدة منذ أن جن أو منذ أن تعرف على جمعة الصياح صرخ:

أريد طبقا من صقور (جرناس) متبلاً بالثوم والبصل ومنقوعاً في خل القصب، وملوَّثاً بسم فأر من فئران الجقر.. أرروك.. ارروك.

ولدهشة المتجمعين كلهم، قفز صياحه بعد أكثر من خمسين عاماً إلى حلق ذيل السلسلة، بقية السلسلة، والرد يأتي راكضا وبأسرع مما توقع الجميع:

حلحلوك البرني.. حلحلوك البرني.. أجيب طلبك بشأن طبق الصقور المتبل بالسم، ويرجى الانتظار حتى نهاية الجمعة.

كان أعقل مجنون في الدنيا كلها حين لقى بجنون التعساء تحت شجرة هجليج ظليلة، وفر من مجلس (الكوراك) فرار ريح.لم يضحك أحد لأن لا أحد كان بوسعه أن يضحك، لم يبك أحد لأن لا أحد كان بوسعه أن يبكي. كان حلحلوك رمزا كبيراً من رموز (أنسابة)، وطوبة مدهشة في ذلك الطوب الذي يكون مجسَّم (الكوراك)، وما دام فر، فقد سقطت الطوبة المدهشة.

كان (دمدوم) متخفياً في وسط الجمع، ويرسل البصر من حوله في وجل، وارتعاش قلب.ماذا لو جاءت الرزينة وصاحت تريده، ولو استجاب السلطان، أمره بالعودة إلى ذويه؟. كيف يعود ولا ثغرة في الحياة تسمح بعودته؟. انتظر حتى شارفت الجمعة على الانتهاء، وبدأ ستار من ليل التخفي يزحف، ثم تقدم من ذيل السلسلة بعد أن أحكم

لثامه على الوجه:

- مولاي السلطان.. أريد أن أصبح ظهورياً.. أريد أن أحمي ظهرك من الأعداء.. أريد أن أفديك بالعمر.. أرروك.. أرروك.

التفت المتجمعون كلهم مذعورين، تهامسوا مذعورين، وتلامزوا مذعورين، وكأن بعضهم تساءل.. أليس هذا ابن صانع الطبول الذي صاح يريد أن يصبح أباً شيخاً؟.. أليس هو أخ الفتاة التي صاحت مرتين وانكسرت؟ أليس الذي حوكم ببذاءة الألسنة وأخذه الرعاع؟ .لكنه خصي الآن، ويطالب بوظيفة الشرف.. ما أغرب هذه الجمعة؟

كانوا لا يعرفون ولن يعرفوا أبداً:

المواطن التنجري (آدم نظر).. المواطن التنجري (آدم نظر).. أجيب طلبك من مولانا السلطان.. اذهب لتسلم الوظيفة.

لا يعرفون الطبخة التي مزجت ببهار شديد اللسع، ولا يستطيعون التذوق.. غير منطقي.. في الشوارع..

غير منطقي في البيوت..

غير منطقي في الحفر.. في الأسواق.. في الأصقاع كلها، في بيت الجد (سند) في قرية (أم حراب) حيث الأم زوجة تحتضر لزوج يحتضر، وفي المقابر الفقيرة حيث الأخت ترقد، وفي متجر العطور التافه حيث جبروتي ولد الحُور يخترع ويوزع، ويجيب على أسئلة التنجر التي ظلوا يطرحونها بجلافة لثلاثة أعوام كاملة دون كلل..

- لماذا قتلت الزينة يا ولد الحُور وأنت لا تستحقها؟.. لماذا رفضتها بعد أن جاءتك حتى ديارك؟ لماذا؟ لماذا؟

ثم لتأت تلك الرسالة الكريهة كره العدوّ.. التافهة تفاهة روث الغنم.. المكتوبة بأقلام ترقيم البقر والتي فيها رائحة عطر السطوة المجدد..

(عزيزي دمدوم نظر.. أبارك لك المنصب الجديد بالرغم من كل

شيء.. وبالرغم من أنك قد تلومني على موت أختك وقد تحقد علي.. صدقني أنا صديقك حتى الآن.. وأزور قبر الرزينة باستمرار.وأسأل لها الرحمة.. فقط لا تنسني في زحمة أعبائك الجديدة.).

لكن الرسالة لم تصل أبداً، وصلت إلى يد الظهوري الجديد، ومزقها عن وعي، لأن تذكر الماضي لم يعد يهمه، وما يأت من ماض مهما كان حلوا، لن يهز في تذكره شعرة، لا يريد أن يعرف شيئاً عن الحياة في أم حراب، لا عن أم ولا عن أخت، أو ولد حور يعده الآن أسخف ولد حور في (أنسابة) وما جاورها من الدول.

انتهت الجمعة بخيرها.. بشرها.. بلمسات تغيرها، بكلاسيكية الجروح التي غرستها، الذين أجيبوا إلى طلباتهم، لموا الإجابات والابتسامات، وانصرفوا، الذين لم يجابوا أو استحالت إجابتهم، تاهوا وتمزقوا، والذين كانوا متفرجين فقط، تفرجوا حتى شبعوا.تزاحم الكثيرون ليلقوا النظرة القريبة على الظهوري الجديد صاحب الحوض الواسع، وحتى الظهوريون الحقيقيون ممن كانوا يزركشون مجلس السلطان في تلك الجمعة بدوا مستغربين، وسالت من (عجيب تمبولي) التنجري، نظرة بله ما كان يجب أن تسيل من ظهوري أبداً.لا يعلمون الطبخة ولا يتذوقون بهارها، وحتى لو علموا، فلا مجال للتذوق.

كان الرشيد هادئاً في جلسته، هادئاً في إجاباته، وعدم إجاباته، وحتى في قهقهته التي كان يرسلها في هدوء آسر.الأب الشيخ يبدو وجِلاً، وخائفاً من قدر غريب الأطوار يتربص به، يريد أن يكلم السلطان، ولا يقدر، ويستغرب من اقتراب صبي محور، كان في الأصل عدوا طبقت في حقه بذاءة الألسنة، إحدى لوائح (الكوراك) التي لا تطبق إلا في ساعات الهلع.يريد أن يستفسر ولا يقدر. دوباجي الحكيم لا يستغرب أبداً، والذي عين فيما مضى كبيراً لممارسي الطب في (أنسابة) بوجود ممارسين يطبون حتى الجن، لا يستغرب.كردمان المحايد والغريب،

والـذي اسـتوحى من تلـك الجبـة المزركشـة للأميـر مسـاعد، إضافات عديدة لجبة المستقبل السلطانية، يبدو الآن أكثر حيادية لأن أذنه حتى لم تكن مشـغولة بما يجـري، لاليا البرناوي أفتى في سـره فقط.. أفتى بعدم جـواز اختلاط الخصيـان بكتيبة كلهـا عضلات، وكلها شـهوات مؤجلة، وقائد الرعاع الجديد، يبدو جديداً حتى في طريقة رده على استفسـارات السلطان حين يستفسر..

انتهـت الجمعة الأولى بعـد أربعين الإفاقة بجـدارة، وجاءت مائدة العشاء الاستثنائية كثيفة ومتنوعة، وجاءت (جديلة) مغنية الفراق والحزن لتمحـو ما تبقى من أسـى.. وأثنـاء دخوله إلـى القصر ليلم نعـاس الليلة الأخيـرة، كان دمـدوم منتعشـا، التقـى بزمـلاء الخدمـة وأظهر انتعاشـه، بالجـواري وأظهر انتعاشـه، وحاول أن يغفو لكن انتعاشـه لـم ينم.. من يدري، ربمـا كانت تلك هـي خطوة الحظ التـي ترتفع به درجـة أعلى.. درجة (يوسف كرا) التي حلم بها ودمرته، وما دام قد تدمر فليكن حالماً جديداً..

-21-

الرهبة من السكنى في أكواخ الظهوريين المبثوثة في تلك الدائرة الواسعة والغامضة، ليست هي المسألة.وأسماؤهم التي هي أسماء الشتات المتجمع في شعور واحد، عاطفة واحدة، ونفور واحد.. الحارث.. سواهيل.. نجمي.. هطيل.. الوزاع.. تمبولي.. ليست هي المسألة.ولغة النظرات التي خاطبوا بها الظهوري الجديد عند انتقاله إلى تلك السكنى القريبة من بؤرة الأحداث، ليست هي المسألة أيضاً. ولكن الشعور بالدوران، الدوران عند النقلة، عند ابتداء الاستقرار، وفي ساعات التدرب الطويلة التي يجب أن تنجز كلها.

التم دمدوم في زخم العراك الجديد، التم بلا لوازم سابقة هي من لوازم الأضداد وأضدادهم.لا كحل في العينين، لا ضفائر للشعر، لا مرطبات أو أكاسير لإبراز وجه الهرمونات، ولا مشية مهلهلة الخطوات من تلك المشيات التي فصلت له في مستنقع الرعاع حين كان لابد من تحويره.سلمه الرشيد نظرة أبوية مشجعة، وكتاباً موقَّعاً من رأس السلطنة في (أنسابة) إلى الفقير (بابنوسة) قائد فصيل الظهوريين السلطاني.برجاء ضم المواطن دمدوم نظر إلى فصيلكم ظهوريّاً جديداً، وعمل اللازم. وسلمه (بابنوسة) كوخا مشابها لتلك الأكواخ، وحصانا أبيض اللون وفي عنقه غرة، وسيفين لامعين، وستة عشر خنجرا حادة النصل، وعدة أثواب وسراويل من قطن وصوف ومخمل، ومدون على كل زي أيام ارتدائه، وأيام غسيله، وفي أية مناسبة يجب أن يلمع، أية مناسبة يجب أن تجف لمعته.

هذا للزركشة في مجلس (الكوراك).

هذا في مواكب ذكرى أعياد الجلوس.

- هذا في رحلة الصيد في الأحراش.

هذا إن زار مزرعة أو جبلا أو قرية فيها نساء مسنات.

هذا في وقت الخروج للحرب.

هذا في يوم النعمة السنوي.

كان النظام صارماً بلا شك، ساعات نوم الليل مراقبة بشدة، وساعات استيقاظ النهار فيها تهافت على لم العضلات، والجسد الفذ، ومحاولة القفز أعلى من أي نسر يطير.لم تكن التغذية هي الحميض المسهّل للبطن، ولا الدخن القابض لها، ولا وجبة الحمص المنقوع في زيت (الهجليج)، والذي يجعل الرؤيا تغيم والحواس تتشتت، والدواب المحورة تظن أنها دوابا فعلا، كما كان يحدث في مستنقع الرعاع.كانت تغذية ملائمة، يلتهمها الجسد وتبنيه، ويحبها العقل ولا تبعثره، اللحم، الدجاج، عسل النحل، وطحينة الفول المخلوط بالأكاسير والمستوردة خصيصا لبناء البصر.

استلم الجديد الأشياء كلها، واستلم نظرات كبيرة وفاحصة، من قائد الفصيل، كانت هي أكبر النظرات التي تفحصته في حياته كلها.مد القائد عصا غليظة السمك، تحسس بها صدر الهرمونات الممتد، أنزلها إلى البطن الغازي نقر على غازاته، إلى الردفين المدورين، دار معهما، إلى المؤخرة التي تتماوج، مد شفتيه في تشاؤم، مسح عن وجهه عرقا لم يأت من مجهود، وردد بصوت بعيد تماماً عن قرار السلطان، لا يمت إليه بصلة:

آسف يا أخي.. لست الظهوري الذي يحمي دجاجة من ديك..

ثم بسرعة كبيرة يلتقط خيط الفطنة الذي لاح في الوقت المناسب:

لكنني سأبنيك.. أعيد صياغتك من جديد.

كان (بابنوسة) ظهوريّاً قديماً جاءوا به من جبل (الكردوس) طفلاً

ليربى في تلك الكتيبة، وبرغم تجاوزه لسن الحماية القانوني، وتعيينه مسؤولاً عن صياغة الظهوريين، إلا أنه استطاع الحفاظ على جسده باسقاً، على عينيه لماحتين، على ذهنه متقدا، وعلى صوته الكبير.. كبيراً في أي وقت.في أثناء خدمته الطويلة استطاع المشاركة في حماية السلطان من عدة مؤامرات حيكت له من قبل أعدائه الكردماليين ومن أنسابيين كانوا يكرهون حكمه. إرسالهم للهدايا المسممة، دسهم لقتلة في ثوب مضطهدين فارين، وتلك الجارية التي كانت مدججة بالخناجر، وأوشكت على رشقها في صدر الرشيد أثناء أحد المواكب.وأثناء خدمته الأخيرة كمسئول في صياغة الظهوريين، لم تجابهه محنة شبيهة ب(آدم نظر). كان المنتقون يرسلون إليه أطفالاً وذوي عظام لينة كان يعدل من توازنها كما يريد.لكنه الآن أمام معضلة، معضلة التكفير عن ذنب، وفي وقت متأخر جداً. الوقت الذي قد لا يسعف لشرب قطرة ماء ولا يستطيع أن يرد الخصي خائبا، لا يستطيع أن يفكر عكس مشيئة السلطان.

لغة التدرب.. أغنيات الحماسة المجنونة.. ألفاظ قهر النفس، هيلاهوب.. ارتفعوا.. انزلوا.. تقدموا.. تقهقروا.. اقتلوا الأفعى.. خنجر في الظهر لموا الرجلين.. أرسلوا العيون.. تنفضوا..

وبوجع الهرمونات.. يا وجع الهرمونات، يتغلغل الظهوري الجديد في السعال حتى يسقط.. يقوم.. يسقط، يحس بالبطن يضمر، بالصدر يستحي ويتوارى، بلياقة الجسد تعتدل لكنها لا تستقيم تماماً، يهزه (تمبولي)، وبنظرة البله نفسها.. تشجع يا دمدوم.. تشجع، و(بابنوسة) يكتب التقارير ويعدلها، ويقيس الجسد في كل يوم مائة مرة.

كانت علاقته بقصر المسك الآن علاقة غريب بغرابة، وجار انطوائي بجيران انطوائيين، يتطلع أحياناً، يلمح الأضواء والظلال، ورؤوس الجواري التي تتحرك من فراغ أو انهماك، يتطلع إلى ناحية المخدع السلطاني الذي عمل فيه سنيناً، يشم رائحة وردة، ورائحة حنظل، يستعيد

غبطة أو دموعا، ماء الورد أو صفعة الخد، يتوقع السلطانة تزمجر، ويكاد أن يرى (رغد الرشيد)، متخففا من أعباء سلطنته، يتلذذ بشراب ورد دافئ، يتحين اللحظة الدقيقة ليهز خصرا غير موجود، ويمد اليد المترفة بالخواتم، يتحسس بها لا أحد:

ذنوبنا على الأرض.. ذنوبنا يا مسك.

في إحدى الليالي الشاقة والمملة، والمفترض أنها ليلة نوم طويل يعقبها فجر استيقاظ نشط تعمل فيه الحواس كلها، أحس دمدوم بخطوات رفيعة تنتظم أمام كوخه، وسمع طرقا أرفع على خشب النافذة الوحيدة في الكوخ. توقعه (عجيب تمبولي) التنجري، يأتي من ملل أو كآبة كما كان يحدث في كثير من الأحيان، قام، فتح، وكانت مفاجأة له، فقد كان القادم إحدى الجواري الأعجميات، ممن تم اقتناءهن مؤخراً من إحدى قوافل فارس التي عبرت من الحجاز إلى (أنسابة).. كان اسمها (فرّوخ لقا)، وكانت خضراء في العينين، والقامة، وألحقت بالجناح السلطاني حين كان الفراغ قد حدث باختفاء دمدوم. ولأن مسك النساء شمت في عنفوانها، عنفوان راهبة، ولمست في يديها آثار خدمة متمكنة.وقد كان دمدوم متعجبا من اسمها باستمرار، ينطقه ولا يجيد نطقه، والسلطانة مسك النساء أيضاً، أنفقت أياما طويلة حتى اقترب اسم الفارسية من ذبذبات لسانها.نطقته فرخة وفراخاً إلى أن اعتدل. وباللسان الأعجمي الذي لا يكاد يميز بين حرف مرفوع وآخر مجرور، رددت؛

- يريدونك في القصر.. أسرع..

ثم اختفت في الظلمة الكثيفة.

كانت (يريدونك) هي الكلمة التي ظل دمدوم متوجسا بشأنها، وخائفاً أن يسمعها منذ أن انتقل إلى أكواخ الظهوريين.. يريدونك التي قد تكون ناعمة، وقد تكون خشنة، وقد يكون وراءها ما وراءها، وكانت (أسرع) الخاطفة، والإلحاحية، كلمة أخرى قد تزيد الخوف تعقيدا، يرتبها

في الذهن.. يريدونك أسـرع. أسـرع يريدونك.. ولا يستطيع التحقق هل هي الناعمة التي تريد ماء الورد المدلوق في سـاحة استحمام ليلية كئيبة، أم الخشـنة التي ربما هـي صادرة من السـلطان رغد لأمر ما لا يسـتطيع معرفته.. يريدونك.. أسرع، سـيلبي.. لأنه لابد أن يلبي في كلا الحالتين من تلـك (اليريدونـك).. تلملم في ثيـاب الخصيان القديمـة التي رافقته إلى الكوخ ولم يرد أن يلغيها تماماً لإحساسه أنه قد يعود ذليلاً إلى قصر المسـك في أيّة لحظة، ومضـى يراقب عين الليـل المغمضة، ويخاف أن تنفتح فجأة على ظهوري متخف يحاول الولوج إلى القصر، حتى لو كان ذلك الظهـوري خصيّاً مشـبَّعاً بالهرمونـات. تتكرر مثل تلـك التخفيات، تتكرر باسـتمرار وغالبا ما يتخفى الظهوريون المتسـللون في هيئات مثل هيئته، لم يكن مـن المفروض أن يوجد هناك، وبرغم اسـتدعائه من قبل حـكام الداخـل المخفـي، إلا أن اكتشـافه قـد يكون هـو الثغـرة التي قد تدخل منها الريح الفاسدة، أو تخرج منها الريح التي تسعى إلى الفساد.. الجاريات المحبوسات، واللائي قد يبحثن عن ري لعطش العواطف.

كان يوجـد في قصر المسـك من ظهره المواجه لسـكنى الظهوريين باب صغير من خشـب الزان، يستخدم في الحالات الطارئة، وحين تكون ثمة ضرورة للحماية حتى يلبي الظهوريون بالسـرعة المطلوبة.. تسلل منه وأنغمـس في الداخل عابـراً الممرات وصالات لكـز النظر.. إلى مخدع السلطان.

كان (الرشـيد) هناك، وكان متخففا حتى مـن خواتم الترف، ومنامة من حرير أحمـر كانت تغلـف جسـده.كان عرقانـا، ويلهث، والسـلطانة تحاول مداواته بإكسير ذهبي صبته من زجاجة:

- أبعديه.. أبعديه يا مسك.. لا أريد أكاسير..

وقف دمدوم بحيث سقط الكثير من كيانه الممتد على بصر الرشيد..

- تعال يا خصي.. اقترب..

الصـدر يعلـو وينخفـض، العرق يغـزر ويجـف، واليـد الخالية من الخواتم تقبض على موضع السكينة في أيسر الصدر..

لا إله إلا الله..

في البدء حيـن جاء خادماً محـوَّراً.. كانت المنـاداة يا خصي.. في الوسـط حين اقترب أكثر، وحين لفته ملاءة تعذيب الضمير.. أصبحت يا دمـدوم.. والآن تعود صياغة العار لتناديه في صوت الرشـيد مرة أخرى. لا يسـتطيع دمـدوم أن يفهـم السـلاطين، ولا يسـتطيع أن يقدر سـاعات استيقاظ ضمائرهم وسـاعات نومها. أحياناً يظنهم وحوشاً شرسة، أحياناً آباء عظيمين للغاية، وأحياناً لا هذا ولا ذاك، والآن هو بالضبط في لحظة اللاهذا ولا ذاك..

يسحب الرشيد يده الخالية من موضع السكينة.. يعيدها:

اقترب.. اقترب يا خصي.

وقف ساكنا يتأمل الضعف السلطاني، في الضوء الملون، الآن خف العرق، تضاءل اللهاث، انتصرت عينا الثبات، والحمد لله.. الحمد لله.

بغتة سأله:

هل ما زلت تكرهني؟ ما زلت تحقد علي؟

أبداً يا مولاي.. أبداً.. أبداً..

إذن لماذا تقتلني؟.. أقصد لماذا تجيئني في الحلم قاتلاً وليس شـاكراً للجميل؟

إذن فقـد كان في الأمر حلـم.. كابوس.. وفيه قاتـل ومقتول، لكن دمدوم لن يكون القاتل بأي حال من الأحوال، قد يكون المقتول، الدابة، المحـور، الـذي بلا أمل، ولكـن ليس القاتل.فـي حياته الشـاقة في قصر المسـك، سـنحت له مئات الفرص لقتل السـلطان حقيقـة، وليس داخل حلـم.. القهوة الليلية، شـراب الـورد الدافـئ، وحتى الأكاسـير التي كان يقدمها حين تطلب.. ولكن فكرة القتل لم تكن تخطر على باله.. .

لا أدري يا مولاي.. حقيقة لا أدري..

أسمع..

يستند السلطان على كتف كرسي مجاور ليقف..

لسنا ملائكة عظام بلا أخطاء، نحن حكام في الأرض، لنا إشراقاتنا ومخازينا. من مخازينا أنك حورت إلى خصي، ومن إشراقاتنا إنك الآن تتبع لكتيبة الشرف، كتيبة الظهوريين. إذا كنت ما تزال حاقدا، فالحق بقاتل (مساعد) في كردمال.. لن أوظف في حمايتي خصيا يكرهني..

كان انفعاله جمًّاً، ترنحت له منامة الحرير في الجسد الفخم، وتناثر كم من رذاذ الغلظة على وجه الظهوري الجديد. هو الآن في لحظة بائسة، يريد أن يعرف تفاصيل حلم السلطان، ولكنه خائف..

- مولاي هل يمكنني معرفة حلمكم؟.. أتوسل..

يمكنك..

اتكأ السلطان على كتف الكرسي المجاور نفسه ليجلس..

كنا نسير في رحلة قنص في أحراش (جوا جوا)، فرحين ونحظى بصيد وفير، حين خرج فجأة اثنان من بين دغل كثيف، وكانا يحملان الخناجر التي لمعت أنصالها في ضوء الشمس. برزا أمامي وكانا شخصين أعرفهما، هاشم درب سلطان كردمال الذي خلعناه، وأنت يا دمدوم.طعنني السلطان من ظهري وأنت من الأمام.. هل رأيت؟

يتذوق الظهوري الحلم بمشقة، ولا يستغرب أن تغزو السلاطين أحلام الدم. في حياة الفقر لا قتل ولا خناجر تتلامع في الحلم، ولكن أحلام يقظة باهتة كلها تصب في أجولة (حميض) يابس، أو دخن غزته العتة. وإن كان ثمة حلم حقير، فهو ذلك الذي قذف به إلى هذا المستنقع.. حلم الجليل الهرموني حين يهبط من فرسه.. وحين يخرج من حي الرديم (آدم نظر). قطعا يحس السلطان بالضعف، الضعف إزاء

سـلطان آخر هزمه مرة ولا يستطيع أن يجزم أنه هزمه إلى الأبد، الضعف إزاء ولد صغير حوره وقربه ورقاه، ولا يستطيع الفكاك من عقدة تحويره بعـد.. هو الآن قطعاً لا يحقد عليه، ولا يحقد على أي شـخص آخر.. يتشجع:

- وماذا تظن جلالتكم؟
- أظن ما قاله الحلم.

يتشجع أكثر ومكر الخصيان الذي هو من مكر الهرمونات..

لقد أتى السـلطان هاشـم من الخلف، إذن فقد غدرك.. وأنا أتيت من الأمام، إذن فقد واجهتك، ولا أظنك تسقط من مواجهة خصي..

ألقاهـا هكذا كبيرة، وفخمـة، وفيها توتر، ليلتقطها السـلطان التقاط الملهوف. سـكنت انفعالاتـه كلها، وتزحزحـت اليد الفارغـة من موضع السكينة، لتمتد إلى الجبهة التي كانت الآن رفيعة، وإلى الشعر الذي كان شعر فارس بلا ضفائر.

صدقت يا دمدوم.. اجلس.

ذلـك الليـل الفريد من نوعه، تسـامرا حتى أوشـكت الشـمس على الطلوع، شـربا من القهوة ومن ماء الورد، وارتفع الضحك عالياً من حلق فخم وحلق مدمى على حد سواء، السلطان وخادمه.. السلطان وحارسه.. السـلطان ورفيقه الذي ارتفع أكثر مما ينبغي.وفي لحظة موغلة في بياض الصفحات الذي طرح في تلك الجلسة، ألقى دمدوم بسؤاله المفاجأة:

هل تجعلني أباً شيخاً كما طلبت منذ سبع سنوات يا مولاي؟

لا هـذه لا يا دمـدوم.. قرار الأب الشـيخ ليس قـراري، ولكنه قرار (يوسـف ضو) مؤسس السلطنة. جزء من أسرار تكوين السلطنة حين أسسها، ولا يبوح سلطان إلى العوام أبداً..

والاستثناءات؟

- ليس في هذا الأمر استثناءات.. إنه أشبه بالقدر الذي لا يمكن تلافيه.. بمجرى السيل الذي لا يمكن ردمه.. أخرج من هذا الموضوع يا دمدوم.. أخرج.

كان كلاما غريباً وجافاً، وفيه الكثير من الغوامض، لكنه الكلام الذي يلغي بلا شك أي حلم يقظة يحاول البزوغ في هذا الشأن.يود أن يسأل.. إذن لماذا كل هذا ما دمت قد صحت في شأن راسخ؟ لماذا بذاءة الألسنة والتحوير وما تبع ذلك؟

لكن السلطان قرأ..

- لم يكن يعنينا صياحك كثيراً.. .كان صياح ولد صغير وأحمق.. ولكن الأمن.. الأمن كان يستوجب ذلك يا صديق.

النقاط كلها على الحروف كلها، والظهوري الجديد الآن شبعان جداً..

كانت السلطانة (مسك النساء) متوفرة طوال تلك السهرة، شهية في كرنفال العطر والحرير، وموجات شعر الليل الذي لا يريد أن يصبح.لم تكن عينا (رغد الرشيد) تلمحانها، وكانت عينا دمدوم منشغلتين بشبع آخر، شبع الفقير الذي كان يمجد بشدة في سهرة سلطانية.. خرج من قصر المسك بالشبع نفسه، بنقاء الروح نفسها، وبمفتاح غليظ الحجم أغلق به على حلم التعاسة إلى الأبد.مر بالأجنحة، بالممرات، بصالات لكز النظر، بلوحات العالمي (جيوفاني)، وبنظرات الخصيان والجواري، عبر الحدائق المسكية بأزهارها التي تتفتح تفتح الفجر، بأريجها الذي يملأ الدم ويفيض، وبطيورها الطليقة، والتي في أقفاص الحرير. سيسعى إلى حماية سلطانه بكل ضراوة، يمسك بتلك الإشراقة التي وردت في سهرة الخيال.. من مخازينا أنك حورت.. ومن إشراقاتنا أنك تتبع الآن لكتيبة الشرف.. نعم هو في كتيبة الشرف.

-22-

الذكرى الرابعة والعشرين لتولي (رغد الرشيد) مقاليد الحكم في سلطنة (أنسابة). ذكرى فيها توتر وعدم إبهار، وإحساس عام بأن خطأ ما قد حدث، وأن السلطان قد كبر ليس في عمره كإنسان فقط، ولكن حتى في إدارته وتقديره للأمور

صحيح أن الفرح أسس بذات الطريقة التي يؤسس بها في كل عام، الجدات غنين ورقصن، وأشعلن البخور وضفرن الحماسات كما يفعلن دائماً، الطاهرات طفن بضفائر العقيق والخرز، والفوانيس الملونة، الخراف نحرت وسلخت ووزعت، وابتدأ الموكب، اخترق الأحياء وانتهى، والظهوريون يحمون، والرعاع ينظمون الفوضى، لكن الإحساس بالخطأ ظل موجوداً ولم يتغير.. واجتهد الكثيرون جندوا أنفسهم لقراءته في أيّة صفحة من صفحات ذلك اليوم فيها سطور قد كتبت بتأن أو كتبت على عجل.

في حي (عظمة رغد) النظيف والمسمى باسمه والذي أسسه مترفون أرادوا لحيهم تميزا ما، لاحظ (دمدوم) الذي كان الآن ظهوريّاً لصيقاً بالسلطان، له قامة الظهوريين الفذة، وسيوفهم وخناجرهم، ونظرات الجبابرة التي تلمح السم في أحشاء أفعى. لاحظ أن السلطان انحنى بصعوبة ليقبل طفلة جاءت فرحة وتحمل عقدا مضفرا من زهور (المنوليا) المنتشرة بحدة في حقول (أنسابة).في حي (الحجاز) الذي كان أصلاً إحدى محطات تجار القوافل الحجازيين المرتبطين بتجارة أبدية مع (أنسابة)، يملكون بيوته، وعواطف نسائه، والكثير من موارده، لاحظ دمدوم أن السلطان أعجبه بيت، ثم أعجبه آخر، ثم عاد وتحدث

كثيراً عن عيوب البناء المتعجل قال.. منظرها يسر لكنها بلا أساس. في حي (الرديم) المسكين الذي خرج منه ذات يوم ولم يعد، وحاول أثناء سير الموكب أن يبدو ثابتاً وبلا عواطف، ومرتخي اللثام حتى العينين، وطارداً لذكرى حياته القديمة، لاحظ أن السلطان سأل كثيراً عن فائدة الحجامة، ومواضعها في الجسد، ومضاعفاتها لو كانت لها مضاعفات:

هل تستخدم في أمراض الهبوب والهيضة واستسقاء البطن؟..

هل إذا تداوى بها العجائز أمثالي لا تحدث (الغرغرينا)؟

بعد كم يوم يضيع الأثر من موضع الفصد؟

وأثناء سيرهم المكثف واقترابهم من مقابر (جوا جوا) الكبيرة حيث يدفن السلاطين والأمراء، وتوابع الحياة المترفة، توقف السلطان أكثر مما ينبغي، وتأمل فراغا مربع الشكل كان لصيقا بقبر والده السلطان(نفر المقدم)، وحين ارتقى فرسه (المهراجا) مرة أخرى وابتدأ الموكب في الانطلاق، لاحظ دمدوم أن دمعتين كبيرتين كانتا تشقان طريقهما من المنابع إلى بعيد.مروا على الأحياء كلها، وطيبوا الخواطر كلها، وعلى الأسواق سألوا عن توافر السلع أو انعدامها، وفي مهبط قوافل التجارة الذي وسعوه مؤخرا بعد أن تكاثرت الجمال، وتشعبت الحيل، وراجت سلع كالحطب، والأقمشة الملونة، ومسابح (الكهرم)، ومرطبات الوجوه، وتمر المدينة، انتحى السلطان بتاجرين من تجار (تمبكتو) يبدو أنه كان يعرفهما بعمق لأن كتفه لاصق كتفيهما في التحية، وملامحه أشرقت حين أشرقت ملامحهما، وارتفع صوته حين ارتفع صوتهما.لم يعرف دمدوم ولا أي واحد من اللصيقين في الموكب ماذا قال لهما وماذا قالا له، لكن السلطان عاد إلى موكبه وفي وجهه علامات إشراق غريبة..

انتهت الذكرى كما تنتهي دائماً. يوم الشبع الكبير.. يوم اللاجوع، ولا شد للأحزمة على البطون، وعادوا إلى قصر المسك الذي كان مزينا بالزهور، لتكملة أمسية الفرح. كانت المائدة استثنائية جداً، أعدتها

السلطانة مسك النساء بمساعدة خصيانها وجواريها المدربات، واشتملت على أنواع نادرة من الطيور، وسحالي البر، والسلمون المجفف الذي لم يكـن الأنسـابيون يعرفونه أبـداً، لأن بصمته في التجارة كانـت متواضعة، وسعره العالمي في غير متناول يد الجميع. وأبدى (لاليا البرناوي) مفتي الديار الأنسابية استغرابه حين تذوق الطعم ولم يميز النكهة:

هذا من خيرات (أولاد جون).. يبروننا بها من حين لآخر

ردد السلطان..

كان تعبير (أولاد جون) هو الصفة المحلية التي تطلق على سـاكني الـدول الأوروبية.. يسـتخدمها المحليـون حين يرون أشـقرَ أو يتحدثون عن أشـقرٍ، واسـتخدمها السـلطان في تلك الأمسـية تماشـياً مـع التراث الأنسابي..

تعال يا دمدوم.. خذ نصيبك.

وفي خرق جديد لقوانين الكبار الذين لن يصغروا، والصغار الذين يفترض أن يظلوا صغارا، حتى ولو كانوا ظهوريي الشرف الذين يذودون عـن رمز (أنسـابة) الكبير، تقـدم دمدوم بنشـاط ليغرق في مائدة العشـاء النـادر، تـذوق نـوادر البحر، ونـوادر البـر، والثمـار الطازجـة، وخيرات (أولاد جـون) التي يبـر بها السـلطان، ويعمم البر على جلسـائه، وطرب معهم أيضاً حين جاءوا ب(جديلة) المغنية الشابة كصوت هاضم للدسم، ومطلق للأرواح من قماقمها:

أحبيك يا عيون ناعسة.

أحبيك يا عمر ضائع.

أشيلك يا قلب مسكين.

أدسك في الندى الطالع.

فجأة تردد صوت الهيبة الرقراق، منساباً من بين شفتي الأب الشيخ (يوسف كرا) ليقطع استغراق لحظة الاستغراق:

لا أريد أن أفسد ليلتك يا مولاي لكني سمعت بأن السلطان (هاشم درب) مسنودا بزعماء عدد من ممالك الوسط، يحاول العودة مرة أخرى إلى كردمال.

ومتى وردت هذه الأنباء؟

يسأل الرشيد..

صباح اليوم يا مولاي.. نقلها إلينا عدد من الرعاة وتجار الإبل، كانوا قادمين من نواحي بلاد (المجانين).

ومن يناصرهم حقيقة أبي الشيخ؟

تململ الرشيد في جلسته، وبدت مرارة الخسارات المحتملة تتماوج أمام عينيه.في عرف الحكم.. أي حكم.حتى لو كان حكم جمل على سرج يوضع فوقه، توجد خسارة ما، ويوجد ربح ما، وثمة شعرة رفيعة بين الربح والخسارة. يفكر الآن في هاشم درب، سلطان كردمال، غريمه الذي هزمه وطارده لأيام طويلة في الفيافي والأحراش، وتوغل بعدها إلى بلاد الوسط.يفكر في وجهه حين اندحر، وشهوته التي لن تلتم أبداً كشهوة مندحرة، ولكن لابد أن تستيقظ من جديد.يفكر في خنجر الحلم الذي طعنه من الظهر، ويتململ في جلسة السمر أكثر.. اليوم تربح وغداً تخسر   اليوم وغداً تربح وبعد غد تخسر.

- أظنه (الأصم) سلطان دار (الجعل)، وأصهاره من سلاطين (برتة) و(القوادير) و(أم رماد).. أوباش حوض النيل يا مولاي.. هؤلاء يكرهوننا لأننا تقدمنا كثيراً، وما زالوا إلى الآن ثيرانا في أحواض برسيم.. لا تجارة.. لا اقتصاد.. لا أمن.

وماذا ترانا نفعل أبي الشيخ؟

صوت الهيبة الرقراق يبدو مطمئنا، وقد اختفت من نكهته وساوس السنوات الماضية من خطر ظهور (دمدوم) إلى السطح هرمونيّاً مقرّباً من السلطان رغد بالرغم من الدراية التامة بقوانين (أنسابة) غير القابلة

للنقاش، هاهو الولد المقرب، مقرَّباً بالفعل، ولكن بعيداً عن الدهاليز العميقة لواحد مثله.. (يوسف كرا).

لا شيء حتى الآن يا مولاي.. جنودنا يرابطون في كل الأماكن المحتملة في (أنسابة) وكردمال، وأصدقاؤنا من عرب (المجانين) يطوفون بالبراري والأحراش، يتحسسون أي تحرك ليخبرونا به، وحكامنا في كردمال يحكمون بمواثيقنا التي وضعتموها لهم، والناس راضون. لا تقلق مولاي الرشيد.

الليل يمضي والفجر يكاد أن ينجلي، وتغني المغنية ألحان ذكرى ودمدمات طوفان.الأحبة في القلب، الهجران في العينين، سفر الجفاء.. سفر اللاعودة، ويحاول السلطان أن ينزع خنجر الحلم من ظهره، في تلك الليلة الكبيرة المحتفلة، والعامرة المائدة، لم يكن يريد هواء فاسدا أبداً.. ذلك الذي إن دخل الدم شتته، وإن لامس الحواس أظلمت.. لكن الهواء الفاسد من توابع السلطة.. وما دام يوجد هواء نقي، فلابد من هواء فاسد.المعادلة.. التوازن..

افتحوا أعينكم جيّداً أبي الشيخ.. تتبعوا إحساسكم.. لا أريد أن يستيقظ الشعب في أحد الأيام ليجد الكردماليين وحلفاءهم ينتشرون حول أسرتهم. آخ البارود.. أشم رائحة البارود.

أي بارود يا مولاي؟

يسأل قائد الرعاع الذي لم يعد جديداً بحساب زمن الهواء الذي استنشقه في مستنقعات الكتيبة، لكن لا شهقة ذئب، ولا مشية تخيف الوحل، ولا نظرات لطيور مهووسة كانت تنط من عينيه..

البارود يا أمير.. لغة الحرب الجديدة والمدهشة، لقد فاوضنا (أولاد جون) في شأنه مئات المرات ولم يمنحنا أحد شمة منه.. يريدون سجلا نظيفا من الدم، ولا يوجد في الدنيا كلها سجل نظيف من الدم. يرسمون ذنوبنا ولا يرسم أحد ذنوبهم، ويصنعون البارود لحرقنا،

ولا نملك إلا الخناجر. آخ البارود.. أكاد أشم رائحته تلوث سماء (أنسابة).

ينكفئ السلطان على جنبه الأيمن بغتة، يتحسس موضعاً في الجسد بدا له ورماً غير مألوف، والظهوري يلتصق أكثر، يحاول حماية السلطان من خطر غير معروف، والكبار يودون لو عرفوا، لو شموا البارود مثلما شمه، لو توغلوا إلى منابع التعاسة داخله، لو جففوها.. يستقيم الرشيد مرة أخرى:

- غني يا جديلة.. غني أغنية رغد الباسل حتى يعود رغد باسلا بالفعل.

تمسك المغنية بعودها المعطر مرة أخرى بعد أن أهملته، يتردد صوتها الفتي في المكان مشعلا حماسة أقرب إلى الانطفاء..

يا (رغد الرشيد)

يا باسل الأيام.

في صدرك قلب

أسد الفلا الضرغام.

وفي صدرك حنان

أمّا رعت أيتام.

نفديك بالنفيس

والغالي يا همّام.

الغرابة في لغة السلطان، الغرابة في زوايا وجهه، وحين يمد يد الخواتم المرفهة لتعض على موضع ما في جسده الغزير المواضع، يفكر دوباجي الحكيم بمشقة. ماذا لو التقط مأساة لا يريد أن يلتقطها؟.. ماذا لو كانت ثمة أعراض ل(هيضة) أو (هبوب) أو استسقاء بطن في ذلك الجسد الغزير؟

في تلك الليلة الكبيرة والمحتفلة، وفي آخرها الذي بدأ بانفلات

النعـاس من أسـرّته، والعصافير من أوكارها، نهض الرشـيد منهيا جلسـة السمر التي كان نصفها سمراً، ونصفها مرارة:

تعال معي يا دمدوم.. أريد أن أحدثك.

لم يذهبا إلى المخدع السـلطاني مباشـرة كما كان يتوقع الظهوري، ولكـن السـلطان كان يخـب فـي سير مختلـف، اجتازا ممـراً ضيقـاً في الجانـب الخلفـي من القصـر بمواجهـة أكـواخ الظهوريين، وتوقفـا أمام غرفـة مهملة، ومتسـخة باب الدخـول، كأنها صيغت من نسـيج آخر غير النسـيج الذي صيغ منـه قصر المسـك. كان دمدوم قـد رأى ذلك الباب مرار اً، وتسـاءل كثيراً عن سـره، خاصة انـه لم يكن ضمـن قوانين قصر المسـك التي تحرض على كنس التراب حتى من السـطح.تقدم السلطان من الباب، فتحه بعدة مفاتيح متشابهة، دخل أولا وشد الظهوري من يده ليدخـل، وحين أضاء فانوسـاً مثبَّتاً في الجدار، بـدا المنظر غياهب كهف غائر في الخيالات.

من هنا يبدأ الطريق إلى تمبكتو.. إلى مملكة حوريات الأرض.

ردد الرشيد.

لـم يفهم دمـدوم حرفا واحـداً ممـا قيل.. وبـدا وجهه فـي الضوء الظلالـي.. وجهاً ميتاً وبلا تعابير، لكن السـلطان أضـاف خطوة أخرى.. توغل إلى سـتار من الحديد الصدئ فـي الركن المواجـه، أزاحه، فبانت فوهة مظلمة وأبدية..

هذا هو السـرداب الأمني الذي شيده الرعاع.. يبدأ من هنا وينتهي في حدود تمبكتو.

كان شـيئاً غريباً، وسـرا ماتخيل دمدوم أن يوضـع في ذاكرة خصي كان في يوم من الأيام واحداً من بذيئي الألسـنة الذيـن نالوا جزاء حكام الأرض. إلى ماذا يهدف الرشـيد من كل هذا؟.. وما هي مبرراته لتشـاؤم غير مبرر وهو ما يزال الكبير في أنسابة؟.. لو أراد الرحيل لرحل دون أن

يسأله أحد ولو أراد البقاء.. فهو باق، ولو كانت ثمة حرب حقيقية فلابد أن يحاربها كما حارب كثيراً من قبل.. ماهي مبررات السلطان؟. أغلق دمدوم ذهنه على اللغة الغامضة.. ووقف ينتظر.

الآن تعرف قدري.. تعرف أنني مثلك.. أحكمك لكن الأقدار تحكمني، وإذا اضطررت لعمل شيء سخيف كالفرار في لحظة تحتمه، فأنت الرفيق في هذا السفر.داخل هذا السرداب يوجد زاد.. ويوجد أمل.

كان كلاما مظلما هو الآخر، تجرعه الظهوري بمرارة، وكاد أن يحلب دمعة كبيرة. قد لا يصدق أحد أنه الآن يحب السلطان رغد حباً جارفاً ولا يوصف، ولا يستطيع أن يتخيل (أنسابة) إلا تلك التي يحكمها الرشيد.. لا يتخيل الرشيد إلا حاكماً ل(أنسابة).. لا يتوقع فراره أو رحيله المفاجئ.. لا يحب إحباطه، وإن كان لابد من فرار أو رحيل أو إحباط، فهو الرفيق في تلك المعاناة.كان في مستنقع الرعاع فرساً يستعد للتحوير حين حفر الرعاع ذلك السرداب الأمني.. حفروه بسرية سخيفة وبعيون مغمضة كان إبصارها هو إبصار الأمير مساعد.. ولابد أنهم كانوا يحفرون وهم لا يعرفون أنهم يحفرون طريق الضعف للرجل القوي.. وطريق الشتات للذهن الملتم.. وطريق الإحباط للذي حكم (أنسابة) أكثر من عشرين عاماً دون أن يكون في قلبه إحباط.يفكر دمدوم بصعوبة، حتى الآن لم يحدث شيء.. ولا وردت أنباء حتى عن احتلال (هاشم درب) لسلطنته التي نزع منها، ولابد أن هناك وقت لاحتواء المسألة لو كانت هناك مسألة.. لا يستطيع فهم السلاطين.. لا يستطيع فهمهم أبداً.

غادرا فوهة السرداب والسلطان باليد في موضع البطن، ودمدوم بالتلف في الأعصاب.. ليت الحرب نشبت بالفعل.. ساعتها قد يفهم الكثير مما خفي عنه.

عدة أشهر يتوزع جو الحرب في البلاد كلها، تتناثر سيوف لعراك

غير حادث، وتشح السلع في الأسواق كأنها سلع حرب.عرب المجانين يرصدون ويتحسسون ويقولون.. والعيون الواسعة التي أرسلها الأب الشيخ (يوسف كرا) إلى ممالك الوسط للتجسس، تأتي بتوافه الأمور..

هاشم درب في صحة جيدة، ويأكل خروفا بمفرده..

امرأته اقتنت ذهبا جديداً وعلقت على صدرها عقدا من العقيق النادر.

جبته الخضراء المذهبة كان فيها جيب إضافي لا تعرف محتوياته.

خصيانه يدقون طبول النحاس باستمرار.. وعياله زادوا ولداً.. لا شيء.. لا شيء..

يعقد السلطان جمعة (الكوراك) عادية، وحالبة للأنسابيين من كل صوب، يجيب ويقهر ويفضها.. يتخفف في قصر المسك.. قد يرتعش وقد لا يرتعش، وقد يشرب الورد الدافئ وقد لا يشربه، وقد يقول ذنوبنا يا مسك وقد لا يقولها.. والظهوريون كتيبة الشرف. الرعاع ستر السلطنة ولباس أمنها.الفقراء فقراء.. المترفون مترفون. الكبار كبار.. الصغار صغار.. الجنود المتحمسون وغير المتحمسين. الذين يعودون من الحدود والذين يذهبون والذين يتصنعون المرض، والقوافل لا تنفك تأتي تفرغ وتحمل.. لا شيء.. لا شيء..

أغنيات الحماسة المضفرة من حلوق عدة، والقادمة من الريف أو حماسة المدن.. وأحلام اليقظة عن السراري من بنات (دار الجعل).. الجميلات.. العذبات.. المكسرات الطرف.. الغارقات في اللين والتائهات خصل الشعر وتلك الأغنية التي لا يعرف أحد من الذي فصلها ومن الذي طيرها في الجو لتستقر على تذوق الكبار والصغار والذين يملكون والذين لا يملكون.. ويسمعها السلطان والسلطانة، وتتطير منها ربات البيوت في مسكنتهن:

يا بنات دار جعل..

يا بنات ويا حلوات

أنا أنسابي أعشق

ضحكة الحلوات.

يا بنات دار جعل

يا صاحبات الرقة

أنا أنسابي أعشق

الجمال والرقة.

يا بنات دار جعل

يا ساكنات القلب

أنا أنسابي عاشق

وانتو جوه القلب.

أكثـر مـن خريـف رش، وأكثر مـن جفاف جفـف، وأكثر مـن مائة شائعة تسـتعر، ومئتا خرافة ترتدي ثوب الحقيقة، وجاء الرعاع مرة بفرقة للزار مكونة من اثني عشر فرداً، كانت قادمة من كردمال لإحياء عدد من الحفلات في عدد من بيوت حي (عظمة رغد) النظيف. أمسكوا بأفرادها في الحدود، كبلوهم بالحديد وكمموا أفواههم، قالوا جواسـيس.. خونة، وجاءوا بهم إلى السلطان رغد الذي ألقى عليهم نظرة واحدة فقط ثم أمر أن يطلق سراحهم على الفور:

يأتون بالمهلهلين الباحثين عن لقمة الخبز بتهمة التجسـس.. في عهد الأمير مساعد لم يكن هذا ليحدث أبداً.

وفي واحد من شهور (رمضان) السخية في الحب، ونكران الذات، والمناجاة، والنقية من سـفك الدم، قدم إلى (جـوا جوا) عدد من أعراب قبيلة (المجانيـن).. كانوا على دواب منهكة، وبلا زاد، وعلى أجسـادهم ملابـس رثة للغاية، وكانوا يحملون كتلة مـن اللحم مغطاة بالخرق وفيها

رائحة بكتريا خانقة.. التقوا بالأب الشيخ (يوسف كرا) في قصره، وطلبوا أن يلتقوا بالسلطان لأمر عاجل لا يحتمل التأخير. دبر لهم الأب ذلك اللقاء المتعجل بالسلطان، وكشفوا عن كتلة اللحم أمامه.. وكانت رأساً غزير الشيب وعابس الأسارير للسلطان (هاشم درب) سلطان كردمال الذي كان يتلملم لاستعادة عرشه.. ومستعيناً بملوك الوسط..

كانت صدمة حقيقية للسلطان رغد، صدمة الغريم حين يفقد غريما يحب مناصبته العداء.. صدمة الزاهد في تلك الأيام المباركة حيث لا دم يسيل، وصدمة المختنق من عفن البكتريا حين تأتي في رأس بلا حول ولا قوة.. لا حول ولا قوة.. لا حول ولا قوة.. رددها مراراً، وأطفأت حماس المجانين الذين لم يكونوا أصلاً أطرافاً في أي حرب ولا ناصروا سلطاناً ضد سلطان، وما تتبعوا السلطان (درب) وذبحوه إلا طمعاً في جائزة.. لا حول ولا قوة.. رجتهم.. أخرجتهم من قصر الحكم أصفارا.. ولكزتهم حتى الخلاء البعيد ليدفنوا جزءا من ميت لم يكن سوى صفقة خاسرة.

راقبه دمدوم وهو يرى ويسمع وأحس أنه أمام رجل كبير لم يرد أن تنتهي شائعة الحرب هكذا.. رأساً مقطوعاً لعدو أعزل.. وبكتريا بلا عدد.. وتفاهة كبيرة.. كان دمدوم قد جرد (المجانين) من سيوفهم، حين دخلوا، وأبى بشدة أن يعيدها إليهم حين خرجوا.. كان تصرفه هو.. تصرف الظهوري الذي يتبع إحساسا آخر غير إحساس الجميع في (أنسابة).. إحساس سلطانه وسيده (رغد الرشيد).

وفي اجتماع الكبار الذي عقد على عجل وحضره الجميع بلا استثناء، كانت البهجة كاملة على الوجوه كلها.. الوجه الهرموني للأب الشيخ.. الوجه المفتي للاليا البرناوي.. الوجه التركي للترزي كردمان.. الوجه الركيك لأحمد برم عم السلطان.. وجه دوباجي الحكيم، وصبابي الذي انتفخ كثيراً بازدياد الطلب على سلعه باعتبارها سلعا شحيحة

في زمن الحـرب.. لكن وجـه السـلطان كان منطفئاً وملفتـاً للنظر بكثرة التجاعيد التي ركدت على صفحته فجأة.

مولاي السلطان لا أراك سعيدا بانتهاء الحرب.

صوت (يوسف كرا) الرقراق يحاول النبش..

- الحرب لم تنته أبي الشيخ.. بل ابتدأت.

يعض الرشـيد على مخارج حروفه بشـدة.. الحرب التي تنتهي هي حرب المواجهة.. حرب غريم لغريم.. سيف لسيف.. رمح لرمح.. لكن حرب الغـدر لن تنتهـي إلا بغدر أكبـر.. يمد يـده إلى ظهره.. يتحسـس موضـع الخنجـر الحلمي الـذي طعنـه.. لا يتبعـون الفطنـة.. لا يفهمون الحياة إلا عجالة.. يشد يده من الظهر، يتحسس بها الجانب الأيمن حيث مُا ظنه ورما غير مألوف.. اليوم ذبح المجانين رجُلاً مخلوعاً، وغداً يأتي غير المجانين ليذبحوا رجُلاً متمركزاً في حكمه.. قد تطول السـنين.. قد تتضاعف.. قد تأتي أجيال وأجيال، ولكن حرب الغدر لا تنتهي..

أغرقهم باليأس كلهم. غمرهم في مياهه العميقة وتركهم يتخبطون، ليس هذا (رغد الرشـيد) الفـارس.. ليس القديم الذي عاصروا بشاشـته، ولا الباتر الذي شهدوا الكثير من بتره، يفكرون.. يفكرون.. لابد أن موت الأمير مسـاعد أنهكـه.. لابـد أنَّها أعراض مـن إحباط عارض سـتزول.. يفكرون.. لابد.. وحده (دمـدوم) الظهوري كان يعرف.. ويعرف الكثير. فجأة:

- هل ما زالت (درة) العجوز تعمل في التنجيم أبي الشيخ؟

نعم يا مولاي ما زالت.

إذن أحضرها يا دمدوم.. لن نرسـل إليها أحـداً غيرك.. وأظنك تعرف جحرها.

سـنوات طويلة تلك التي مضت حين توغل حالم صبي في أشـلاء حـي قديم لكنه نظيـف باحثاً عـن حظ.. يا إلهـي.. لقد نسـي فعلا تلك

القـراءة الرهيبة لحظه الرهيـب.. القراءة التي ما طـاش منها حرف واحد ولا التوى حـرف.. الظهر ينحني بشـدة.. امـرأة تحب وتبصق.. وشـيء عزيز يسقط. يضيع.. يا إلهي.. تعود به خطوات ضد هذه المرة، خطوات شـرفي مسـتثنى في كتيبة الشـرف، تنبش في الحي كله محاولـة التذكر.. ودرة المنجمة كانت كما هي، لم تضف إليها أيام بؤسـه الشـخصي يوماً واحداً، نفس الوجه، نفس العينين، نفس اليد الكثيـرة العروق، وقميص (الكسـتور) الأبيض المتسـخ الذي بـدا كأنه ذلـك القديـم.. عرفته على الفـور وضحكـت، لا يدري من هيئتـه أم من نصيبه. دعته إلـى قهوة مرة وقراءة جديدة، فارتعد.. لا يريد قهوتها ولا قراءاتها.. أخذها إلى مجلس السـلطان مرتعشـة، وكانت طوال الطريق تردد.. السـتر السـتر سألها عن السـتر.. قالت.. ليس الفضيحة، وسألها عن الفضيحة.. قالت.. ليس الستر.. أسكتها بخشونة وجرَّها إلى المجلس خائرة القدمين.

أجلسي يا درة.. اقرأي علينا ما ترينه من مستقبل البلاد.

كان جزء مسـتطيل مـن أرض المجلس قد عري من السـجاد الذي يكسـوه، وفرشـت عليه رمال ناعمة ونظيفـة تناثر علـى وجهها الحصى. بركت المنجمة أمام الرمال، استلمت الحصى وظلت تنثره وتلمه، وتنثره وتلمه.. وتنثره وتلمه وسـط سـكون يغلـي، ونظرات تسـتعر وآذان تكاد تفارق مواضعها.. ثم التفتت أخيراً إلى السلطان:

- أرى المطـر يهطل، (أنسـابة) كلها خضـراء، أرى بهائـم ترعى، وخلقا كثيريـن يأتـون إلـى مجلـس مـولاي يـوم الجمعـة.. يأتـون صائحين ويعودون راضين.. أرى نسـاء حوامل.. وأمهات يرضعن، وأرى بنات صغيرات يلعبن وسط أكوام من الذهب.

بشرى خير.. بشرى خير ردد الكبار في تهافت.. انفرجت أسارير السلطان قليلاً، لكن شيئاً في داخله كان يهتف:

كذب المنجمون ولو صدقوا.

عاد دمدوم إلى كوخه في سكنى الظهوريين في ذلك اليوم مشوَّشاً، فقد كان انتقاؤه لحماية السلطان وحده في المجالس التي تنعقد وتنفض تلك الأيام، قد أثار ضغينة الظهوريين القدامى ضده، وبتحريض خفي من القائد (بابنوسة) انقطعت عنه الكثير من مزايا الشرف، وصار لقاؤه بالزملاء في ساحات التدرب أو أمسيات الكآبة والملل، لقاء صامتا لا تتخلله لمحة من صخب.. حتى (تمبولي) التنجري الذي كان رفيقاً قديماً ويحمل الدم القبلي نفسه، ما عاد يحضر، كان يكتئب بعيداً، وينشرح بعيداً. لم يكن ذلك الأمر يقلقه في شيء، فهو في الأصل لم يكن من تلك الفئة، وما وجوده بينها إلا استثناء لوى فيه الرشيد عنق اللوائح.. لتكفير شيء من ذنوبه على الأرض كما يقول. تلك الليلة كانت خاصة جداً.. إنها ذكرى وفاة أبيه صانع الطبول التي غيرت مسار حياة أسرته تماماً.كانت تلك الذكرى وغيرها من الذكريات، هي الحاجيات التي دفنها.. طمس معالمها في المستنقعات التي مرت بها حياته منذ ذلك الحين.لا يعرف مصير أمه أو أخته بعد، ولم يسع أبداً لمعرفة ذلك المصير، واحترم عدم سعي الأطراف الأخرى لملاقاة مصيره هو الذي بات معروفا في كل أنحاء (أنسابة).ظل السلطان الذي سيظل يتبعه مات أو فر أو بقي يحكم، في أفكاره تشاؤم هو الآخر، ورأى والده بعيني خيال مجروح يجيء وفي يده مسبحة غزيرة الطول، يضرب بها يميناً ويساراً.. نفض رأسه مراراً ليفك الوساوس، يتخلص من الخيال والمسبحة، وسمع ذلك النقر الملحّ على باب كوخه. كان (تمبولي) الظهوري متسللاً، ويتلفت في كل الاتجاهات كأنه يخشى أن يلمحه أحد.

ضمهما الكوخ الصغير وتعانقا كأنهما مقيم وعائد من سفر.ردد تمبولي:

لم أرد مقاطعتك يا دمدوم.. لكن الأخوة أرادوا.. باتوا يكيدون.

الأخوة هم الظهوريون.. مصطلح النداء المتبادل في كتيبة الشرف.. أخي.. أخوتي.. قاماتهم أخوة.. عواطفهم أخوة وكل عين ظهورية أخت لعين ظهورية.

- لماذا يكيدون يا عجيب؟

- لأنك سرقت الوظائف.. حرمتهم من حضور مجالس الترفيه في قصر المسك.في المواكب وذكرى الأعياد.. والسفر للحرب.. تبدو المهمة شاقة وفيها قلق، ولكن في مجالس الكبار دائماً ما يوجد ترفيه.قبل أن تظهر كنا نقسم أنفسنا هكذا.. ثمانية يحضرون وسبعة يبقون في الأكواخ والآن واحد يحضر وخمسة عشر يبقون للملل.. للكآبة.. هل رأيت؟

بالطبع قد رأى ولكن ما ذنبه ورأس السلطنة يريد ذلك.. وما دام يريد فلن تسري إلا إرادته رضي الجميع أو أبوا. ألقى بنظرات غاضبة على كيان تمبولي الذي كان الآن يتململ في الظلال الشاحبة، يخرج من جيبه منديلاً متسخاً وقابضاً على قليل من تبغ (أنسابة) القوي الذي كان سلعة رائجة ومحرمة على الظهوريين لا يقتنونها إلا خلسة، وبحجة تدخله في اعتلال البصر، يمد المنديل إلى أنفه ويشم:

وماذا أفعل؟ قل أنت ماذا أفعل؟

من بين عينين تورمتا بفعل التبغ، ولسان أسود ومقشر، وأسنان أكلها الجير بشراهة.. يردد عجيب:

أخبرنا بكل شيء.. أنقل إلينا ما يدور داخل مجلس (الكوراك).. لا نريد أن نكون طرشانا في الزفة.. وعند ذلك فقط يمكن أن نحبك.

كانت تفاهة غريبة الشكل كما فسرها (دمدوم) في تلك اللحظة، يريدون أخباراً وشائعات، ويعتبرون الملل في تلك الجلسات المطولة، ترفيهاً. كتيبة الشرف مثل غيرها من عقول (أنسابة)، كتيبة رعاع أخرى لكن في ثياب مزركشة.

التفت إلى تمبولي بكله.. برأسه.. يديه وجسده الهرموني:

- أنا ظهوري حقيقي وليس غير ذلك، يريدني السلطان قربه أكون.. يريدني بعيداً.. أكون، لا تحبوني.. لا تحبوني..

خرج تمبولي متقدا من عند (دمدوم).. وكونه تنجري ومن اللحم والدم نفسه، لم يقل يا خصي.. لكن أعماقه قالتها بالفعل، وقالها القائد (بابنوسة)، والواثق وسماهيل وولد الجبال وكلهم.وتدريباتهم، وخمودهم ونشاطهم، وانتظامهم وفوضاهم، وأيقن دمدوم وهو يغلي معهم، ويخمد معهم، ويأكل معهم ويشرب، أن مسألة كنس الضمير السلطاني من شوائبه والتي جاءت به وسط هذه الفئة، لم تكن في الصالح أبداً.. وأن محوَّراً مثله قد يكون سعيدا وهو الخادم المثير للسخرية، أو دالق ماء الورد في تلك الاستحمامات الرهيبة. لكن السلطان أراد ذلك.. ولا مفر.

-23-

هل هـو مرض (الهيضة) الـذي يصيب الطحال بالجنـون، بالعمى، بالتمرد، ويؤدي إلى موت الخلايا في الدم وتعفنها؟

هل هو الهبوب الذي ينتج من التواء مصران على مصران، وشريان على شـريان، وعضو حيوي على عضو حيوي، ويؤدي إلـى إيذاء العقل بضخه للبكتريا؟

هل هو (كالازار) الأحشاء الذي تسببه طفيليات (الشريريا) المقيمة بشـكل دائـم فـي أجـواء (أنسـابة) وتسـاهم بفعالية فـي خفـض الإنتاج والمعنويـات؟ أم هي أعراض هلامية منبعها النفس المتوجسـة للسـلطان رغد.

جمعـة عاديـة مـن جمـع (الكـوراك) جـاءت ويلاحـظ (دمـدوم) ويلاحـظ الكبار المجتمعـون أيضاً، أن الرشـيد أضـاع ردودا فخمة على صياحات فخمة، وأجاب بآهات ألم مر على صياحات كانت بعيدة تماماً عن درب الألم.

جـاء عدد مـن زعمـاء الأريـاف.. كانوا فرحيـن وصاحوا شـاكرين ومقدريـن، ومنوهين بخيرات بسـاتينهم وحقولهم التـي أنتجت مضاعفاً، ويتوقعون موسـماً من حصاد لم يحدث من قبل.واستلموا تحايا سلطانية فيها خمول وكسل وآهات.

جـاء عدد من تجار القوافـل من الحجاز واليمن وأفريقيا السـوداء، صاحوا مودعين للسفر وشاكرين لحسن الضيافة، وذاكرين ما لمسوه من انتعاش كبير في حركة البيع والشراء بعد أن خفت حدة شائعات الحرب وبدأ الناس يتذوقون الحياة.. ولم يصلهم من ذيل السلسلة أي انفعال أو

تحية.. امتلأت السلسلة بصياحاتهم وعادت فارغة.واضطر الأب الشيخ (يوسف كرا) أن يلاحق السلطان مراراً.. يسأله عن الخطب وإذا أراد أن يلغي الصياحات لتلك الجمعة، لكن السلطان لا يكترث، يواصل جمعته وعلى ذلك النسق الغريب.تدخل (دوباجي) الحكيم الذي شم الخطب بخبرة العجوز الذي قد لا يفهم كثيراً في الطب، ولكن يملك الخبرة التي توازي فهم الطب..

مولاي أنت مرهق.. أنه الجمعة والزم سرير الراحة.

والرشيد لا يقبل.. يواصل ويواصل حتى انتهت الجمعة بزمن الانتهاء العادي، وخرج الكثير من المعمرين وقد عاد إلى أذهانهم سلطانهم القديم (نفر المقدم) في آخر أيام حكمه حين كانت جمع (كوراكه) فصولا بلا نهاية من دراما سمجة..

السلطان ليس على ما يرام.. وانطباع أخذ بتلهف، تم تداوله بتلهف، وطاف على أحياء (جوا جوا) والقرى والمدن والبلاد كلها، وكاد أن يقفز إلى بلاد الوسط التي كانت تناصر السلطان (درب)، عبر كردمال، لولا أن الرعاع أوقفوا سريانه في الوقت المناسب.. كان يتألم.. ليس على ما يرام.

في تلك الجمعة أسنده (دمدوم) بعادة الإسناد في أوقات تدهور المعنويات التي تكررت كثيراً في الآونة الأخيرة، حتى المخدع السلطاني، حيث استعرت حمى مباغتة لم تلق بالا إلى التعب، إلى الألم، أو انقلاب الوجه.. مسك النساء تستعر:

- وعدتني بمنحي لقب(الأياكيري) الذي يصيرني أمّا مبجلة للجميع، ويطلق يدي في ما أريد، ولم تف بالوعد، ماذا تنتظر يا رغد؟.. أن أكنس من القصر الذي شيدته أنا؟ أن ألقى إلى الطريق؟

يداك مطلقتان بالفعل يا مسك.. ولقب (الأياكيري) قد يصيرك محترمة ويقيدك، ثم هذا لقب السلطانات اللائي ينحدرن من (آل ضو) وليس

من آل النكرات وحلوى الدرادم.

كان صوته قد ارتفع إلى أطول من قامته الطويلة.. استعر، أج ويد الخواتم لا تفارق البطن، الإساءة بالغة، وقذف الذكرى الأليمة لأرملة بائع الدرادم إلى ذهنها بعد أكثر من عشرين عاماً على تفخخها كسلطانة، قد ألهب الحمى أكثر

- لم أسع نحوك إلا كمواطنة تسعى إلى لقمة العيش.. وكونك تزوجتني ونصبتني سلطانة، فقد كان هذا باختيارك.. ولم أجبرك.

لقد حدث ذلك بالفعل.. يفكر الرشيد.. حدث وباختياره التام في لحظة الشبق التي كانت حتمية ولا مجال لردعها.. لكن:

وعدتني أيضاً بتعيين ولدي (فاخر) وليّاً لعهد السلطنة، ولم تصنع شيئاً.. كانت حجتك في ابنك التافه مساعد الذي لم تحب ولداً غيره، والآن ذهب في ستين داهية.. ماذا تنتظر؟ تريد أن يتكالب الأخوة على السلطنة بعد أن ترحل؟ أو يأتي ابن عمك (الرأس) من تلك الجبال ليصير سلطاناً؟

فاخر في السابعة من عمره.. وأخوه (المقدام) في السابعة عشرة، وأخوهما (نفر) في العشرين.. وكلهم أولادي الذين لهم الأهواء نفسها.. والتدريب نفسه، والحياة نفسها.. والآن من أحق؟ صبي السابعة أم رجل العشرين؟ وبالنسبة لابن عمي فليأت إن استطاع. وما دمت تعتقدين في رحيلي فدبري أمورك.

كيف أدبرها، وكان بإمكانك تعيين مجلس وصاية لفاخر حتى يكبر.. لم تعد تحبني يا رغد.. لم تعد تحبني..

تبكي ويحتد، ويستغرب دمدوم فعلاً أن تطرح مسائل كهذه في يوم جاء فيه السلطان القوي مسنودا على كتف واحد من الخصيان، أحس بالسلطانة محرّكاً كبيراً للآلام ربما أكبر من أعباء إدارة السلطنة والفقر وشبح الحرب.. لو كان مكانها لاقترب من رغد الزوج.. رغد الحبيب

وشـهق في لحظة دخوله مسـنوداً بعد جمعتـه المرهقة، لوضـع يدا على جبهته، وبلسـما من العطـف على مكان الألـم، لكن واقـع الأمر يختلف، والذي يقف الآن يرى ويسـمع ويتفلسف في سره، ما هو إلا عين ليست في مكانها الصحيح، وما وجودها إلا بفعل ذلك الإصرار الغريب لكنس الضمير الذي يمارسه السلطان منذ أن اقترب منه.. التفتت السلطانة فجأة ناحيته، قاسته من رأسه إلى قدميه، ولـم تصرخ في وجهه كما كان يتصور، بل أحس بلسـانها يمتـد من حلقهـا، يبلل الشـفتين كأنها تـذوق طعمه، ولمح يدها تتحـرك إلى مواضع البعثرة في الشـعر، تلمهـا، وفي الثوب، تعدلهـا.. لكن المسـاء مضـى، وأمسـيات كثيـرة مضت، وجـاء دوباجي وكثيـر من حكماء السـلطنة الكبـار، ليخضعوا السـلطان لذلـك الفحص الكبير الذي لم يتركوا فيه موضعاً إلا جسـوه، ولا خلية إلا اسـتوثقوا من أنها خلية حية، وكانت النتيجة.. لا شـيء.. لا شـيء أبداً.. وحين عادت جمعة الصياحات التالية، كانت عادية وأمضاها السلطان بالحضور القديم الذي تشوه في تلك الجمعة الغريبة.

هبطـت القافلـة الجديدة فـي مهبـط القوافل المخصص في سـوق (جـوا جوا) فجـأة في ذلـك النهـار، وأحاط بهـا الرعاع مـن كل صوب مانعين فضـول الطريق مـن الاقتراب. لم تكـن إحدى القوافـل التجارية المعتادة التـي تأتي من طرق التجارة المتشـعبة، ولا قافلـة من تلك التي قـد تضم وفـدا رفيعا جـاء لقـرص أذن أو تقديم نصيحـة، ولا كانت من قوافل الإغاثة الخيرية التي يقذف بها العالم من حين لآخر ذرا للرماد في العيون، ولكنها عدد محدود من البشـر كانوا مسلحين، ومئات من الإبل تحمل صناديق مختومة بالشمع.وكأن السلطان كان على علم بها قبل أن تهبط بسـاعات، لأن أعضاء مجلسه الكبار اسـتدعوا في ساعة مبكرة من ذلك النهـار، والظهوريون أيضاً نبشـوا من أكواخهم حول قصر المسـك لمرافقة السلطان في مهمة بدت واحدة من المهمات الجليلة.

كان الموكب الذي نبع من قصر المسك بعد ذلك، وصب في مهبط القوافل، عبر طرق (جوا جوا) الموحلة والملتوية، كبيراً بعض الشيء، لأن العامة في الطرق والذين تبعوا إحساسا غامضا، قد كبروه، وأزياء الفضول التي تبعثرت لدى رؤية السلطان مخترقاً الشوارع في يوم عادي ليس يوم عيد ولا يوم نعمة، ولا ذكرى جلوس على العرش، أعطت لذلك الموكب طعم المواكب التي ربما كان وراءها خير.وصلوا إلى مهبط القوافل، وترجل السلطان أولا يتبعه الكبار، ودمدوم، والظهوريون الآخرون الذين حرموا من جلسات الترفيه المغلقة، وأفسح الرعاع المحيطون بالقافلة طريقاً مستقيماً بعض الشيء نفذ منه السلطان وموكبه إلى مكان الإبل والمسلحين الذين كانوا الآن وقوفاً بنظام ورافعين تحايا قوية في وجه السلطان:

يا صاحب العظمة.

البارود في أنسابة.

ردد الرشيد..

البارود عندنا.. لغة الحرب الجديدة عندنا..

كان يردد ويبتسم، والكبار يبتسمون، والظهوريون التوت أعناقهم في التحديق بحثاً عن منكر، ربما يتربص بتلك الابتسامة.وفي حقيقة الأمر وبعد رسائل سرية عديدة، أرسلها السلطان، وردود أفعال عديدة تلقاها وبسرية أيضاً، وافق (أولاد جون) الأوروبيون كلهم بلا استثناء على تسليح (أنسابة) بالبارود.. لغة الحرب الجديدة.وجدوا في السجل الذي تدارسوه بإمعان وفي مرات كثيرة، بقعاً من الدم جف بعضها وما يزال بعضها حيًّاً يتحرك.. وبمقارنة السجل بسجلات دول أخرى، تقدمت لنيل حصتها من لغة الحرب المطورة، وبعد تعهدات من السلطان بتبعية لا يعرف كيف سيدبرها، تمت تلك الموافقة. كانت هناك حادثة السلطان (هاشم درب) الذي جاء (المجانين) يحملون رأسه على خرق ممزقة،

والتي وصلت إلى بعيد بواسطة العيون التي لن ينقطع بصرها عن رسم عيوب الدول، لكنها اعتبرت حادثة فردية قام بها أعراب من البادية طمعاً في جائزة.. ولم تدخل سجل (أنسابة) الدموي.

لغة الحرب الجديدة..

بدأ المسلحون يزيلون الشمع المختوم أمام السلطان وكبار سلطنته.. وتحت ستار من الرعاع يفصل العامة عن التحديق.. فتحوا صندوقا كبيراً وظهرت الكتل السوداء المغلفة بالسيلوفان، وفتحوا آخر، وظهرت البنادق.. الأسلحة التي تسحق غزالة مسرعة في الركض، وترمي جملا محملا من طوله.يبتسم الرشيد بلا أيّة أعراض للتوجس أو ضيق النفس التي ظلت تلازمه في الآونة الأخيرة، وكادت أن تُشخِّص (هيضة) و(هبوباً) واستسقاء بطن.ويفكر (دمدوم) بعمق وهو يحمي الظهر، يفكر في سرداب طوله نصف السلطنة فيه زاد وفيه أمل، وحفر بدماء مقهورين لا يمكن أن تكون سجلتها عيون التقصي التي ساهمت في منح البارود. يفكر في لحظات ضعف أكيد مرت وكان سنداً فيها، وسرحان غريب في الجمعة التي لا تتحمل السرحان، ودلائل أخرى متشعبة كانت تشير إلى أن الرشيد قد دفن شهوة الحكم، ويتطلع إلى مصير جديد.لكن الأمور الآن مختلفة والبارود تم جلبه في سرية، والبارود لغة العصر التي تؤكد البقاء والتمركز، وامتداد شهوة الحكم إلى أجل غير معروف..

سندرب الجنود على استخدامه.. وكذلك الظهوريين، وبعض الموثوق بهم من الرعاع، هل أنت معي أبي الشيخ؟

الذهن الرقراق معه بالتأكيد.. معه في انبهار شاق يحاول أن يستوعب اللغة الجديدة.. كيف تعبأ البنادق؟ كيف تفجر الألغام؟ كيف يسقط جمل من طوله بلطمة واحدة من تلك الكتل المغلفة؟.. ما أغرب التقنية التي لا تتوفر إلا عند أولاد جون..

- نعم يا مولاي.. أنا معك.. لكن من يدربهم؟

هؤلاء.

يشير إلى حراس القافلة المسلحين بأسلحة شبيهة بتلك التي كشفت عنها الصناديق..

- سيمكثون في السلطنة إلى أن يتقن الجند تقنية البارود، والآن خبئوا سلاحكم في مخابئ أمينة، واكرموا ضيوفكم.

يتحرك موكب السلطان من موضعه في مهبط القوافل، ويتحرك البارود بأيدي الزعاع إلى حيث يدفن في أقبية بعيدة، ويؤخذ مرافقو القافلة إلى قصر واحة (جوا جوا)، كي يكرموا في ضيافة قد تطول وقد تقصر، وقد تنتهي فجأة إذا جد أمر ما.وتلك الليلة بالذات يقترب (دمدوم) من أذن السلطان، يحاول محادثته عن غوامض ما استطاع أبداً حلها، لكن لا يستطيع.. يلقي بالسؤال إلى طرف اللسان، ويستعيده.. مولاي لا أفهم.. هل استعدتم الثقة التي كانت مفقودة في تلك الليالي الكثيرة الإحباط؟ هل ستردمون السرداب الأمني؟ لكن السلطان يقرأ.. ويجزم (دمدوم) أن الرشيد هو أعظم قارئ للأفكار صادفه في حياته..

ماذا يا دمدوم.. هل تستغرب؟ البارود قد يحل مشكلة (أنسابة) في حرب المواجهة، لكنه لا يجدي في حرب الغدر.. التي لا تأتي من الفوهة ولكن من القعر.. هل فهمت؟

بالطبع لا يفهم، يحاول الفهم ولا يفهم، يدور بالجواب في عقل الهرمونات من خلية إلى خلية، ويعود أبلها كما هو.. والرشيد يقرأ:

حين يجيد الجيش استخدام تلك الأسلحة، تأمن البلاد أو تملك الأمل، هذا ما استطعت أن أقدمه لشعبي، ولذلك تجدني سعيداً.. أما بالنسبة لي فما هي إلا هنيهة وتتغلب الأهواء عليّ.. لا تستغرب.. أنا أحكم (أنسابة) الآن بصعوبة كبيرة.

يتدحرج دمدوم إلى البله أكثر.. فما دام الأمر لم يكن مرضا في واحد من أعضاء الحياة الهامة.. وما دام البارود قد وصل وصار في

اليد.. وما دام العدو القديم قد مات ودفن في تربة (أنسابة) الموحلة.. فأي هنيهة تلك التي يتحدث عنها؟ لا يفهم السلاطين.. لا يفهمهم أبداً.

الآن خبر البارود وقد انتشر. واللغة التي لن تكون أبداً سرية في بلد لا يولد فيه السر إلا ليتوزع، موجودة بالفعل في كل بيت.. كل شارع.. كل مدينة وقرية وجبل.. والشكل الذي ما استطاع العامة التحقق منه، يوصف بالتخيل الذي لا يستطيع الرعاع منع أحد من تخيله. البنادق توصف بأنها أفخاذ إبل لكن متحجرة.. جذوع هجليج يابسة.. والرصاص يشبه بثمار شجر السدر، والكتل المتفجرة.. هي بالضبط صخور جبل (الكراديس) التي كانت تجلب إلى (جوا جوا)، وتستخدم بعد نحتها وتسويتها كموائد لطعام الفقراء. ظهر في الأسواق زي نسائي أسود كان اسمه ثوب البارود وولد أطفال كانوا في رحم أمهاتهم حين وصلت القافلة، وسموا (بارودي) و(بارودة).. ويحلف الرجل صائحاً.. أطلقك طلاق البارود، ويلعب الصغار لعبات خشنة ومؤذية أسموها حزام البارود.وينط الخبر إلى كردمال.. جلبوا البارود.. جلبوا البارود، وإلى ممالك الوسط حيث(ο الأصم) وأصهاره زعماء تلك الممالك، والذين ضحكوا بشدة، وكشفوا لأول مرة عن سر كبير كانوا يدسونه بحرص.. البارود عندنا.. وعندنا منذ سنوات طويلة.. ودعموا ذلك الكشف بالفعل حيث تجمع مواطنو تلك الممالك في ساحات كبيرة ليشهدوا ذلك التفجير التجريبي لكتلة ضخمة من السر الذي انكشف. وينط الخبر المجدد عائدا إلى كردمال.. إلى تخوم (أنسابة).. وعرب المجانين بعطايا الأب الشيخ وجوائزه لا يقصرون:

البارود عندهم ومنذ سنوات طويلة؟ ما هذا الكلام السخيف يا يوسف كرا؟

- هذا ما وصلني يا مولاي.

وهل أنت متأكد؟

-كل التأكيد يا مولاي.. عرب المجانين لا يكذبون في شأن خطير كهذا.

إذن فقد تدربوا على استخدامه.. ولابد أنهم تفوقوا.. وتقول ثيراناً في أحواض برسيم.. من هو الثور حقيقة أنت أم هم؟لم تعد تعجبني أبي الشيخ.. لم أعد أنبهر بك.

كان صوته في تلك اللحظة أعلى صوت لسلطان في مجلس نقاش، واليد التي رفعها في الهواء وهوى بها على الأرض، أعلى يد ترتفع وتهوي.. وأحس الأب الشيخ بأن الصوت قد جرحيه، واليد قد هوت على صدغه، وتعكرت هرمونات دمه بالكامل.كان حتى تلك اللحظة رهناً لإشارة مولاه (رغد الرشيد)، يميل حين يميل ويعتدل حين يعتدل، لكن الإساءة بالغة.. بالغة جداً.. ثور في حوض برسيم.. وما دام السلطان قد بدأ.. فلن تكون إلا نهاية لا يمكن بلعها بأي حال من الأحوال.خرج السلطان مستنداً على كتف ظهوريه الهرموني، وخرج الأب الشيخ مبعثر الوجه، وهائماً في هواجسه وجرحه وإحساسه بألم صفعة كانت تقصده.. الأشياء تتغير.. الناس يتغيرون، وما كان طاعماً بالأمس، قد تسد مرارته الحلق في يوم يجيء.

-24-

كان لأحمد برم عم السلطان ذي اللسان الركيك الراطن، ولد في أربعينيات العمر اسمه (صرحي)، وكان يلقب ب(الرأس) لأنه خرج إلى الحياة بمؤخرة شديدة الضآلة وبقي رأسه الكبير الحجم محشورا في رحم أمه لعدة ساعات قبل أن يتم استخلاصه.نشأ الرأس وتربى وسط أمراء السلطنة الآخرين، نفس الحياة المترفة، نفس رضاعة الغطرسة، وفي سن مبكرة ظهرت عليه آثار التمرد على سلطة الرشيد.. كان يأتي بتحليلات غريبة تنادي بعزل السلطان الذي لم يأت في موعده ولكن غصبا.. حكايات شفاهية عن انتزاع السلطة من (آل برم) الذين كانوا هم الوارثين الحقيقين وتحويلها إلى آل المقدم.. أعمامه.. لم يكن يملك سندا، ولا جرت الأمور كما تخيلها، وحاول الرشيد في مرات عديدة أن يحتويه، يمنحه كتيبة ليقودها، أو شلة من جباة الضرائب ليرأسهم، أو قافلة تجارية تبعده عن مناخ (أنسابة) قليلاً ووضعه مرة عضواً في سلسلة نقل الصياحات السباعية.كان (الرأس) عنيدا، وموغلا في التمرد وابتدأ يجمع المؤيدين لإفراز لسانه، واضطر السلطان في النهاية إلى اعتقاله، ونفيه إلى الجبال البعيدة بحراسة عشرين من الرعاعيين يتم استبدالهم كل بضعة أشهر، وذلك خوفا من تمردهم في جبال القحط تلك، أو رضوخهم لصداقات مريبة قد يحاول (الرأس) إنشاءها.كان إجراءا صعبا، وأحدث توترا في علاقة الدم ولم يتم تجاوزه إلا بصعوبة كبيرة. كان الأب الشيخ (يوسف كرا) أحد الذين هضموا تمرد (الرأس) وحاول الأخير إغراءه بمعاداة الرشيد في زمن بعيد.. فأبى بشدة، وكان يزوره من حين لآخر بناء على تعليمات السلطان..

(اطمئن على أحواله أبي الشيخ.. مهما يكن.. فيوجد الدم.. وتوجد الرحم).

كانت آراؤه التي يبثها في حضرة الأب الشيخ هي نفسها أراء الشهوة التي لم تتغير، وقد شم فيه (كرا) رائحة سلطان ربما يمنح الكرسي نكهة ما.. حاصره ذلك الشم مراراً، وكان يقتلعه، يفلت من حصاره بصعوبة.. فحتى تلك الأيام كان السلطان سلطاناً.. والأب الكبير أباً كبيراً.. ومواثيق بناء السلطنة التي وضعها (يوسف ضو)، راسخة في العمق لا تتزحزح.. والآن.. ثمة هواجس للنفس تأتي وتذهب.. واهتزازات متكررة يهتزها السلطان، وتهتز لاهتزازه الهيبة الموقرة.. في الماضي ما كانت شائعات الحرب تذهب بابتسامته، خسائر الحرب ما كانت تضنيه، وحتى لو فر الجنود كلهم كان يحارب.. يربح.. يخسر لا يهم.. الآن يرفع الصوت أكثر مما يجب، يعلق اليد في الهواء ويهوي بها في تلك الصفعة المعنوية، ويخرج دائماً ودائماً وهو متكئ على كتف خصي نكرة ما كان يجب أن يقترب بتلك الدرجة..

وصل الأب الشيخ إلى قصره العامر في بقعة قريبة من قصر المسك.. قصر (المشاورة) كما كان يطلق عليه، والقصر الذي كانت جواريه المدللات والمتنوعات مثارا لحسد الكثيرين.. وكان عبيده بمواصفات خارقة ويغطون ضوء الشمس لو خرجوا.. جلس على مقعد يحاول الاسترخاء.. ولم يستطع، كان (الرأس) يأتيه قافزاً، يأتي بهيكله الفارع، وعينيه المدورتين، وأفكاره التي ما كان يستطعمها سابقاً والآن تبدو ذات طعم.. ينحشر في عقل استرخائه، يشدَّه.. ويدفع بالسؤال الحار.. والحار جداً:

ماذا لو أصبح الرأس سلطاناً لأنسابة؟

ماذا لو تغيرت وراثة الحكم.. خرجت من آل نفر المقدم.. وذهبت إلى آل (صرحي الرأس)؟

حتى هذه اللحظة هو أطوع للسلطان من بنانه.. لكن الطاعة قميص قد يضيق وقد يتمزق، والبنان قد يشل وقد يتلف، وما دام الرشيد قد سعى إلى تمزيق القميص.. فليتمزق.. فليتمزق..

رددها مراراً وبصوت الهرمونات الرقراق، الذي لم يكن من المفترض أن يكون صوت الهيبة، ولكن الصوت المستلف.. الصوت الذي ينبع من مكان آخر.. في الغد سيقوم برحلة إلى منفى (الرأس) ليتأكد من شكله، وصلادته، وصلاحية الأفكار التي يحملها.. سيقترح على السلطان ذلك، وسيوافق السلطان لأن أشهراً طويلةً قد مضت منذ زاره لآخر مرة، سيوافق، وقد تكون الموافقة الأخيرة في حياته.. في وسط تلك الأفكار لم يمنع نفسه من السؤال.. هل يحب (رغد الرشيد)؟ كانت إجابته على نفسه صمتاً تاماً.. في مثل تلك المناصب لا يوجد حب.. توجد أقلمة للنفس تنام ساكنة ومتى ما بدأت تصحو.. فلا بد من شيء.

الصباح التالي يحمل رائحته وتميزه، وكونه الصباح الذي جاء بعد أرق وسهاد ومعاناة، وشجار حاد بين نفس تريد ونفس تأبى ومصرع النفس التي تأبى الخيانة أخيراً وإشراقات الصباح تلوح في الأفق:

-مولاي السلطان.. منذ مدة طويلة لم نتفقد ابن عمك الرأس.. شغلتنا هواجس الحرب عنه.. وأخشى أن يغضب الشيخ أحمد برم.. هل تسمح لي بالذهاب إلى جبل (برتي) لاستوثق من أمره وإن كانت قد غيرته سنوات الحبس الطويل؟

- اذهب يا كرا.. رافقتك السلامة..

بالجلافة نفسها، بالصوت المرتفع نفسه، وبإشارة من يد الخواتم المرفهة فيها كنس.. كأنه كنس لقذارة ما.. وينهض مستندا على كتف خصيه النكرة.. والكبار الآخرون ما بالهم.. كأنهم طيور محبوسة في قفص.. حسناً يا رغد.. أيام لك.. ويوم عليك.. يوم واحد فقط وبلا زيادة.

ركب (يوسف كرا) في قافلة مخملية تضم عبيده المخلصين، وبعضاً من جواريه الناعمات، وزاداً نظيفاً ومرفهاً يكفي لرحلته الطويلة ويفيض. كانت الجبال بعيدة جداً، والطرق إما قاحلة وإما وعرة، وإما تشق قرى تسكنها الهوام وديدان الأرض.لقد كان الأب الشيخ معتادا على تلك الرحلات، يقطعها جليلاً ومهاباً، وما حطوا في بقعة للاسترخاء إلا جاءه الريفيون محيين، ومقبلين للأيدي، وأيضاً ناحرين لخراف الضيافة ومقدمين لعصائد الدخن والحميض.لكن الرحلة الآن مختلفة، رحلة المكيدة التي قد تبقيه جليلاً مهاباً إلى الأبد، أو تهوي به إلى حفرة سحيقة في باطن الأرض.في مواثيق (أنسابة) يوجد عرف لا يغيره أحد، والأب الشيخ.. وظيفة الخصيان تأتي بوصية من خصي إلى من يخلفه، وما دام الوزير الكبير يخضع للسلطان بالقلب كله، والعقل كله، والشفافية كلها، فقد لا يحدث شيء ولكن في حالته هو.. توجد دلائل كثيرة على أنه ما عاد الكبير الحقيقي فعلا.. لقد خاف كثيراً من (دمدوم)، وعاد ليدفن الخوف.. ثم تأتي الجلسات الأخيرة بالخوف مرة أخرى.. الكتف النكرة في مواجهة الكتف الجليل.. والنكرة هو الذي يربح.. رحلة الجبال صعبة وأفكار النفس تجعلها رحلة توتر حقيقي.

في إحدى تلك القرى المحيطة بالجبال، التقوا بريفيين كانت أرضهم قاحلة، وهياكلهم جذوع متخشبة، وكانوا غاضبين وسلموا الأب الشيخ كتاباً إلى رأس السلطنة أبدوا فيه تذمرهم من جباة الضرائب الذين يأتون مرتين في العام، والحصاد لا يحدث إلا مرة فقط.. كيف يحدث هذا أبانا الشيخ؟

طمأنهم (كرا) كثيراً، قال سينصلح الحال، وكانت (ينصلح) التي أصر على تكرارها مرات ومرات، هي (ينصلح) الكائدة التي كانت تعدها هرمونات الحنق داخله، وتبهرها ببهار ما سيحدث.. وحين وصلوا إلى سلسلة جبال (مادبو) التي يقيم (الرأس) في واحد من كهوفها في جبل

(برتي)، كانت فكرة الأب الشيخ ناضجة، وعلى نار هادئة.. نار الرحلة الطويلة الصعبة.

أول ما فعله الأب الشيخ حين وصل إلى كهف السجين، هو أنه شرع في تفحص (الرأس) في أغلاله وبعد أن أزيلت منه.وابتدأ يفكر في صياغته كسلطان قادم إلى عرش أنسابة:

اللحية البيضاء يمكن خضابها..

الرأس الكبير الذي غدا أصلعاً، تهندمه عمامة الضباب الفخمة.

الساقان اللتان تقوستا من جر أثقال المعاناة، تعتدلان تحت الجبة الخضراء المزركشة. اللسان مهما كان ركيكا، يمكن غسله، ولون البشرة الداكن بفعل شمس الجبال التي لا تغيب، تضيئه القناديل في قصر (المسك) أو قصر (الرأس) أو أي قصر.. لا يهم..

نهض إليه، قبل رأسه وناداه بمولاي لأول مرة في تاريخ زياراته التي كانت بلا عدد، وطوال سنوات ماضية. والرأس ليس غبياً، ولكن في ذهنه غباش من أثر حميض الجبال المر تحدث بهدوء وهو يثبت عينيه على وجه الرجل الكبير:

ماذا يحدث في (جوا جوا) أبي الشيخ؟

عاهدني أن تكتم السر أولاً

همس (يوسف كرا).

أعاهدك..

ردد الرأس في همس مماثل، وبانت أسنانه مقبولة بين شفتيه غير المقبولتين في الوقت الحاضر من كثرة ما امتصتا من الجير والرطوبة والتهاب اللثة.

بيني وبينك فقط يا مولاي..

بيني وبينك فقط أبي الشيخ.

ناشـده (يوسـف كرا) أن يغتسـل، وأحرج من جيبه مصحفاً صغيراً مطعَّماً بخزف الأبنوس، وضعه أمامه، وناشده أن يحلف عليه بالرغم من قناعته السابقة أن الرأس لم يكن من الذين تمنعهم حليفة من نقض عهد. لكنـه المتـاح.. المتوفر والذي قطعا سـيمضي في المكيدة حتـى نهايتها. وفي صوت رقراق وهامس قص عليـه قصة الهواجس والزوغان، وكتف الخصـي النكـرة، والإخفـاق الكبير فـي مـلء الجمعة الصائحة وشـعب (أنسـابة) الذي بدأ يلاحظ، لم يقل شـيئاً عـن البارود باعتبـاره مصطلحاً جديداً على (الرأس) قد يسـتغرق وقتا طويـلًا ليفهمه، واكتفى بالقول إن (أنسـابة) الآن كاملة النمو.. كاملـة العتاد وجاهزة للوقـوف في وجه أي عدو، ولا ينقصها سوى رجل.

ومسك النساء.. هل لازالت هي الأثيرة؟

طبعا.. وتستنزف الكثير من موارد السلطنة.

وهذا الخصي النكرة الذي تتحدث عنه من أين جاء؟

هـو ولد صاح في إحـدى الجمع مطالبـا بوظيفتي.. وعاقبه الرشـيد.. الذي كان.. عاقبه

ببذاءة الألسـنة، ثم اقتـرب الولد منه بعد ذلك.. إنهـا قصة طويلة.. ستعرفها بالتأكيد.

ضحـك الـرأس ولكن فـي همس، انتشـى فـي همس، وتسـارعت ضربات قلبه في همس شـديد جداً.هي نفسـها الصفقة التـي أراد إبرامها مع الشيخ منذ عشرين عاماً، والآن تعود إليه، وفي كهف مظلم في جبال بعيدة.. ما أغرب ذلك؟

ولكن كيف نتنزع السلطنة من (وغد الرشيد)؟.

قال وغداً، ولم يقل رغداً، وأعجبته التسـمية، افترت شفتاه مجددا، وخرجت من بين أسنانه ضحكة هامسة برائحة الحميض ولون الجير.

- دع الأمـر لي يا مـولاي.. وقريباً جـداً آتيك بالأخبار، فقط تمسـكن..

أبـك بغـزارة.. صـر أبلهـاً.. لا مؤاخذة، حتـى أسـتطيع أن أقربك من العرش وبعدها تتضح الأمور.

الرأس ليـس غبياً، والرأس يملـك الأهواء التي لم يسـتطع كتمانها وقذفت به إلى ذلك الجحر، وتتجدد الشـهوة في دمـه بتجدد الظروف.. رجل (أنسـابة) الكبير يأتيـه.. وقطعاً يملك المخرج، ويسـتطيع أن يضعه هنـاك حيث حلم دائماً.. يتمسـكن.. يبكي.. ويصير أبلهـا بالريالة وحتى قبل أن يغادر الأب الشيخ مكانه.

تركـوا لـه تغذية جديـدة لتنظيـف أحشـائه، ومرطبات للوجـه لفرد تجاعيده، وكمية من الأكاسير المختلفة لتعديل ساقيه المقوستين ومزاجه البربري بفعل البيئة.وأيضاً منحوه خضاباً جربه أمام الشـيخ حتى يستطيع أن يرى اللحية مصبوغة.

ينهض الأب مسـتأذناً في الرحيـل ويبقى وهم السـلطة الذي زرعه في تلك الجبال وهماً كبيراً لا يحاول الرأس أن يتفادى مضاعفاته ولكن ليغـرق فيهـا.. ولأول مـرة منـذ عشـرين عامـاً رأى بعيني الخيـال قصراً فخمـاً.. أحصنة تسـابق الريح.. جـواري لذيذات الطعم مـن لحم فارس والحجاز ومصـر، وحدائق غناء ترتـع في نضارتها الببغاوات التي سـمع عنها في القصص.. وهم السـلطة الذي صيره سـجيناً منكمشاً إلى أقصى حـد.. يحاور الداخـل، ويأبى الجلوس إلى سـجانيه الخشـنين، يحدثهم بركاكـة كما كان يحـدث في السـابق.. السـلطان (صرحي الـرأس).. ما أحلى الرأس حين يسـبقها صرحي، وما أحلـى صرحي حين تأتي لصيقة بالرأس.

الحمد لله على سلامتك يا كرا.. كيف وجدت ابن عمي الرأس؟.

الجلافة.. الجلافة.. الكنس.. الحمد على السلامة المُرَّة.. التي هي في الواقع لا حمداً على السلامة.. ولا أي شيء آخر.

- تعيس جداً مولاي الرشـيد.. أبله ومسـكين وفاقد لصفاء الذهن.. لقد

تـأدب وحتى لو أطلقته في شـوارع (جـوا جوا)، فلن يكـون إلا أبلها يتبعه العيال، ويلقون على جسده الطوب.

يسـتمع الرشيد وفي ذهنه لا شـيء، يرفع العينين ويخفضهما، وفي ذهنه لا شـيء. كان (صرحي) فـي الواقع رأس فتنة بعيـدة طواها الزمن، ونفـي إلى تلـك الجبال لأنـه كان يسـتحق النفي، ولـم تكن ثمـة عقوبة أخرى أخف.وما دام قـد توعك فقد تاب، وما دام قد تاب، فلا بأس من عودتـه إلى (جوا جوا).. هي الطريقة التي تكسـبه عائلـة عمه التي كانت تواليـه، ولكن مـوالاة مغصوب لغاصب، ولـم تنبع من القلـب أبداً.فقط هناك نقطة يجب أيضاَحها.. الشـرط الذي لابد منه حتى ينكسر (الرأس) انكسارا تاما، ولا يرتفع إلا بأمره..

لا بأس يا كرا.. فليعد، ولكن بشرط..

وما هو يا مولاي؟

أن يعلن التوبة أمام الملأ في ساحة (الكوراك) يوم الجمعة.

كان شـرطا قاسـيا وصعبا، ويكاد أن يتوغل في لحم المكيدة يفسد خلاياه، الصياح بالتوبة لمواطن عـادي.. لا تعني الكثير للكثيرين، ولكن لمتمـرد بحجم (الرأس) عرف الأنسـابيون كلهم بأمر تمـرده فيما مضى، ولابـد أن سـيرته انتقلـت إلـى أجيالهـم الجديـدة، فهو صعـب وصعب للغاية.. لكن في المقابل كانت هناك السـلطنة.. هناك عرشها المذهب.. كرنفـالات أعيادهـا.. مجالـس (كوراكهـا) التي تقبـض علـى المصائر.. وهيبتهـا التي لا يسـتطيع مائـة (رأس) ألا يحلـم بها. فليـأت.. وليصيح ولينكسر.. ولكن إلى حين. صوت الهرمونات يبزغ:

- بالتأكيد يا مولاي.. سيفعل ما تأمر به.

وصل (الرأس) إلى (جوا جوا) برفقة حراسه الرعاع في يوم شتائي بـارد هبطت فيـه الحـرارة فـي الأجسـاد والقلوب، وبـدت البـلاد فراغاً عريضاً تتشـتت في عرضه الأجسـاد المرتعشـة والأخشـاب التي تشتعل

بنيران الدفء.وأسرع الأب الشيخ ووالده أحمد برم وبعض أقاربه إلى استقباله في الضواحي وقبل بلوغه (جوا جوا) بساعات. حملوا إليه ثياب أمير محتشم وغداء أمير جائع، وانفراجات وجوه لا تتوفر إلا عند استقبال سلطان حقيقي.وجاءوا به مباشرة إلى الرشيد ليركع أمامه، ويقبل الأرض.. كان الرشيد متكئاً فجلس، وبعيني الفطنة القديمتين بتدأ يتفحص التائب الذي لم يبد له أبلهاً تامًّاً ولكن بعض أبله.. كان جديداً ومختلفاً ولدرجة أن الرشيد استغرب كيف استطاع أن يقود الحملات ضد سلطته في تلك الأيام البعيدة؟

مرحباً يا صرحي.

خادمك يا مولاي.

- سمعنا أنك الآن تناصرنا.. وتود لو عفونا عنك عفواً تاماً.

هي الحقيقة يا مولاي.

إذن دعني اسمع تلك المناصرة في مجلسي يوم الجمعة وأمام كل الناس.

- تسمعها يا مولاي.

وبتلك الإشارة التي كانت تؤجج الغل في صدر (يوسف كرا)، كنس الرشيد ضيفه التائب والتفت إلى دمدوم راسما على شفتيه ابتسامة. خرج الرأس ومرافقوه، متوجهين إلى مقر إقامته الذي كان بيتاً متواضعاً في أحد أحياء (جوا جوا) البعيدة.. دبره الأب الشيخ حتى يكون ملاذا آمنا، وفي نفس الوقت جهة للتشاور الخفي لا تسقط عليها عين ولا تلتقط همسها أذن.كان الرأس موافقا على الصياح يوم الجمعة، ومتعجلا في نفس الوقت.. فقد بهرته حضارة (جوا جوا) التي تركها مراعي رعاة ووجدها مدينة.. بهرته البيوت والقصور العالية الأبراج، وألبسة الحرير، ونكهة التجارة التي كان يتحسسها في كل بوصة في الطريق ومن ظهر الناقة الذي كان مرتفعا فوقه كان يشم العطور، ويرد الابتسامات، ويحيي

بعض معارفه الذين لم ينسوه برغم غيابه الطويل، ويود لو رفع صوته وهتف.. أنا سلطان (أنسابة) القادم.

لم تكن هي الجمعة الظليلة في حساب المنجمين، وقراء الفلك، وأنوف الشم الأنسابية التي ما كانت تخطئ في ذلك الأمر إلا نادراً، لكن الرشيد أراد أن يجعلها كذلك. ليس من ترفع ولا رغبة في إذلال جديد لابن عمه الذي أذلته سنوات الجبال والحميض المر بما يكفي، ولكن تتبعا لإحساس غامض لم يستطع تفسيره.انتشر الرعاع في كل أرجاء السلطنة، كانوا يلتقون الناس بوجوه هاشة، يحثونهم على الإسراع إلى (جوا جوا).. كأننا سمعنا أنها الجمعة الظليلة.. في العاصمة مؤشرات كثيرة تدل على ذلك.. وكان (حلحلوك) المجنون الذي فر في تلك الجمعة البعيدة التي أعقبت أربعين الإفاقة بعد مقتل رجل المهام الجليلة، مختبئا في دغل كثيف بالقرب من العاصمة، يتغذى من النبق والدخن النيئ، وطيور (القيلدون) التي تتساقط بفعل سهامه أو بفعل ضعفها.. عثر عليه الرعاع في غربلة كثيفة للأماكن التي من الممكن أن تأوي خوف مجنون، حثوه بشدة.. لا صقور (جرناس) ولا نسور، ولا رخم ولا أي شيء آخر، فقط عد إلى الجمعة.. ولن تخرج صفر اليدين.

كان المجنون مذعورا ما يزال، وقد مضى أكثر من عامين والناس يتلفتون بشدة في ظل ((الهجليج)) والشوارع المحيطة بساحة (الكوراك) بحثا عنه، الحاجب يناديه بانتظام كأنه يقف أمامه، وذيل السلسلة يود لو سمع نداءاته تعربد ليمتصها ويلقي بها بعد ذلك عند قدميه. الطوبة المدهشة في مجالس (الكوراك).. الصوت الذي لا تكتمل الجمعة إلا بوجوده.أمسك بثياب الرعاع الذين عثروا عليه..

أستحلفكم بالله.. ألا يوجد صقران من صقور (جرناس) متبلان بالسم؟

- نقسم بالله.. لا يوجد ذلك.

خرج من مكمنه متتبعـا للطريق، وذاهبا إلى حياتـه التي هي جمعة (الكوراك).

هي الظليلة.. هي الظليلة.. جمعة القدر..

يتهامس الناس وقد فاضت ظلال (الهجليج) بالمستظلين، تكدست الدواب والسحنات، ومشاق السفر، وانتفخت الحلوق بصياحات من كل شكل ولون.

هي الظليلة..

الباحثون عن وجاهة، الباحثون عن لقمة خبز، الباحثون عن سروال أو عمامـة، الباحثون عـن قصة حب أو احتكاك لـذة، والمتفرجون الذين لن يصيحوا ولكن يستمتعون بالصياحات.

وكان ما سـاهم في تفرد تلك الجمعة، أن قافلة قادمة من (تمبكتو) ومحملـة بالسـحرة الأفارقة قـد هبطت فـي (جوا جـوا) في ذلـك اليوم بالذات، وفوجئ الناس بالعشرات من أولئك السحرة في سواد سحناتهم، وأزيائهـم الملونـة، وقبعـات اللامعقـول التـي يرتدونهـا، وهي مشـتعلة بالنيران.أيضـاً كان الكثيـر مـن الشمامسـة المتجوليـن حاضرين، وبعض رسـامي الذكريات الذين جاءوا بتوصية من السـلطان ليرسـموا (الرأس) وتشنجات رقبته، عندما يصيح طالبا العفو.

كان (دمـدوم) ظهوري السـلطان، ورفيقـه مانح الكتـف النكرة في سـاعة البـؤس، يحس بغليـان غريـب يعـذب هرموناته، ولا يعرف سـببا لذلـك إلا أن يكـون مريضـا أو مُرهقـاً أو به وسـاوس نفـس.كان يحس بالظهـور الفجائـي (لصرحي الـرأس) في مناخـات (جوا جـوا)، وبتلك الطريقة المبذرة، ظهورا يدعو للعجب. غزته عشرات الأفكار التي كانت تصب كلها في بوتقة أمر ما.. إنه (الأمر الما) الذي يحاول معرفته بجنون ولا يستطيع.

التم المجلس السـلطاني في داخل قصر (المسـك) كما يلتم دائماً،

كان الأب الشيخ لامعاً كعادته، العم أحمد برم متجهماً لكن في تجهمه رضى، لم يكن يريد لابنه صياح توبة تعرفه البلاد كلها، ولم يكن يريد سجناً أبدياً يموت فيه (الرأس) بعيداً وتافهاً، وواحداً من الجيف وكانت العودة التي لن يعرف تفاصيلها أبداً بمثابة الرضى الذي أكل شيئاً من تجهمه.كان السلطان متدفقاً حياة، تلك الحياة التي أغاظت الأمير مساعد فيما مضى، وتغيظ الآن أباً هرمونيّاً يفكر ويفكر بعمق لإطفائها. وكان اللصيق الذي بات العدو الحقيقي لزملائه الظهوريين باستيلائه على مجالس الترفيه، واقفاً وقريباً جداً، وله خنجران ينطان من تحت الجراب.

صرخ حلحلوك المذعور ومائة شعيرة دموية في داخله تنتفض، كان عجوزاً ومتهدلاً، وكأن عاما العزلة في ذلك الدغل قد هدا حيله:

أريد كفناً أبيض ليس من دمور، ولا بوبلين، ولا تيل ولا ساكوبيس، أريد قبراً واسعاً ليس في الأرض، وجنازة يخرج في مقدمتها مولاي الرشيد.. أرروك.. أرروك.

كان نداءً جديداً، وفيه بعض النقاط الموضوعية كما قدر ذيل السلسلة، نقله كأي نداء عاقل إلى سلسلته، وجاء الرد يحمل موافقة السلطان بقماش الكفن، وتقدم الجنازة، وإصدار الأوامر إلى الرعاع لحفر القبر في أعماق أيَّة ترعةٍ أو بئر.

صاح واحد من عرب (المجانين) أولئك الذين حملوا رأس السلطان (هاشم درب) مخنوقاً بالخِرق في ذلك اليوم البعيد، وطاردتهم (لا حول ولا قوة) التي زمجر بها السلطان، واضطرتهم للتخلص من الرأس بدفنه:

- مولاي السلطان رأس (درب) يطاردني.. عيناه تتعقباني.. ولسانه يمتد في وجهي.أريد أن أتوب.. أن أدخل الرعاع.. أن أموت.. أرروك.. أرروك.

سرت نداءاته في السلسـلة وعادت ممتلئة. لقد استجاب السلطان، وستصدر الأوامر للرعاع بأخذه..

وكان أغـرب نـداء ذلـك الذي أطلقـه أحـد السـحرة الأفارقة ممن جـاءوا بقافلة (تمبكتـو)، كان صراخاً وعراكاً وتنطيطـاً للعيون، لم تفهمه السلسلة، ولـم يفهمه السلطان، وعادت السلسلة فارغة.

تتوالـى الصياحـات، وتنفـر العـروق مـن تحـت جلـد الرقـاب، وابتسـامات انتصار أو تقطيبـات هزيمة، والجمعة تأخذ مسـارها كجمعة ظليلة لم تشـمها الأنوف ولكن حشـرت في الأنوف حشـراً.ولـم ينجمها المنجمون ولكن أربكت حساباتهم بشدة.

خـرج (الرأس) من بين الجموع المحتشـدة يرتدي جـزءاً كبيراً من البلـه الـذي فصله لـه الأب الشـيخ، كانـت جبته مـن قطن عـادي قصير التيلـة، عمامته من (كرب) مهروس، وحذاؤه مـن جلد أرنب بري.. أفقر الأحذية التي تمشـي على الأرض قاطبة.مشـى ملتويا إلى ذيل السلسلة، واستطاعت الأعين الغزيرة أن تلتقطه كله..

الرأس.. صرحي الرأس.. يتذكر الكبار.

مشعل الفتنة.. المنفي.. تتذكر النساء.

العبيط.. العبيط.. يهتف الأطفال.

مـولاي أريد أن أعلن توبتـي.. أن أقبل أرض (أنسـابة).. أن أكفِّر عن ذنوبي وأخدم مولاي السلطان إلى الأبد.. أرروك.. أرروك.

وأعقـب ذلك الهتـاف بحركة سـريعة انحنى فيها حتـى لامس فمه الأرض، وقبل التراب أسـفل قدميه.لم تكن تلك الحركة من رسم الأب الشـيخ، لكنها أعجبته حين وصفت له بعد ذلك، واسـتطال ليقبل الرأس الفارغ في قمته.

خـرج (الـرأس) متابعاًبالهمـس، وخـرج (يوسـف كـرا) لامعـاً، وانفضــت الجمعة الظليلـة بمخلفات الأحلام والسـفر والمشـاق، ليعود

نبض العاصمة إلى سريانه الطبيعي..

قراءة المكيدة الآن مشتعلة والأب الشيخ ينحت عقله الهرموني، والرأس في ذلك الحي البعيد جالس.. ينتظر.. وعلى أحر من الجمر أبله.. وصرنا.. مسكين.. وصرنا.. الصياح صحناه.. وأرض (أنسابة) الزبالة قبلناها وأصابت المصارين باللوعان:

مدخل (مسك النساء) مسدودٌ تماماً.. فحتى لو وعدناها بلقب (الأياكيري) الذي تتمناه، فلا الرأس ولا أي واحد آخر يقدر على قيادة مهرة جامحة كتلك.

باب الخصي النكرة، حامل الخناجر اللصيقة بظهر السلطان مسدودُ أيضاً.. فلو لم يقبل بالمهمة.. سيفشي السر ولو قبل بها، فسيفشيه أيضاً.

إرسال حلوى مسممة، أو وجبة من تلك التي يحبها رغد.. لن يجدي لأن هناك عبداً مكلَّفاً بتذوق الوجبات التي لا تصنع في القصر كنوع من الاحتراز الأمني.

- باب القنص والصيد في رحلة إلى أحراش (جوا جوا)، وحربة قد تطيش إلى صدر السلطان.. ممكن.. لكن الظهوريين بلا عدد، والرعاع بلا عدد، وقد تطيش الحربة ولكن إلى صدر ظهوري أو قلب واحد من الرعاع..

التمرد العلني وإعلان الحرب لن يجدي نفعاً، لأن الحرب في صالح الذي يملك العتاد وليس المشرد والهارب.

باب الجواري الغادرات اللائي يمنحن السم في الدسم وارد في السابق حين كان رغد فتيًّا، وليس متكاسلاً كما هو حاله الآن.. لكن يمكن.. يمكن..

كان عقل الهرمونات يعمل، وصبر السلطان المستقبلي ينفد، وبدا منظر الغليان واضحاً لدرجة أن (الرأس) لم يستطع أن يتناول غداءه ولا

عشـاءه، ولا جاءته نفس للنظر حتى إلى تلك الجاريـة المليحة التي جاء بها الوزير الكبير لتسليته في سـاعات التفكير المضنية.وأخيراً نطق الأب الشيخ:

هل سمعت بريَّانة الفارهة يا مولاي؟

ريانَّة الفارهة؟

نعم.. واحدة من بنات فارس المدلهات واللائي يستطعن القضاء على إمبراطوريات أرفع شأنا من سلطنة أنسابة.

وما علاقتها بالأمر؟

هي الأمر نفسه.. لقد شاهد الرشيد رسمها يحمله بعض العشاق ممن مروا بالسـلطنة منذ عاميـن، وذلك اليوم لم يسـتطع أن يتمالك نفسـه وشهق.. قال أريدها.. أريدها.. ولكن ما كان في اليد حيلة.

- والآن؟

في اليد ألف حيلة.. وستأتي الفارهة لتنصبك سلطاناً.. أبشر أبشر.

يريد أن يبشـر بالفعـل.. أن يجلس اليوم قبل غـد.. وتلك (الريانة) الفارسية التي يتحدث عنها تبدو بعيدة ومستحيلة ما دام العشاق يحملون رسومها في السفر ويبكون.. لا يدري كيف يدبر كبير الخصيان مكيدته.. لكنه سـينتظر سيبحث عن أكاسـير لقتل الملل، وتجميد الشوق وزيادة البله مؤقتاً حتـى تتم المهمة.. الخصيان ملاعين حتـى وهم كبار الدولة، وتلك الهرمونات في أجسادهم لها أفعال الجن. اتكأ الرأس على كرسيه وغفا.. والجارية تمرر يديها على رأسـه الأصلـع.. كان حلماً فخماً ذلك الذي أمسك بغفوته.. حلم الكبار جداً.. حين يحلمون.

-25-

أشـهر طويلـة مرت، تشـعبت فيهـا الطرق، والتـوت الأعنـاق تلفتا لاقتناص المخرج الذي لم يعد من اقتناصه مفر، واكتشـف الأب الشـيخ بعد مراسـلات ومناورات وتقصيات عنيفة شـارك فيها الكثير من أعراب البادية، وتجار القوافل، وأصدقاء يعرفهم ويودهم في البلاد الأعجمية، أن (ريانة) الفارهة التي كانت هي الباب الذي أراد أن يطرق عليه، والمخرج الذي لم يجد مخارج أخرى غيره، ليشـد (الرأس) من شهوته إلى كرسي السـلطنة، وينتقم لهرموناته من جلافة الرشيد، لم تكن حقيقة أبداً. كانت أسـطورة.. وهماً اخترعه العشـاق ورسـموه وطافوا يبكـون على حبه في الطرق والحواري، وعذابات السـفر البعيد. ريانة التي شـهق الرشيد عند رؤية رسمها وهتف.. أريدها.. أريدها.. لن تكون الأداة ولا غير الأداة، ولا أي شيء سوى رسم خيالي ومن اختراع عشاق مجانين.

كان (الرأس) ممغوصا وهو يستمع، وهو يمشي وهو يجلس، وهو يطيل التحديق في قصر (المسـك) الذي أسماه قصر (الياقوت)، وخطط لاستضافة ياقوتـة من جميـلات أنسـابة داخلـه، وتزيين غرفـه وممراته، وجدرانـه، وصالات لكز النظـر المريعة فيه كلها، بالياقـوت.. الياقوت.. الياقـوت.. كان يرتدي المسـكنة كثيراً، والبله كثيراً، يلتقي بالسـلطان في مناسـبات جليلة وغيـر جليلة، يقدم المسـكنة والبله، ونظـرات الخضوع ويتلقـى الجلافة.. لا بـأس يا رغـد.. أيام لـك وأيام عليـك.. لا بأس.. عطـر تتعطره اليـوم، أتعطـره أنا في الغـد.. تسـتهويه العلامـات الكبيرة، روح المسـك حين يشمه، حماية الظهوريين حين يتخيلها حمايته، وحتى رحـلات القنـص التي طالمـا قرأها في الخيـال رحلات قنص للسـلطان (صرحي الـرأس).. وفي سـاعات الخلوة التي لابـد أن يخلوها في بيت

العـوام ذلـك.. كان يرتـدي الجبـة الخضـراء المطعمـة بالعقيـق، عمامة الضبـاب الفخمة، وحذاء جلـد النمر المرقط الذي أحضره الأب الشـيخ لتكملة تخيله المريع.

ماذا ننتظر أبي الشيخ؟

اللحظة المناسبة.

ومتى تأتي تلك اللحظة؟

حين يحين وقتها.

يعود بذاكرتـه إلى أيـام التمرد البعيـدة، كان صغيرا والأب الشـيخ أيضـاً، وكان الرشـيد سـلطاناً غضـا لـم تجئـه الفطنـة كلهـا ولا صـلادة السـلاطين كلهـا.. يعود إلـى أيـام نفيه في جبـل (برتـي) البعيـد، الجير والحصـى والبـرد، وحميض الجبـال المـر، وركاكة الحـراس الذين كان يعاقر أعينهم وألسـنتهم. ولا لحظة متاحـة للتفكير في عـز.. يأتيه الكبير فجأة.. يأتيه ليوقظ كل شيء ويعجز عن فعل شيء.

- ما رأيك أن أتمرد من جديد أبي الشيخ؟

لن يجديك التمرد شـيئاً يـا مولاي.. وما هي إلا أيـام قليلة ويقتنصك الرعـاع مـن حيث لا تـدري.. وهـذه المـرة لا يوجد نفـي.. لا يوجد سجن.

ما هو الحل إذن؟

نصبر.. ننتظر.

تلفـه الهرمونـات بالنظر، بالسـرحان، بالمغص أكثـر، وفي مجالس السـلطان التـي لابد مـن الجلـوس فيها، ولابـد من الخوض في شـؤون السـلطنة، كان السـلطان يقتـرب ويبتعد، جلفا حينـاً، وناعمـا حيناً، لكن القلب الهرموني الآن يمقته، يريـد إزاحته بأية صورة وهرمونات المكيدة قـد تلاقحـت، وتلاقحـت وبدأت ثمـار تلاقحهـا تخرج حتى فـي اللفظ والمناقشة:

لا أعرف. لا أستطيع.. هكذا.. جافة دون زركشتها السابقة.

في أحد الأيام جاء الأب الشيخ لزيارة (الرأس) في ذلك البيت البعيد.. كان يحمل إليه جديداً خطيراً وفارهاً، ومخرجاً انفتح هكذا فجأة دون أن تكون لهرمونات التلاقح يد في فتحه.فقد أصيب حراس السلطان كلهم وبما فيهم خصيَّه النكرة (دمدوم) بمرض مفاجئ أقعدهم عن الحماية.. تسمم.. هبوب.. غيرة في البطن، لا أحد يدري، هم الآن يستفرغون بغزارة، يسهلون بغزارة، يضعون أيديهم على بطونهم، والسلطان في مجلسه وحيد وأعزل وبلا ظهر كان وجه الشيخ لامعاً بشدة، أعضاؤه تنبض بجنون، وتحت الجبة الخضراء الفخمة، يرقد خنجر المكيدة المسنون مستعداً للاستيقاظ، وغرس (الرأس) في كرسي السلطنة.. أسرع يا مولاي.. أسرع..

كانت مفاجأة كبيرة تلك التي واجهته.. كان الرأس أنيقاً بشكل لا يتخيله أحد، لم ينس حتى أن يرطب وجهه، ويدلي اللثام المذهب إلى عنقه.. لم ينس الحذاء المرقط، وجراب الجلد حول الوسط، ولم ينس أن يبتسم ابتسامة مشعة وهو يعلق رأسه بحبل في سقف حجرته المتواضعة في ذلك البيت الذي لم يكن أبداً باتساع أحلام سلطان يستعد للجلوس على عرش (أنسابة).. فوجئ الأب الشيخ بذلك المشهد ودعك عيون النظر مراراً حتى يستطيع أن يستوعب.. هرمونات الجسد كلها حتى يستطيع أن يتذوق.. ارتبك.. تبعثر.. جن.. انطلق في الطرق، في الأحياء، في الأحراش كلها، في الحياة المرة التي لم يكن يعرف إلا قشورها من قبل..

أليس هذا يوسف كرا؟.. مستحيل.. مستحيل..

أليس الأب الشيخ.. مستحيل.. مستحيل..

لقمة من هنا.. نظرة من هناك.. تسامح.. عطف.. حجر في الظهر.. مستحيل.. مستحيل..

-26-

جمعة (الكوراك) عادية جداً.. الناس.. (الهجليج).. أزيار السقاية، وانتظام الحاجب والسلسلة السباعية. وهبط الجليل المهاب عن فرسه الرمادي المخطط، وعلى أيدي العبيد الخارقين وخطا بحذاء جلد النمر المغاربي إلى داخل القصر.. كان يرتدي عمامة الضباب الفخمة، والجبة الحمراء المزركشة، ورائحة مسك نفاذة تغلغلت في أحشاء المتجمعين في لحظة مروره.. زغردت المزغردات، وهتف الهتافون.. وصرخ الحاجب الذي عند الباب:

- الأب الشيخ (آدم نظر).

2003/3/13

سلسلة
آفاق
عربية

هذا النص مستوحى من التاريخ القديم لسلطات كانت سائدة في السودان ردحًا من الزمان، وقد استوحى الكاتب أحداث هذه الرواية من كتاب ألفه رحّالة عربي قام برحلة إلى بلاد السودان في القرن السابع عشر.

تصميم الغلاف: احمد اللباد

وزارة الثقافة



السعر: ثلاثة جنيهات